الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والفنون

رحلة المشرق

الى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين

للرحالة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف

ترجمة وتعليق

سليم طه التكريتي

منشورات وزارة الثقافة والفنون ـ الجمهورية العراقية
١٩٧٨ ———————— سلسلة الكتب المترجمة
(٤٣)

رحلة المشرق

الى العراق وسوريا وفلسطين سنة ١٥٧٣م

للرحالة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف

ترجمة وتعليق

سليم طه التكريتي

عنوان الرحلة باللغة الاصلية وهي الهولندية

SEER AANMERKELYKE

R E Y S E N

NA EN DOOR

SYRIEN,T JOODSCHE LAND, ARABIEN,
MESOPOTAMIAEN, BABYLONIEN, ASSYRIEN,
ARMENIEN & C.
IN,T Jaar 1573
Leendert Rouwolf
Leyden 1581

عنـوان الرحلة بترجمتها الانكليزية

COLLECTION

OF CURIOUS TRAVELS & VOYAGES IN TWO TOMES

First By Dr. Leonhart Rauwolff

Translated By Nicholas Staphorst London 1693

Printed for S. Smith and B. Walford to the Royal Society

وعن هذه الترجمة الانكليزية تم النقـل الى العربيـة

كلمة المترجم

تعتبر رحلة الدكتور الهولندي ليونهارت راوولف ، التي نقدم الجزء الذي يخص العراق منها ، من اقدم الرحلات الاوربية الى الشرق ذلك لان هذه الرحلة وقعت في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي ، وقبل اربعة قرون كاملة من الآن على وجه التحديد . ومع ان الغاية التي استهدفها « راوولف » من رحلته هذه هي النباتات والاعشاب الطبية التي تنمو في بلدان الشرق ، الا ان ما شهده خلال هذه الرحلة ، وما سمعه ، قد اضفى عليها مسحة من المتعة وقدرا كبيرا من المعلومات التأريخية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية ، مما يؤلف جزءا لا يستهان به من تأريخ العراق وبعض البلدان العربية الاخرى في تلك الفترة المظلمة .

بدأ راوولف رحلته في اليوم الثامن عشر من ايار سنة ١٥٧٣ م من مدينة اوغسبرغ في هولندا متوجها الى مرسيليا في فرنسا التي وصلها في اليوم الاول من حزيران ثم غادرها على ظهر احدى السفن في اليوم الاول من ايلول قاصدا الشرق حيث رست به تلك السفينة في ميناء طرابلس بلبنان في آخر يوم من ايلول ذاته . وانتقل بعد ذلك الى دمشق وحلب ومن هناك توجه الى العراق بطريق نهر الفرات اذ استقل احد القوارب من قرية « بير » حتى الفلوجة ثم دخل بغداد وكان يعتزم ان يسافر منها الى البصرة فالخليج العربي ولكن رسالة وصلت اليه من حلب تنبؤه بضرورة العودة اليها فغادر بغداد الى سوريا بطريق كركوك ، الموصل ، نصيبين ومنها الى حلب وبعد ان طاف بسوريا ولبنان وفلسطين ، عاد الى طرابلس ، ومنها ابحر الى البندقية ، ومن هناك رجع

الى اهله في اوغسبرغ ذاتها التي وصلها في اليوم الثاني عشر من شباط سنة ١٥٧٦م وبذلك يكون قد أمضى زهاء ثلاث سنوات في رحلته تلك •

★ ★ ★

تقع رحلة راوولف في قسمين يتألف اولهما من تسعة فصول ، ويبدأ الفصل الاول منها بخروجه من اوغسبرغ متوجها نحو الشرق في حين يضم القسم الثاني ثلاثة وعشرين فصلا • ومع ان اهتمامنا كان منصبا على ما يخص العراق من الرحلة في الدرجة الاولى ، الا اننا وجدنا ان من المفيد كثيرا ان تترجم الفصول التي تضم مشاهدات الرحالة عن بلدان المشرق منذ ان هبط ميناء طرابلس قادما من اوربا ثم طوافه بسوريا والعراق ، وعودته الى سوريا ولبنان ففلسطين قبل رجوعه الى وطنه في اوربا ، وبذلك اصبح في مقدور القارىء ان يطلع على احوال هذه البلدان بالصفة التي رآها راوولف في ذلك العهد ، او التي تراءت له فيها في الواقع ، على الرغم مما ورد في ثنايا حديثه عنها من خرافات واساطير ، وانتقادات قاسية ، لم يكن لها من مبرر سوى جهله باحوال البلاد التي زارها ، وتعصبه لعقيدته الدينية ولقومه الاوربيين ليس الا ، مما نود ان لا يغفل عنه القارىء حين يستغرق في مطالعة هذه الرحلة الطريفة التي لها اهميتها التأريخية والعلمية معا على حد سواء •

وقد بقيت هذه الرحلة التي طبعت باللغة الهولندية الاصلية في « ليدن » سنة ١٥٨١م مجهولة لدى العالم الغربي الى ان اقدم « نيكولاس ستافورست Nicholas Staphorst » سنة ١٦٩٣م على ترجمتها الى اللغة الانكليزية حيث تولى كل من الناشرين س • سمث و ب • ولفورد S. Smith & B. Walford طبعها في تلك السنة لحساب الجمعية الملكية Royal Society وفي مطبعة روب • ساوثول Rob. Southwell •

وقد اضاف الناشرون الى رحلة راوولف تلك مجموعة اخرى من الرحلات الى اقطار المشرق وغيرها ، تتألف من رحلة المسيو بيلو Belon الى جزيرة كريت واسطنبول ومصر ، ورحلة السر جورج ويلر Sir George Wheeler الى اليونان وآسيا الصغرى ، ورحلة توماس سمث Thomas Smith الى اسطنبول وبورسة وغيرها ، ورحلة جون غريفز John Greaves الى اسطنبول ورودس ومصر ، ورحلة الاب فانسلب F. Vansleb الى مصر ، ورحلة الدكتور هنتنغدن Dr. Huntingdon الى مصر ومكة والمدينة ، ورحلة السر هنري مدلتون Sir Henry Middlton ورفاقه الى اليمن ، وكذلك رحلة الملاحين بايتون Payton وهاين Heyne في بعض انحاء من اليمن ومصر والحبشة ، ورحلة ميشيل الطرابلسي Michael of Tripoly الى الحبشة باعتباره سفيرا لبريطانيا لدى امبراطور الحبشة ، ورحلة كل من الآباء الفاريز Alvarez ولوبو Lobo وتلز Tellez وغيرهم الى الحبشة وكانوا قد قدموا اليها من البرتغال ، وغيرهم .

وقد صدرت الترجمة الانكليزية بقسميها في مجلد واحد تحت عنوان « مجموعة من الاسفار والرحلات العجيبة » . كذلك عهد الناشرون الى المستر جون راي John Ray عضو الجمعية الملكية في لندن بمهمة وضع ثلاثة ملاحق باسماء الاشجار والنباتات التي جمعها راوولف وغيره من بلدان الشرق والتي اثبتناها مع ما يقابلها من اسمائها العربية في نهاية هذا الكتاب .

ثمة ملاحظة اود ان يدركها القارىء هي انني أنا الذي وضع كل الشروح والتعليقات التي وردت في هوامش صفحات هذه الرحلة ، وان

المترجم الذي نقلها الى اللغة الانكليزية قد وضع بعض الشروح القليلة جدا وقد ترجمت انا تلك الشروح بنصها ايضا .

وكل ما اتمناه هو ان يجد القارىء الى جانب المتعة والطرافة ـ عند مطالعته هذه الرحلة ـ ما يستفيد منه بالنسبة الى تأريخ العراق وسوريا ولبنان وفلسطين في تلك الفترة من الزمن والله اساله العون .

بغداد ١٩٧٧/٢/١

سليم طه التكريتي

من الناشرين الى القارىء

يضم هذان الجزءان من الاسفار والرحلات نوعية عظيمة بالنسبة الى عدة اقطار ، والى مشاهدات الكتاب عنها ، الامر الذي جعلنا نرى ان من الصواب ان نقدم الى العالم موجزا عنها •

واول هؤلاء الكتاب هو « راوولف » الشخص الذي اشتهر بحذقه في المركبات الطبيعية ، وفي ممارسة الطب ، والذي كتبت رحلته في البلاد الشرقية بلغة هولندية رفيعة ، فاصبحت نادرة ، وغدت مخطوطة قيمة يتطلع اليها بعض السادة المثقفين كثيرا ، الذين اشتهروا حقا بحسن الذوق ودقة الحكم في اختيار الكتب والموضوعات •

وما ان علمنا بان النسخة الهولندية الوحيدة ، موجودة في مكتبة « آروندليان » بكلية « غريشام » حتى بادرنا بترجمتها وطبعها بلغتنا ، فانجزنا ذلك بعناية واجتهاد •

اما النباتات التي جمعها المؤلف الفاضل الدكتور ليونهارت راوولف خلال رحلته ، فقد حفظت بشكل عجيب من قبل المرحوم « اسحق فوسيوس Isaac Vossius » في اربعة مجلدات كبار ، وقد اعتبرها ذلك الرجل العظيم من اعظم الاشياء النادرة الغالية ، وحلى بها « معجم المطبوعات » الذي وضعه ، حتى اذا ما تم بيعها الى جامعة « ليدن » قدر الرجل العظيم « هيرفان بفرننغ » Heer van Beverning قيمة خاصة لهذه المجلدات من النباتات الجافة التي جمعها مؤلفنا اثناء رحلته في الاقطار الشرقية •

وقد يولي بعض الاشخاص المؤلف شهرة بسيطة بسبب غلطة او غلطتين تخصان « ملك الحبشة » و « وحيد القرن »[1] . ومع ذلك فاذا ما اخذنا هاتين النقطتين بنظر الاعتبار نرى انه لم يفعل اكثر من ان روى ما سمعه عنهما مصادفة من الآخرين ، وان يعتبر ذلك الجزء بمثابة حكاية رويت له اثناء الطريق ليس الا ،وبالصفة التي رواها فعلا .

على ان الشيء الذي يجب ان يقال بحق عن راوولف هو ان كل ما كتبه استنادا الى مشاهدته الخاصة ومعرفته ، كان ينطوي على الصدق والاخلاص ، ولذلك كان « كارلوس كلوفيوس » و « الاخوان باوهاينز » (وكلهم من الخبراء الطيبين جدا) مصيبين في الاعتماد عليه ، وفي الاشارة الى رحلته بمثل هذه الصراحة والتقدير .

ولما كان البعض يرى ان رحلة الدكتور ليونهارت راوولف التي سبقت الاشارة اليها كانت محدودة في نطاق ضيق جدا من العالم ، وببلدان ليست شاسعة من امثال ارمنيا ، وبلاد الرافدين[2] ، وآشور ، وبابل ، وفلسطين وغيرها ، فقد استشرنا احد الاصدقاء في الكيفية التي نجعل بها هذه الرقعة نافعة للجمهور ، ولذلك نصحنا هذا الصديق بان نوسعها بحيث تشمل اماكن اخرى كثيرة من بلدان المشرق لم يطرقها راوولف ، من امثال اليونان

---

(١) تحدث راوولف في رحلته عن شخصية حاكمة في الشرق تدعى « جون برستر John Prester »وهذا الاسم يقصد به ملك الحبشة عادة . وكان يعتبر في وقت من الاوقات من القسس في نظر الاوربيين . اما « وحيد القرن Unicorn » فهو حيوان خرافي يكون على شكل حصان في جبهته قرن واحد وما يزال يستعمل بمثابة رمز في كثير من المتاحف وحتى اوراق المراهنات والجوائز

(٢) اعتبر المؤلف والناشرون معه بلاد الرافدين Mesopotaemia جزءا منفصلا عن اشور وبابل وهذا خطأ لان بلاد الرافدين تعني العراق باكمله

ومصر ، وغيرهما من البلدان المجاورة لهما ، ومتاخمة للنطاق الذي وقعت فيه رحلة راوولف • وحين وجدنا ان مثل هذا الامر سيكون اكثر نفعا لجمهور المتعلمين ، قررنا حالا ان نوسع رحلة راوولف باضافة جزء ثان اليها ، يضم رحلات بعض مشاهير الرحالين في هذه الاصقاع من العالم ، من امثال « بيلونيوس » « والبينوس » و « فستنغيوس » والمستر « غريفز » والمستر « غريفز » والمستر « فرنون » وكثير آخرين ممن نبه ذكرهم ، وذاع صيتهم بسبب مشاهداتهم الفاخرة في الشرق من امثال الدكتور « سمث » والدكتور «هنتنغدن » والدكتور « سبون » والسر « جي • ويلد » وغيرهم •

والى هذا اضفنا قسما من بلاد اليمن والحبشة مما يود قلة من الاشخاص ان يقرأوه لانه مقتبس من الرحلات الاصلية الموثوق بها •

واخيرا اتفقنا مع المستر « راي » لان يضع لنا ثلاثة ملاحق في نهاية الكتاب ، تضم اسماء الاشجار والنباتات والاعشاب التي تنمو في بلاد المشرق من العالم ، سوية مع مرادفات اسمائها المختلفة التي اضفت على المجموع صورة زاهية وجمالا كثيرا •

على اننا قبل ان نترك القارىء نود ان نشير الى نقطة شريفة ، صادقة ومبدعة ينبغي لنا ان لا ننساها ، هي الالمام اللائق بالكتابات التي استخلصت منها عدة اقسام من الجزء الثاني لفائدة القارىء ، ومن هذه الكتابات رحلة المسيو « بيلو » التي اخرجها « كلوفيوس » وطبعها « بلانتين » في « انتورب » ، ومشاهدات « البنيوس » عن مصر التي طبعت في كل من «بادوا» و « البندقية » ، ورحلة الاهرام للمستر « غريفز » ، ومجموعات من الرحلات والاسفار لكل من « راموسيو » و « هاكلوت » و « برخاس » و « تينو » •

وكذلك « الترجمات الفلسفية » التي نشرها « اولدنبرغ » في لندن والتي نشرت فيما بعد على يد الدكتور « بلوت » في اكسفورد .

والى هذا نستطيع ان نضيف اشهر المبشرين من اتباع كنيسة « روما » في الاقطار الاجنبية ونعنى بذلك ما جربه هؤلاء بانفسهم من مشاهدات طبوغرافية وفلسفية من امثال الاب « الفاريز » والاب « لوبو » والاب « تلتس » والاب « فانسلب » والذين اذا ما تركنا جهودهم في سبيل الدعوة والتبشير جانبا ، فانهم لا يستحقون ان يدخلوا قائمة كبار الرحالين حسب ، بل والشهرة في مملكة البروتستانت ايضا .

لقد اخترنا من كل هؤلاء المادة التي احتواها الجزء الثاني من كتابنا هذا ، والذي نأمل ان يبرهن على فائدته وفضله للجمهور ، وان يرى القارىء باننا لم نقصد اي غرض منه سوى كل ما هو مبهج وموجه ، مما يؤدي الى توسيع نطاق مملكة المعرفة بوجه خاص .

من ليونهارت راوولف
الى ابناء عمه واصدقائه المبجلين هانز ودتولتس ، وكرستوف كرستل ، ونيكولاس بايمر

ابناء عمي المبجلين الاعزاء

اعتاد الفلاسفة ان لا يقارنوا ، دون ملاءمة ، بين دراسة الفنون والعلوم المبدعة وتلقفها وبين ممارسة التجارة • ذلك لان التجار لا يهابون المخاطر ، ولا يدخرون وسعا في تحمل آلام او نفقات السفر الى البلدان الاجنبية بطريق البحر او البر ، ذلك لانهم قد يصيبون ويجلبون من هناك ما يزودون به مخازنهم من سلع وبضائع ، اذ ان هذه هي الاشياء التي يتعاملون بها في الدرجة الاولى • ومثل هذا يفعل اولئك الذين يجعلون بلوغ المهارة في الفنون الحرة التي اشرت اليها غايتهم الرئيسة ، ويجدون في دراستها مسرتهم ، لا يردهم عن هذا الهدف لا الاماكن النائية ولا الشتاء او الصيف ، ولا يخشون الامطار ولا الثلوج ، ولا قطع الصحارى المخيفة او البحار المرعبة المزمجرة ولا يفقدون او تضعف طاقاتهم ان لم يستطيعوا في النهاية الوصول الى مثل هذه الاماكن التي قد يظفرون فيها بالاطلاع وبالالفة التي يتحلى بها الاساتذة البارزون القادرون على تلقيهم تلك الفنون والعلوم ، والمعرفة والادراك اللذين يطمحون اليهما او التزود باحوال الامم وعوائدها وغيرها من الامور الاخرى التي تساعدهم على تحقيق نواياهم •

ومن الامثلة على ذلك الفيلسوف الحكيم والمشرع الشهير « صولون »[٣]

(٣) صولون Solon حكيم يوناني ومشرع شهير اصله من مدينة اثينا وهو اول من سن القوانين في اثينا وكان يعتبر واحدا من الحكماء السبعة المشهورين في اليونان .

الذي جاب [كما لا حظ ذلك « بلوتارك »[٤] وهو يصف حياته] كثيرا من الاقطار الاجنبية ليلم بالاطلاع على شكل الحكم فيها وانظمتها وقوانينها ودساتيرها ، كيما يعد نفسه ويساعدها على تحقيق هدفه في وضع قوانين لبلاده .

كذلك قرأنا في كتاب (ديوجنيس الاب)[٥] ان « افلاطون » قد رحل الى « ميغارا »[٦] ليزور « اقليدس »[٧] والى « كرين »[٨] ليقابل «تيودورس ماثتكوس »[٩] والى ايطاليا ليرى الفلاسفة الفيثاغوريين[١٠] ؛ كما انه

---

(٤) بلوتارك Plutarch مؤرخ روماني ولد في مدينة شيرونيا سنة ٥٠ بعد الميلاد ودرس في اثينا وزار مصر ثم رحل الى روما لالقاء محاضرات فيها ثم عاد الى اليونان وعين كاهنا لمعبد ابولو . اشتهر بكتابه عن نبلاء روما واباطرتها كما وضع كتابا عن حياة الاسكندر الكبير .

(٥) Diogenes Laertius يقصد به ديوجينس الفيلسوف اليوناني الشهير

(٦) ميغارا Megara اشهر مدينة في صقلية وفيها ولد الفيلسوف الرياضي اقليدس ونشأت فيها مدرسة فلسفية عرفت بالمدرسة الميغارية

(٧) اقليدس Euclid ولد سنة ٤٤٠ ق.م ودرس الفلسفة على برمنيدس الايلائي ثم ذهب خفية الى اثينا ليدرس على سقراط وبعد وفاة سقراط سنة ٣٩٩ ق.م عاد اقليدس مع بعض التلاميذ الى ميغارا وانشأ فيها مدرسته

(٨) كيرين Cyrene او قورين مستعمرة يونانية في شمال افريقيا تقع آثارها في بلدة شحات بولاية « برقة » في ليبيا قامت فيها مدرسة فلسفية يونانية عرفت باسم المدرسة القورينائية .

(٩) تيودورس ماثمتكوس Theodorus Mathmaticus او الرياضي من مشاهير فلاسفة اليونان القدامى كان يقيم في مدينة (كيرين) او (قورنيا) وقد درس عليه افلاطون

(١٠) هم اتباع فيثاغورس Pythagore الفيلسوف اليوناني الذي ولد في جزيرة ساموس في الجيل السادس قبل المسيح ورحل الى مصر وفنيقية وبابل ثم عاد الى اليونان وهاجر هربا من الظلم الى ايطاليا فنشر مبادئه فيها .

سافر الى مصر ليتحدث الى الرهبان والحكماء هناك ، والذين كانت اصواتهم تدوي عاليا في العالم ، وليتزود منهم بعلومهم واسرارهم • وفضلا عن ذلك فقد اعتزم القيام برحلة في آسيا دون ان تعيقه عن ذلك الحرب التي ثارت هناك حديثا •

وبذات الطريقة كتب « جالينوس » عن نفسه فيما بعد فذكر انه ابحر الى « لمنوس »[١١] وقبرص ، وفلسطين من سوريا ليطلع على النباتات الغريبة وعلى الخامات والمعادن النادرة •

وليس يسوءني ان أروي المشاق والاخطار التي عاناها اولئك الذين كتبوا عن النباتات الغريبة خلال رحلاتهم في البلدان الاجنبية لو لم اكن اخشى ان يمتد مثل هذا الموجز الى مدى بعيد وممل ، ولذلك سوف احذفه وأمس بايجاز ما يهمني وما يتعلق برغبتي في السفر والاجراءات المتعلقة به •

ومع انني لا اجرأ على ان اقارن نفسي باولئك الاشخاص الشهيرين المنقطعي النظير الذين اشرت اليهم الان ،ولا اتباهى باي فهم او تجربة او معرفة سامية (ما دمت اعرف نفسي جيدا) ، لكنني اعترافا بالحقيقة اجد نفسي مضطرا الى القول بانه كانت لدي منذ طفولتي رغبة ملحة في السفر الى البلدان الاجنبية ، والاتصال بالمثقفين والشهيرين الذين استطيع ان اصيب منهم ما اوسع به نطاق معرفتي •

ولما كنت ذا ميل شديد الى دراسة الطب بالنسبة الى بقية الحرف الاخرى ، وقد وجدت ان ذلك يتطلب الاسناد من علوم اخرى كثيرة وعظيمة ، ولا سيما الحذق في علم النبات ، فقد استطعت بعد جدل عنيف مع ابوي واقاربي ، ان اهجر الجامعات الالمانية وان اسافر على نفقتهم الى فرنسا وايطاليا حيث تزدهر هناك معرفة الطب وتطبيقه ، بصفة رئيسة ، وحيث تنمو بعض النباتات المفيدة

---

(١١) لامنوس Lamnos آسيا الصغرى

كثيرا للطب بشكل طبيعي هناك ، مما استطيع ان ازود نفسي بـه ، وان الـم بالاطلاع عليها واتحمل في سبيلها المزيد من الآلام ولاسيما في « مونبلييه »[١٢] ذلك لانني استطعت ان اجوب ، بصحبة العالم الفاضل «جرمياس مارنيوس » عددا من الجبال والوديان في انحاء عديدة ، وبصفة خاصة جبل « ستي » المرتفع الذي يقع بالقرب من [فرونتنان] عند شاطىء البحر . اذ جمعت عدة مئات من النماذج احتفظت بها بمثابة كنز من الكنوز لكنني حين بدأت استشير الكتاب الذين كانوا يهتمون بهذه النباتات ، وجدت عددا كبيرا من نباتات اخرى لا تقل استعمالا وفائدة في الطب قيل عنها انها تنمو في اليونان وسوريا والجزيرة العربية ، الامر الذي سررت به كثيرا وبصفة رئيسة حين علمت ان هذه الاماكن النافعة في الاقطار الشرقية التي مر وصفها والتي ورد ذكرها لدى جملة من المؤلفين وفي الكتاب المقدس في الدرجة الاولى ، ومن ثم استبدت بى رغبة ملحة في البحث عن تلك النباتات التي تنمو بصفة طبيعية دائمة في مواطنها المحلية ومشاهدتها ، كما اثرت على نفسي ان اطلع علـى حياة سكان تلك الاقطار واحاديثهم وعاداتهم وطرائقهم ودياناتهم •

ومع انني لم انفذ هدفي هـذا بصفة مباشرة ، واذا تأخر ذلك لعدة سنوات ، فأنني في الوقت ذاته عملت كل ما يخدم وطني ولذلك اهتبلت اول فرصة سنحت لاكمال ذلك ، فحين رغب الي صهري المرحوم « ميشيو رمانليش » ان اقوم برحلة في الاقطار الشرقية للبحث عن الادوية والنماذج فيها وغيرها من الاشياء الملائمة والمربحة لتجارته ، ووعدني بان يوفر لي النفقات ويخصص لي مرتبا كبيرا ، قبلت عرضه المناسب في الحال ، واغتنمت هذه الفرصة التي طالما كنت اتطلع اليها ، ووجهت بنفسي

---

(١٢) مونبلييه Montpellier من المدن الفرنسية الشهيرة وقد انشئت فيها اول كلية للطب شارك في انشائها وتنظيم امورها والتدريس فيها ثلاثة من اشهر الاطباء العرب الذين جيء بهم من الاندلس وفي مونبلييه تقوم الان احدى الجامعات الفرنسية القديمة

خطابا الى قضاة هذه المدينة (لانني كنت آنذاك في الخدمة) اطلب فيها الاذن بالسفر ، وما ان حصلت عليه حتى بدأت رحلتي ببلاد المشرق •

اما ما شاهدته وسمعته وتعلمته وجربته خلال ثلاث سنوات (اذ ان هذه الرحلة قد استغرقت مني مثل هذا الوقت الواسع) ، لم تخل من اخطار ومتاعب كبيرة ، فقد دونته بشكل منتظم حسب وقوعه يوما بيوم ، في دفتر يوميات ليبقى ذكرى لحياتي •

لكنني بعد ان عدت الى الوطن ثانيـة ، رغـب اليّ عـدد من السـادة والاصدقاء كانوا يلحون علي باستمرار ، ان اقدم رحلتي هذه اليهم لنشرها • واخيرا وبعد رفض متواصل لم استطع ان اقاوم التماساتهم ، فنزلـت عنـد رغبتهم لنشر الرحلة مطبوعة واذ ذاك اخذت أعيد النظر في رحلتي ثانية ، وفي الحوادث الغريبة التي شاهدتها والتي سجلتها يومياتي الخاصة التي قسمتها الى ثلاثة اقسام طبقا لتجوالي في عدة اقطار ، والالتزام بطبعها لكي استطيع ان اقدم نسخا منها الى اصدقائي •

لم تكن الفخفخة هي التي حملتني على النشر ، انما الفائدة والمسرة اللتان قد يوفرهما النشر للقارىء ، ذلك لان اولئك الذين لم تتهيأ لهم الفرصـة لزيارة البلدان الاجنبية ، قد يجدونها امام اعينهم على شكل خارطة للتأمـل فيها ، بينما يتشوق الاخرون كثيرا للاطلاع على هذه الاشياء وان تحملهـم قراءتها على السفر بانفسهم الى هذه الاصقاع التي كتبت عنها كيما يشاهدوا بتعمق ودقة ما اوجزت الحديث عنه •

اما ان اعترض معترض وقال بانه كان عليّ ان اوفر هذا الجهد والنصب ، وان انفقهما في اغراض افضل ،ذلك لان احوال العالم واوضاعه وموقعه وطرائقه الراهنة قد تم كشفها ووصفها وصفا تاما من لدن الآخرين ، وان من العسير العثور على زاوية منه غير مكتشفة ، فلمثل هذا اقول ان ما دونه الآخرون لم

اسجله في هذا الكتاب وان ما فيه هو الشيء الذي شاهدته وجربته ولاحظته وصنعته بنفسي ليس الا .

واذا ما درس شخص ما كل هذه الاشياء في كتب طبعت من قبل ، وانه لا يجد في كتابي هذا شيئا جديدا بالنسبة اليه ، فانني اعترف بان عملي هذا لن يكون ذا فائدة لمثل هذا الشخص ، لكنه يستطيع مع ذلك عن طريق التجربة اليومية ، ان يلاحظ كيف تعمل الحروب والامراض الوافدة والاضطرابات الاخرى وغيرها من الحوادث ، على تبديل الممالك والمدن والقصبات تبديلا كبيرا الى درجة ان ما كان يعتبر فخما وجميلا قبلا ، قد تحول الآن الى انقاض ورماد ، وان ما كان يعتبر قفرا مهملا ، قد يصبح الآن مثمرا وفخما .

ولا بد لمثل هذا الشخص ان يعترف بانه حتى في عصرنا هذا ، تبقى هناك اشياء كثيرة في حاجة الى البحث عنها وكشفها ، مما لم يستطع الآخرون قبلا رؤيته او معالجته او نشره . وطبقا لذلك يقول الحكيم « صولون » الذي سبقت الاشارة اليه انه « كلما امتد به العمر ازداد ادراكه لكثير من الاشياء » . وقد اعتاد « جوليان »[١٣] ، مشرع القانون ، ان يقول انه « وان سارت به قدماه الى القبر فسيظل يتطلع الى العلم » .

فاذا كان مؤلفي هذا لم يفد او يرض الكهنة ، او المشرعين ، او الاطباء (وهو الغرض الذي لم اكن اقصده) فانني اتمنى ان يكون ، بطريقة او اخرى ، نافعا ومسرا لهم ولغيرهم ، وكذلك لاولئك الذين سيقرأون في رحلتي هذه كيف غدت مدينة القدس المجيدة القوية مخربة الآن ، وتحولت الى كومة من

---

(١٣) جوليان Julian من اباطرة الرومان الشهيرين تولى العرش سنة ٣٦١م وقام باصلاحات واسعة في الامبراطورية الرومانية وكان من المتأثرين بالفلسفة ووضع تشريعا مهما لروما وكان يجمع بين القضاء وقيادة الجيش وادارة شؤون الامبراطورية وقد توفي جوليان متأثرا بجرح اصيب به في العراق في حربه مع الفرس .

الانقاض ، وكيف ان مدينة بابل ، وغيرها من المواقع الشهيرة ، قد دمرت وغدت قفراء بذات الطريقة ، وكيف ان ارض فلسطين قد تحولت هي الاخرى الى ارض جرداء ، وعندئذ سوف يتذكر القارىء ان غضب الله نار مدمرة وان الله لم يستثني اليهود من غضبه ذاك بل وخرب تلك الارض التي كانت مشرقة في وقت من الاوقات تفيض باللبن والعسل ، والتي تقترف ذاتها اي ذنب ومع ذلك فقد احالها الى قفار بسبب خطايا سكانها (الزبور ٣٠٢١٠٧) واحال المدينة المقدسة الى قفر ووحشة ، ولا بد ان يكون وضعها الراهن دافعا فعالا يحرك المسيحيين الى تقويم تصرفاتهم وحياتهم ، لانه اذا كان مثل هذا قد وقع لشجرة يانعة ، اي اليهود الذين يزعمون انهم شعب الله المختار ، فما الذي سيقع لشجرة يابسة اذا ما اضطرم غضب الله عليها !

وفضلا عن ذلك فان القارىء اذا ما الم - عن طريق هذا الكتاب - بعادات شعوب الشرق ، وشرائعهم وانظمتهم ، وبالوسائل والحيل التي يلجأون اليها ايام السلم والحرب ، فانه سيعرف كيف يستطيع ان يدبر اموره بوسيلة افضل بالنسبة لكل حالات السفر الضرورية ومعاملاته مع تلك الشعوب .

واكثر من ذلك فان هذا الكتاب يعلم القارىء كيف يتصرف خلال عبوديته (اذا ما وقعت له) تجاه سيده ، دون ان يؤذي روحه او ضميره ، وان يستعيد حريته ثانية بالوسائل الملائمة لذلك(١٤) .

قد ترون هنا كيف ان طوائف كثيرة من الاديان موجودة في تلك البلدان ، وان فيها قدرا كبيرا من الناس الصالحين حسني التصرف الذين

---

(١٤) يكشف الرحالة راوولف في هذه الفقرات عن اهداف الحركة التبشيرية التي اخذت الكنائس المسيحية ترعاها وتتولاها منذ ذلك الوقت ، وعلى الاخص بعد فشل الحروب الصليبية ، في الاقطار الاسلامية وغيرها ، حيث كانت حركة التبشير من الممهدات الاساسية لتغلغل النفوذ الامبريالي في اقطار اسيا وافريقيا وبقية القارات الاخرى

لم يتعدوا كثيرا عن معرفة الله معرفة حقيقية ، وكذلك اتمنى ان لا يكون كتابي هذا غير مقبول جدا من لدن الصيادلة والاطباء ، وان يكون قد ضم الكثير من اوصاف الاعشاب النافعة التي كنت اود راغبا ان اضيف اليها قصاصاتها لكنني اجبرت على التخلي عنها في الوقت الحاضر لاسباب عدة لا حاجة الى ذكرها الآن هنا ، على انني اتمنى ان تضاف فيما بعد حين يحين الوقت والفرصة المناسبة •

كذلك ستجدون هنا جملة من الحكايات الغريبة جديرة بالقراءة ، ربما هيأت الفرصة لاهتمامات ارفع واسمى من ذلك ، وعلى هذا فكلي امل ان لا تذهب سدى تلك الآلام التي تحملتها والمهارة التي ابديتها •

والآن اعود اليكم ايها السادة وابناء العم المبجلون فاقول : ان الكتاب القدامى والمحدثون اعتادوا دوما ان يهدوا كتبهم الى شخص او آخر • ووفقا لهذه العادة الحسنة وجدت ان من المناسب ان اهدي رحلتي هذه اليكم ليس بسبب القربى التي تربطني بكم ، ولا نتيجة عصبية الدم حسب ، وانما لاظهر تقديري واعلن عن شكري للمزيد من الرعاية وحسن الالتفات والخدمات الودية التي اداها لي المستر ليونهارت كرستل ، عمي العزيز صاحب الذكرى الطيبة (والذي ينبغي لكما يا « نيكولاس بايسر » ويا « كريستوف كرستل » ان تتعقبا خطواته لانكما الوارثان الوحيدان لافضاله واملاكه) حين كان على قيد الحياة ، والتي ما زلت اتلقاها منكم يا اقاربي الثلاثة المبجلين في الوقت الحاضر ، وعلى هذا اتمنى ان تتقبلوا هديتي هذه باهتمام ومعرفة مثل عمكم •

خادمكم الحقير جدا

ليونهارت راوولف(١٥)

(١٥) ذكر راوولف في النص الهولندي من اهدائه هذا انه انتهى من اعداد رحلته في اواخر ايلول سنة ١٥٨١م وهي السنة التي طبعت فيها الرحلة بالهولندية لاول مرة .

الفصل الاول[1]

مدينة طرابلس الشهيرة . ضواحيها الخصبة . عظم التجارة فيها . فخامة الحمامات والابنية المهمة الاخرى التي تشاهد هناك . طريقة الاهلين في صنع الصمغ والشنان ، والصابون وغيره[2]

شاهدنا على شاطىء البحر ، قبل ان نهبط طرابلس ، خمس قلاع اشبه بالابراج الشامخة تبلغ المسافة بين الواحدة والاخرى مدى اطلاقة بندقية حيث يوجد بعض الجنود الانكشاريين في حامية هناك لمراقبة السفن في الميناء (وكانت محاطة بالصخور الى حد ما) وكذلك لغرض حماية دائرة الكمرك وجملة من المخازن (حيث يسكن رؤية كل انواع السلع التي يؤتى بها من معظم انحاء العالم) من اية محاولة او هجوم معاد . على انه ما ان غربت الشمس وبدأ الظلام يرخي سدوله حتى بذلنا كل ما استطعنا بذله للاسراع في الوصول الى المدينة التي كانت تبعد عنا مسيرة ساعة واحدة ، وقد صحبنا بعض الجنود

---

(١) يتضمن الفصل الاول من الرحلة وصفا لخروج راوولف من هولندا ووصوله الى طرابلس حيث غادر هو وصديقه « فردريك رنتزن » مدينة اوغسبرغ في اليوم الثامن عشر من ايار سنة ١٥٧٣م فاجتازوا هولندا الى فرنسا وبلغا مدينة مارسيليا في اليوم الخامس من حزيران ثم ابحرا منها في اليوم الثاني من ايلول وقد وصلت السفينة جزيرة قبرص في الخامس والعشرين من ذلك الشهر ثم اقلعت منها لتصل الى ميناء طرابلس في الثلاثين من ايلول ذاته . ونظرا لعدم اهمية هذا الفصل فقد احجمنا عن نشره واكتفينا بهذه الاشارة الموجزة اليه .

(٢) سبقت الاشارة الى ان راوولف كان يركز اهتمامه في الدرجة الاولى على اسماء النباتات في اي مكان يصل اليه ، ويحتفظ بنماذج منها معه ولذلك فهو يسهب كثيرا في الحديث عن هذه النباتات وعما ورد لها من ذكر في كتب بعض العلماء التي اطلع عليها قبل رحلته الى بلاد المشرق .

الاتراك المسلحين بنبابيت قوية حسنة الصنع قيل لي عنها انها تستعمل بصفة عامة لمطاردة الذئاب التي يسمونها « بنات آوى » حيث يوجد عدد كبير منها في هذه البلدان وتستخدم لتعقب الفرائس ومطاردتها والبحث عنها ليلا .

وفي الوقت الذي كنا نتحدث فيه عن هذه الحيوانات اقترب عدد منها قريبا منا لكنها ماأن رأتنا حتى استدارت وولت هاربة ،وحين بلغنا بوابة المدينة وجدناها مغلقة واذ ذاك استدعي احد اصدقائنا ، وكان ينتظر قدومنا للترحيب بنا ، بعض الفرنسيين الذين كانوا ينزلون في نزل يسمونه « فندقا »[٣] بلغتهم ، وهو يقع على مقربة من بوابة المدينة ويمتد الى سورها تماما ، وطلبت الى واحد منهم بان ينهض باعباء الذهاب الى آمر المدينة[٤] ويسأله ان يسمح بفتح البوابة ويدعنا ندخل منها ، وذاك امر كان هؤلاء الفرنسيين جد راغبين في حدوثه . على انه في الوقت الذي كنا واقفين فيه امام البوابة ، اسرع شخص آخر معاد لصديقنا ذاك فحرض بعض الاتراك والعرب بالاطباق علينا ، وهذا ما كانوا يرغبون فيه ، وعندئذ اقبل هؤلاء علينا مسرعين من بوابة اخرى قريبة من السور ليست مغلقة فهاجمونا وانهالوا علينا ضربا ثم امسكوا بنا ، ولاسيما بصديقنا الطيب الذي فعلوا كل ذلك بسببه ، كما وجه آخرون منهم بنادقهم نحونا الى درجة خيل لنا فيها انهم سيقطعوننا اربا .

وفي الوقت الذي كان يجري فيه كل هذا ، فتحت البوابة واقبل علينا بعض الفرنسيين ومعهم قنصلهم نفسه لمساعدتنا ، فتحدثوا الى اولئك الرجال ، وحثوهم بلطف على اطلاق سراحنا ، وان تودع القضية الى الآمر والقاضي

---

(٣) كتب الرحالة كلمة فندق بلفظها العربي وبالحروف الافرنجية Fondique والمقصود بكلمة (بلغتهم) ، هو لغة اهل الشام وليس لغة الفرنسيين كما قد يتوهم القارىء ذلك .

(٤) آمر المدينة يقصد به الحاكم العسكري فيها وقد ذكره المؤلف باسم « سنجق » اي حامل رتبة لواء في الجيش

للبت فيها ، وهذا ما وافقوا عليه في النهاية • وهكذا قدمنا بعد ذلك الاستقبال المعادي ، الى فندق الفرنسيين فبتنا الليلة فيه • لقد كان موقف القنصل عظيما في هذه الحادثة • ذلك لانه اعتبر مثل هذه الاجراءات مسيئة جدا الى ابناء قومه ، ولهذا تقدم بشكاوى واجرى تحريات كثيرة الى ان عثر في الاخير على الشخص الذي سبب تلك الحادثة •

مضينا صباح اليوم التالي الى منزل اصدقائنا للمكوث فيه فترة من الزمن معهم • وفي ذات الوقت بدأنا نتجول في المدينة ـ ونحن نرتدي نفس ملابسنا الاوربية ـ لمشاهدة ما فيها وهذه المدينة تقع في سوريا المسماة « فينيقيا » التي تمتد اراضيها الى شاطىء البحر بما في ذلك بيروت ، وصيداء وصور ، وعكا حتى جبل الكرمل •

ومدينة طرابلس واسعة نوعا ما ، غاصة بالناس ، وذات ثراء حسن وذلك بسبب وجود كميات كبيرة من السلع التي تجلب اليها كل يوم بطريق البر والبحر • كما ان المدينة تقع في ارض منبسطة تجاور احد سفوح جبال لبنان ، يتصل بها سهل واسع يمتد الى شاطىء البحر ، حيث تستطيع ان تشاهد مزارع الكروم الوفيرة والبساتين الجميلة التي تحاط من كل اطرافها تقريبا بسياج، وهي تتألف في الدرجة الاولى من اشجار الرمان والبرتقال والليمون والتفاح وغيرها ، كما توجد بعض اشجار النخيل وتكون هذه واطئة وهي تنمو وتتكاثر بنفسها وحين دخلنا هذه البساتين وجدنا فيها كل انواع الاشجار ومختلف الازهار ، فضلا عن اشجار الزيتون واللوز والجوز وما شاكلها •

اما عند شاطىء البحر وعلى مقربة من مدينة طرابلس القديمة (التي دمرتها الزلازل مع مدن انطاكية وغيرها سنة ١١٨٣م ، ولم تبق منها سوى آثار قليلة) فلا يوجد شيء سوى ينابيع تسقي البساتين ، وذلك ما كان بعض التجار في المدينة يتذكرونه • غير ان هذه البساتين قد طغت عليها مياه البحر فاتلفتها وغطتها بالرمال فلا ترى الآن في مواضعها سوى اراض رملية اشبه

بالصحارى العربية • ومع ذلك فاهل طرابلس لا يحتاجون الى المياه بسبب وجود عدد من الانهار التي تنحدر مياهها من الجبال ، وتجرى بعض هذه الانهار عبر المدينة بينما تروى الاخرى الحقول والبساتين ، وعلى هذا فاهل طرابلس ليسوا في حاجة الى الماء سواء لاستعماله في منازلهم او لارواء بساتينهم وحدائقهم •

اما المدينة الجديدة فهي غير محصنة تحصينا قويا ذلك لان الاسوار التي تحيط بها ضعيفة ، وان في مستطاع اي امرىء ان يدخل المدينة ويخرج منها ، اثناء الليل ، من اماكن عديدة • على انه توجد داخل المدينة قلعة تقبع على مرتفع قريب من الساحل وتقيم فيها حامية قليلة من الجند الانكشاريين • ويعيش اهل المدينة في منازل واطئة واهنة البناء ذات سطوح منبسطة على غرار ما هو شائع منها في الشرق ، ذلك لان القوم هناك يجعلون سطوح منازلهم مستوية بحيث تستطيع ان تمشى فوقها على امتداد المنزل كله ، كما يستطيع اصحاب المنازل المجاورة ان يسيروا على سطوح منازلهم لزيارة جيرانهم فضلا عن انهم ينامون فوق هذه السطوح ايام الصيف احيانا • وعلى هذا فان من المصيب حقا ، ما قرأناه في انجيل مرقس (الفصل الثاني) وانجيل لوقا (الفصل الخامس) عن الرجال الاربعة الذين حملوا الرجل الاعمه الى المسيح، فلما لم يستطيعوا الوصول اليه ، بسبب شدة الزحام ، نقلوه من فوق سطوح المنازل ، ثم انزلوه الى ارضية الغرفة التي كان فيها السيد المسيح •

وليست لهذه المنازل ابواب او مداخل كبيرة من الشارع مثلما هو عليه الامر في بلادنا الاوربية (عدا منازل قلة من التجار) ذلك لانهم لا يستعملون عربات الركوب او الاثقال ، وانما يقتصر كل بيت على باب صغيرة واطئة لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثة اقدام احيانا • وعلى هذا فليس في مستطاعك ان تدخل مثل هذه البيوت دون ان تحنى رأسك • وفي كثير من البيوت الواسعة تكون هذه المداخل مظلمة الى درجة يخيل فيها للمرء انه داخل الى كهف او زنزانة •

ولكن حين تمشي في هذا المدخل الى البيت تجد فيه باحات واسعة يغتسل فيها اهل البيت ، كما تجد صالات كبيرة مبلطة بالاضافة الى السلالم التي ترتفع بمقدار درجتين او ثلاث ، وهي مبلطة تبليطا حسنا ومتينا بالرخام الـذي يحافظون على نظافته ويغطونه بالسجاد الذي يجلسون عليه • ويقوم فـوق هذه السلالم طاق يظل مفتوحا من جانب واحد حيث يجلس الاتراك تحته لينتعشوا بالهواء البارد ، وهذا ما يحدث ايام الصيف بصفة رئيسية •

وتغلق ابواب المنازل عادة بمغاليق مصنوعة من الخشب مجوفـة من الداخل ، يغلقونها بمفاتيح خشبية ايضا يبلغ طولها طول الكـف • وتـدق في هذه المفاتيح خمسة او ستة او سبعة او ثمانية او تسعة مسامير او اسلاك قوية على انتظام وتناسق في مسافات محدودة بحيث تتلاءم هذه مع المسامير الاخرى المثبتة داخل القفل فيدفعون بهذه المفاتيح الى امام او يغلقونها من الخلف حسبما يشاؤون •

وشوارع المدينة ضيقة لكنها مبلطة باحجار كبيرة وتقوم في وسطها قنوات يبلغ عرض الواحدة منها عشر بوصات وهكذا يستطيع البعير الموسق بالاحمال ان يسير فيها بامان ، كما يستطيع المرء ان يخطو من فوقها ايضا • ويقول اهل المدينة ان هذه القنوات قد صنعت على هذه الشاكلة لكي ترغم الابل والحمير وغيرها من الدواب الاخرى التي تصل المدينة في قوافل كبيرة كل يوم ، على السير فيها واحدا اثر الآخر وبانتظام ، في حين يستطيع الناس ان يسيروا في الشوارع دون ان تعيقهم تلك الدواب •

وكثيرا ما تكون هذه القنوات نظيفة وجافة وذلك لوجود مجار خفية مغطاة باحجار واسعة هذا بالاضافة الى ان مياه الامطار وكذلك مياه الابار تنساب في هذه القنوات •

وليس لدى سكان طرابلس من الابنية الجميلة القائمة ما يفاخرون به

سوى المساجد التي لا يسمح لغير المسلم بالدخول اليها الا اذا فكـر في ان يتخلى عن دينه .

وهناك بعض المساكن الواسعة التي يسميها المواطنون المحليون « كروان صاري »(٥) وهذه توجد فيها حوانيت او مخازن كبيرة وعديدة ، تجاورهـا غرف منظمة في حين تقوم في الوسط باحة واسعة ، ويستطيع التجار الاجانب الذين يجلبون بضائعهم في قوافل كل يوم ان ينزلوا في هذه المساكن على اعتبار ان الاتراك لا يملكون فنادق اخرى غيرها .

وكل هذه المساكن او الفنادق ملك خاص للسلطان او للباشا الـذي يتبعه ، وهي موجودة في عدد من المدن ، ويحصل القوم من ورائها على ايرادات سنوية مثلما يفعل ذلك البنادقة في مدينة البندقية خارج البيت الالماني منها .

وما خلا هذه المباني هناك الحمامات الفخمة التي تفوق المباني الاخرى بجمالها وتستحق المشاهدة فعلا .

ولما كان الاتراك والمسلمون والعرب وغيرهم ملزمين ، حسب الشريعة الاسلامية ، بالوضوء دوما لتنقيـة انفسـهم ممـا يقترفونـه من الذنـوب اليومية(٦) ، بل بالاحرى للذهاب الى المسجد ، فانهم لذلك يحتفظون بهذه الحمامات او البيوت الساخنة التي تظل دافئة وفي درجة معتدلة من الحرارة

---

(٥) كروان صاري عبارة تركية تعني المكان او النزل الذي تقصده قوافـل المسافرين وهو ما يعرف عندنا في العراق بالخان .

(٦) يحاول الرحالة ان يفصل الاتراك عن المسلمين ، وهذه هي النزعـة الاستعمارية التي ما تزال تسعى الى تفريق الشعوب وتمزيق وحدتها ، وتتجاهل هذه النزعة عمدا ان المسلمين امة واحدة ، مهما اختلفـت قومياتهم واجناسهم واقطارهم ؛ ولذلك كانت البلاد الاسلامية كلهـا تعرف بـدار الاسـلام .
اما ما ذكره عن الوضوء فان القصد من الوضوء هو تعويد المسـلم على النظافة دائما بحيث عندما يؤم المسجد او غيره للصلاة يكون بدنه وثيابه نقية من اي درن بالاضافة الى نقاوة نفسه وذهنه .

والتي لا يستوفى عنها سوى رسوم بسيطة ولا تحتاج الا الى اقل ما يتصوره الانسان من الوقود وتكون جاهزة للاستعمال ليل نهار •

في هذه الحمامات اقباء كبيرة وعميقة تحت الارض اشبه بالزنزانات الكبيرة يلتصق الواحد منها بالآخر وليس فيه سوى كوتين احدهما في اعلاه لا يزيد قطرها عن ثلاث او اربع بوصات ، والثانية تحتها اكثر منها سعة ، يودعون فيها الحطب او بعرالابل او ثفالة العنب المعصور ،وتكون هذه المواد جافةوتبعث حرارة شديدة كالحرارة التي يبعثها الفحم البحري او الطحلب الذي يستعمله سكان البلاد الواطئة او الاقطار الاخرى التي لا تتوفر فيها كميات كافية من الاخشاب • وعند اشعال هذه المواد تبعث حرارة قوية داخل القبو كله . ومع ذلك يكون هذا القبو مغلقا لا نرى اثرا للدخان او البخار فيه ، ولو انه في بعض الاحيان يكون شديد الحرارة • ولا تخمد النار في هذه الحمامات لان هناك من يعنى بها ويوفر لها الوقود اللازم بصفة متواصلة • ولكل حمام من هذه الحمامات التي شيدت بفخامة طبقا لعادات الاغريق والرومان ، صالة جميلة على مقربة من مدخله مبلطة تبليطا عجيبا مثل بقية ارض الحمام ذاته وتكون مكفتة بالرخام المنقوش بمختلف الالوان نقشا فنيا بديعا وفي اعلاها قبة يغطيها طاق في شكل كرة •

وتقوم حول جدران الحمام مقاعد يخلع الناس عليها ملابسهم وهذا هو القسم الاول من الحمام • (وكان القدماء يستعملون خمسة من هذه المقاعد يسمونها منزع الحمام) • وتشاهد في وسط الحمام نافورات بديعة تتدفق مياهها باستمرار ويستطيع كل فرد يخرج من الحمام ان يتناول منها المياه العذبة وان يغسل المئازر التي استعملها اثناء الاغتسال في الحمام • وتصف هذه المئازر على شكل صفوف معلقة على القبو وعلى ارتفاع قامتين او ثلاث قامات وبانتظام يثير الاعجاب ، وذلك انهم يعلقونها هناك بعصي طويلة كيما تجف وتصبح مستوية وكأنها قد بسطت وسويت باليد وذلك عمل يستحق

الاعجاب ، اذا انهم يستأنفون استعمالها مرة اخرى ولهذا ينزلونها من اماكنها بذات العصى التي رفعوها بها ثم يجمعونها على مقربة من النافورة .

وهذه المئازر ذات الوان متباينة ، وتعطى قطعتان منها لكل مستحم يدخل الى الحمام واثنتان اخريان حين يخرج منه ، واحدة يلف بها رأسه والثانية يأتزر بها .

وحين تتوجه الى مكان الاغتسال لابد لك ان تمر بغرفتين او ثلاث غرف كل واحدة منها اكثر دفئا من الاخرى ، ويعلو كل واحدة رواق مدور الى ان تبلغ الغرفة الكبيرة وتكون هذه الاروقة ذات فتحات متقاربة منتظمة مغطاة بالزجاج العجيب الذي يجعلها مضيئة ويضفي عليها زخرفة جميلة ايضا .

وفي هذه الغرف جملة من الاواني المصنوعة من المرمر يوضع فيها الماء وتنتشر حول اركان الغرفة الكبرى . وهناك ثلاث او اربع غرف صغرى تحتجز لبعض القوم الذين يفضلون الاغتسال في معزل عن بقية الآخرين ومن دون ادنى مضايقة وما خلا ذلك توجد غرفة اخرى يقوم في وسطها خزان كبير من المرمر يستطيع المرء ان يغتسل فيه اذا ماأصابه العرق ، وفي هذا الخزان عدد من الحنفيات تستطيع ان تحصل بواسطتها على الكمية التي تحتاج اليها من الماء من ذلك الخزان .

ويجري تسخين كل هذه الغرف بذات الحرارة . ويقبل الاتراك والمسلمون ، وهم من امتين لهما ذات العقيدة الدينية والعادات[7] ، على الاستحمام في هذه الحمامات ودخولها صراحة . اما النساء فانهن يفدن باعداد كبيرة الى هذه المحلات الفخمة ولا يجتمعن في اي مكان آخر عدا قبور موتاهن ، وامثال هذه الاماكن لا يمكن العثور عليه بحالة جيدة .

---

(٧) يكرر الرحالة نفس النزعة الاستعمارية في فصل الاتراك عن المسلمين في حين ان الرابطة الاسلامية هي التي توحد المسلمين في شتى البلدان .

حين تدخل الى الحمام يتلقاك احد الخدم وهم من الزنوج المسلمين عادة فيطرحك على الارض ويبدأ يدلك كل مفاصلك ، وبعد ان ينتهي من ذلك يفركها ثانية ، ثم يطوي ذراعيك ويضعها الواحد فوق الآخر على صدرك ويشدهما بقوة لبعض الوقت تحت ركبتيه ومن ثم يثنيهما ويمدهما بحيث تبدو وكانك اسير بين يديه بينما يظل رأسك منتصبا .

وقد حدث ذات مرة ان ذهبنا الى الحمام وتولى احد الخدم تدليك مفاصلنا فضغط اثناء ذلك على رقبة احد رفاقي فظل ذلك الرفيق لا يستطيع حراك رقبته لعدة ايام .

بعد ان ينتهي الخادم من هذه العملية يقلبك على بطنك ويروح يدلك اعضاء جسمك ثانية فيدوس كتفيك بقدميه ويفرك ظهرك بيديه ومن ثم يتركك ويخرج من الحمام .

وحينما تضطجع لتستريح او لتعرق جسمك يأتيك الخادم بمادة يقتلع بها الشعر في جسمك ، ذلك ان القوم لا يتركون اي نوع من الشعر فوق اجسامهم . وتتألف هذه المادة من الجير والزرنيخ على شكل مسحوق يراف بالماء ، يغطى به شعرك ويترك هنيهة الى ان يجد الخادم بان الشعر قد اخذ يتساقط واذ ذاك يغسل مكانه بالماء غسلا جيدا قبل ان تشعر بحرقته ، وعندئذ يأتيك بمئزر من القماش الابيض النظيف ويلف به بدنك .

اما المئازر التي سبقت الاشارة عنها فتكون بيضاء اشبه بالمنسوجات القطنية لكن خيوطها اشد واصلب ، ، وتلك يجلبها الحجاج معهم من « مكة » وهي تصنع من الياف نوع من الشجر .

واخيرا يغسل الخدم رؤوس المستحمين ، ويستعملون في ذلك احيانا ، ولاسيما بالنسبة للنساء ، راسبا يشبه الرماد يغسل به الرأس لانه ينظف الشعر ويطيله . وهناك نوع من راسب آخر تأكله النساء علانية مثلما اعتادت

النساء في بلادنا الاوربية ان يأكلن الفحم وبعض المواد الاخرى احيانا .

وتكون هذه الحمامات مباحة لدخول الاجانب اليها من امثال الالمان والفرنسيين والايرانيين وغيرهم ، مثلما هو الامر بالنسبة الى الاتراك والمسلمين . ولكن ينبغي على هؤلاء ان لا يأتوا الى هذه الحمامات في الاوقات التي تكون فيها النساء موجودة هناك ، والا عرضوا حياتهم للخطر .

على ان في مقدورك ان تميز الحمامات التي تستحم النساء فيها . اذ المعتاد ان توضع ستارة على باب الحمام المواجهة للشارع . فاذا ما رأى الرجل الذي يريد الدخول الى الحمام تلك الستارة دلف الى باب اخرى غيرها .

وعن الحركة في المدينة ، فانه بالنظر الى وفرة مختلف انواع السلع التي تجلب اليها من اماكن قاصية جدا ، يشاهد عدد كبير من التجار فيها معظمهم من الفرنسيين والايطاليين لهم رئيسان حكيمان فاهمان ومدربان يعيش احدهما ، وهو فرنسي ، هنا في طرابلس بينما يعيش الآخر ، وهو بندقي ، في حلب ، ويطلق على هذين اسم قناصل وذلك لمساعدة ابناء وطنهم وتقديم الاستشارات المفيدة لهم . ولقد ارسل هذان القنصلان من قبل حكومتيهما فاستقرا هنا واصبحا يتمتعان بامتيازات كبيرة منحهما لهما السلطان التركي كيما يستطيع التجار ان يحملوا بضائعهم معهم وان يدافعا عنهم ضد اي اذى يتعرضون له من الاتراك والمسلمين ، وممارسة المتاجرة والتعامل مع الاخرين دون ادنى مضايقة .

وما يزال هؤلاء القناصل يرتدون نفس ملابسهم الوطنية المصنوعة غالبا من الستن الاحمر او البنفسجي او الحرير الدمشقي وغيره ، وهم يتمتعون بالاحترام الفائق ويجلبون معهم من بلادهم الخياطين وصانعي الاحذيه لكن الاشخاص الرئيسين الذين يأتون بهم ، يتألفون من الاطباء والصيادلة والجراحين والاداريين ، وفضلا عن ذلك فانهم يحتفظون بمترجميهم الحاذقين في اللغتين التركية والعربية ، واخص بالذكر منهم ، القنصل البندقي الذي امضى هناك

ما لا يقل عن ثلاث سنوات ، وعندما انتهت مهمته بعث دوق البندقية بقنصل آخر مكانه . وعندما يصل هذا القنصل الجديد الى طرابلس لا يجرأ على النزول الى الشاطىء قبل ان يستقبله القنصل السابق على ظهر السفينة التي اقبل عليها .

وقد خصصت لهذين القنصلين بنايتين كبيرتين يسمون الواحدة منهما فندقا ، وهما تقعان على مقربة من بوابتي المدينة اللتين تؤديان الى المرفأ والى شاطىء البحر ، وذلك لكي يسهل عليهما ارسال سلعهما من هناك الى داخل المدينة وخارجها .

وعلى طول النهار وعرضه يرى المسلمون باعداد كبيرة وهم ينتظرون مع حميرهم فرصة نقل التجار والملاحين مع سلعهم الى المدينة ومنها . وهناك بيتان كبيران فيهما عدد كبير من الاروقة والغرف يتوفر فيهما السكن للتجار وخزن بضائعهم فيهما .

ويقيم مع الفرنسيين اناس من « جنوا » وفلورنس وسانت لوك وغيرها ، ومن الالمان والهولنديين وسواهم ، في حين يعيش مع البنادقة اناس من « كانديا » و « كورفو » وغيرهما .

وليس لاي من هذه الفنادق اكثر من باب كبيرة واحدة يحرسها الجنود الانكشاريون وحين يدخل اسيادهم القناصل الى هذه الفنادق يصحبهم في ذلك عدد من التجار والخدم . ويتمتع هؤلاء القناصل بنفوذ كبير لدى الاتراك والمسلمين بل ان سلطتهم تتجاوز سلطة الباشا نفسه . فتراهم على الدوام يسيرون ويتقدمهم جنودهم باعداد كبيرة وهم يحملون الهراوات الطويلة يضربون بها المارة لاخلاء الطريق حتى وان كان اولئك المارة من الاتراك انفسهم .

ويدخل التجار يوميا في مفاوضات مع اليهود الذين يعرفون عدة لغات ، ويعلمون بالاسعار التي تباع بها السلع وتشترى . ولذلك ترى هؤلاء اليهود يساعدون في عقد صفقات بيع السلع ، وفي دفع النقود ، وتنظيم قوائم التحويل النقدي التي يحتفظون بجداولها .

ولقد رأيت بصفة رئيسة ثلاثة انواع من النقود الفضية هي «الاسبر»[٨] والمعدني ، والسيجست[٩] . وهذه النقود جيدة وهي سارية المفعول في كل انحاء تركيا . وحين يتم دفع مبالغ كبيرة منها لا يجري عدها كلها تماما وانما يعد جزء منها يتم وزنه ، ومن ثم تقاس بقية النقود على اساس ذلك الوزن . اما عن النقود الذهبيةفليس لديهم سوى « الدوكات »[١٠] التي تصنع من الذهب الخالص وتكون نادرة جدا . وما خلا ذلك يصعب رؤية اي من العملات الاخرى .

على ان هناك المزيد من الدوكات البندقية و « التستون »[١١] و « الجواشيم » و « التالر » الفرنسية . وهم لا يدفعون مع هذهالعملات قوائم الصرف والمبالغ الكبيرة حسب بل ويحولونها الى علاتهم الخاصة ؛ ولذلك يتوفر عدد كبير من اليهود في كل انحاء تركيا وفي كل مدينة تجارية ، وبصفة خاصة في مدينة حلب وفي طرابلس هذه التي انشأوا لهم فيها عمارة واسعة وبيعة فاخرة .

ويمسك هؤلاء اليهود بزمام ايرادات الكمارك التي يستوفيها السلطان التركي ؛ ولذلك فليس مستطاعا ارسال بضاعة ما الى تركيا او خروجها منها دون ان تكون تحت متناولهم ، وذلك امر يسبب القلق الشديد لجميع التجار ، اذ أن على هؤلاء ان هم ارادوا شراء حاجة من اليهود ، ان يكونوا في منتهى

---

(٨) الاسبر Aspers عملة هولندية

(٩) سيجست Saijest من عملات أوربا الوسطى في ذلك الوقت .

(١٠) الدوكة Docat عملة ايطالية كانت تعادل ستة شلنات انكليزية في ذلك الوقت

(١١) تستون Teston وجواشيم Joachim وتالير Thaler وكلها من العملات الفرنسية التي كانت شائعة في فرنسا منذ العصور الوسطى .

الحذر من ان يغشوا لان اليهود ملىء بالغش ، كما يعترفون هم انفسهم بان احدا لا يستطيع الحصول على اي شيء منهم الا اذا كان اكثر منهم خداعا ، كيما يجرأ على ان يقايض معهم سلعة باخرى .

وبالنسبة الى البضائع يشاهد المرء عدة انواع منها في الخانات كما اشرت الى ذلك قبلا . غير ان الجزء الرئيس من البضائع يتوفر في الاسواق او في البيوت التي تتعامل بالبيع والشراء ، او في محلات المقايضة. وهذه المحلات طويلة وواسعة يكون البعض منها على شكل اروقة ، والبعض الاخر مسقف بالاخشاب بحيث تستطيع ان تتمشى وتساوم وتشتري دون ان تبتل بماء المطر . كذلك تقوم على جانبي محلات المقايضة هذه حوانيت اضافة الى اصحاب الحرف والصناعات وصانعي الاحذية والخياطين والسراجين ومطرزي الحرير والخراطين وصانعي السكاكين والنساجين والعطارين وبائعي الفواكه وصانعي الادوات النحاسية وادوات الطبخ وكثيرين غيرهم ممن تراهم موزعين في شوارع المدينة ومحلاتها .

ويبعث التجار بكميات كبيرة من الحرير اذ ان هناك عدد وفير منهم لا يتعاملون باية بضاعة سوى الحرير الذي يؤتى به من المناطق المجاورة من امثال لبنان التي يسكنها اناس كثيرون يمارسون صنع الحرير وغزله ، او من دمشق بالدرجة الاولى حيث تتوفر فيها كميات كبيرة من الحرير مما يستطيع التاجر ان يشتريه بسرعة وبكميات تقدر بعدة الآف من الدوكات ، وذلك بالنظر الى وجود كثرة فائقة من اشجار « التوت »[١٢] الضخمة الشامخة ذات الاوراق الكثيرة التي تتغذى عليها دودة القز . علما ان ثمار التوت هذه تكون بيضاء اللون وتنقل في سلال وتباع لعامة الناس . وهكذا تجد في الاسواق عددا كبيرا من صانعي الحرير الذين يصنعون مختلف المطرزات الحريرية بالوان متباينة وهم يمارسون اعمالهم هذه امام حوانيتهم حيث تجد الواحد منهم ،

---

(١٢) ذكر المؤلف كلمة التوت هذه بلفظها العربي .

حين يريد برم خيوط الحرير ، يمسك بخيطين يربط احدهما باحدى قدميه ثم يبدأ يبرمه وهكذا ، ومثل هذا يفعل الخراطون ايضا الذين يمسكون بالحديد الذي يريدون خرطه بين اقدامهم وايديهم •

وفي اوقات محدودة من السنة تجلب الى هذه الاسواق من دمشق وغيرها من الاماكن القريبة منها كميات وفيرة من الزبيب الطيب المذاق(١٣) الذي لا توجد فيه سوى حبة واحدة ، حيث يتم شحن عدة سفن بهذا الزبيب من هناك الى بلادنا الاوربية • فهذه السلع وامثالها يؤتى بها يوميا الى الاسواق التي تستقبلها ، وكذلك السجاد النادر والحرائر الغالية المطرزة باشكال الاوراد والازهار من مختلف الالوان والتي يبدو البعض منها وكأنه من الذهب الخالص •

على ان كثرة التجار الذين يتعاملون بالصابون والقلى تفوق سواهم من التجار الآخرين ولذلك ترى عدة سفن توسق بالبوتاس والصابون وترسل كل سنة من هناك الى البندقية اذ ان مادة البوتاس تستخدم في صناعة الزجاج مثلما هو الامر في صناعة الصابون •

ويستخرج هذا البوتاس او القلى من اعشاب يطلق عليها العرب اسم « شنان »(١٤) وهو على نوعين (وقد الصقت شيئا منه ـ مع مواد اخرى ـ على الورق) • واحد هذين النوعين لا يختلف عن نبات القلى المعروف عندنا اذ يتألف من نبتة سميكة كثيرة العقد ذات اغصان صغيرة تتفرع منها ولها في

---

(١٣) ذكره المؤلف بلفظه العربي Cebib
(١٤) سماه المؤلف خطا باسم شوان Shvan

رؤوسها عدة عقد ومن تحتها اوراق مدببة • اما النوع الثاني فتكون سيقانه كثيرة مليئة بالعقد وجذوره ملونة •

وينمو هذان النوعان من الاعشاب بكميات هائلة حيث يتم حرقها وتحويلها الى رماد فوق الجبال • وعند حرقها تسيل منها مادة زيتية تلتصق بالرماد فتصبح صلبة اشبه بالحجارة بعد ان تفقد حرارتها •

ويجلب المسلمون هذا الرماد من الجبال على ظهور الابل فيبيعونه لبعض التجار الذين يتاجرون به فيصدرون قسما منه الى البلاد الاجنبية بينما يصنعون من القسم الآخر مادة الصابون طبقا للكمية المتوفرة لديهم وحاجتهم اليها •

ولقد شرحوا لي الطريقة التي يصنعون بها الصابون في سوريا • ذلك انهم يأخذون الفا ومائتي وزن (او اثنتي عشرة مائة) من هذا الرماد فيقسمونه في فصل الشتاء الى اربعة اقسام وفي فصل الصيف الى ثمانية اقسام ذلك لان الصابون سرعان ما يتجمد أيام الشتاء لان الحرارة تتأثر بالبرودة الخارجية اكثر من الصيف • يؤخذ القسم الاول من هذه الاقسام في شكل طبقة رقيقة تصب في وعاء او في قدر كبير مصنوع من الحجر ، ويكون قعره مصنوعا من صفيحة نحاسية سميكة جدا بعد ان يكونوا قد وضعوا فيه مسبقا الفا وستمائة وزن من الزيت او الشحم ثم يتركونه يتجمد لمدة اربع وعشرين ساعة وبعد ذلك يضيفون اليه كل يوم طبقة اخرى من قسم آخر • ولكن قبل ان يتجمد الصابون (وهو يحتاج في ذلك الى خمسة ايام في الشتاء والى تسعة او عشرة ايام في الصيف) يأخذون مائة وزن من الجير فيمزجونه مع الرماد ثم يسحبون من هذا المزيج طبقة يتركونها مدة يومين قبل ان يضعوها في القدر وذلك بكميات تزيد او تنقص تبعا لسمك الطبقة ورقتها •

ولكن اذا حدث وتكونت كمية كبيرة في القدر فانهم اذ ذاك يرفعون

صفيحة النحاس من القدر فلا نبقى فيه سوى الكمية المناسبة من المزيج وبعد ان يتجمد يخرجون منه ، وفي صحن من النحاس يتسـع لثمانيـة او عشـرة باوندات ، الصابون الذي يطفو على سطح المزيج ويسكبونه على الارض ثم يغطونه بالجير او الطباشير ويتركونه على هذه الشاكلة مدة يوم واحد في الشتاء ويومين في الصيف كيما يتصلب الى درجة انهم يستطيعون السير فوقـه ، وعندئذ يصقلونه ويقطعونه الى قطع صغيرة ويبصمون علاماتهم عليها •

الفصل الثاني

افراد الطبقة العليا من رجال الاتراك ونساؤهم ، اعمالهم ودوائرهم ،عاداتهم وتقاليدهم وملابسهم ، وغير ذلك مما استطعت ان اشاهده وألم به واعرفه

تعد مدينة طرابلس اكبر بكثير من بقية المدن والولايات القريبة منها والتي تخضع للسلطان التركي الذي يحتفظ بضباط له في كل الاماكن الاخرى وهم يحكمون تلك البلاد طبقا لرغائبه ، ويحمونها من كل الاضرار والاخطار .

ويطلق على هؤلاء الرؤساء اسم لواء او باشا وهم يعتبرون حكام الدولة والمسكين بزمامها ، اذ ان تحت امرتهم عدد من الفرسان ، عدد يزيد او يقل تبعاً لايرادات الولايات التي يلتزمون بادارتها . وهؤلاء الباشوات من العسكريين الشجعان المدربين الذين يقودون رجالهم عدة مرات في الاسبوع لتدريبهم ، راكبين او مترجلين ، على استعمال السهام والنشاشيب وتسجل لهم علاماتهم بالقفز من فوق صواري عالية وباطلاق السهام اثناء ركضهم ، على استعداد لدخول الميدان في الحال ومحاربة الاعداء . ويعمل تحت امرة هؤلاء الالوية عدد آخر من الضباط والآمرين . ويكون الصوباشيون(١) والقضاة هم المبرزون بين هؤلاء الموظفين وهم يعينون من قبل الباشا في الاماكن القريبة التي ييسروا له عمله في المحلات التي لا يستطيع المكوث فيها .

ويستدعى لادارة مثل هذه الاماكن مواطنون من سكنتها لا يسكثون فيها اكثر من نصف سنة ، وهم يبتون في كل المسائل الاجرامية ، ولديهم سلطة تعذيب المجرمين لارغامهم على الاعتراف بجرائمهم ، كماانهم يصحبون المجرمين

---

(١) الصوباشي رتبة وظيفية تعادل رتبة مدير الشرطة عندنا

الذين يحكم عليهم بالسجن او الموت الى الاماكن التي يتم فيها تنفيذ مثل هذه العقوبات •

وغالبا ما كنت ارى اولئك الجنود راكبين • وفي احدى المرات شاهدتهم يصحبون مجرما حكم عليه بالموت وقد اركبوه على ظهر بعير ، واوثقوا ذراعيه وساروا به الى ساحة الاعدام بعد ان وضعوا بين صدره وكتفيه مصابيح متقدين مزودين بالشحم فكان الدهن المتقطر من الشحم يسيل على جسده فيحرقه بشدة •

وينفذ الاتراك عددا من العقوبات لجملة من الجرائم التي تقترف اعداد كبيرة منها ، ومنها معاقبة اللصوص والقتلة وقطاع الطرق والمغتصبين وما شاكلهم • وكذلك يستخدم الاتراك عددا كبيرا من الضباط والموظفين يبعثون بهم الى مختلف الاصقاع لمطاردة الذين يشتبه بهم لخروجهم على القوانين والقاء القبض عليهم ، وضربهم واصابتهم بجروح •

اما بالنسبة الى الاعتداءات والمخالفات الاخرى فان الاتراك يحاكمون امام حاكم يسمونه « قاضيا » وهو من الملمين بالقوانين وممارسة المحاكمة واصدار الاحكام بعد الاستماع الى الشهادات وتمحيصها •

فاذا كان الحكم عن دين اودع المدين السجن في الحال الى ان يسدد الدين الذي بذمته ، او ان يجد وسيلة اخرى يضمن بها تسديد دينه ، وان كان الحكم عن مخالفة للقانون حكم عليه بالغرامة او الجلد •

ويعمل تحت امرة القاضي عدد من الاتباع والجواسيس الذين يبعث بهم يوميا للتجسس على من يخرقون القوانين ، من امثال اولئك الذين يتناولون المسكرات ، او يمتنعون عن اداء الصلاة او الصوم ، او مخالفة القوانين الموضوعة باية وسيلة اخرى • فاذا عثروا على واحد من هؤلاء جاؤوا به امام القاضي الذي يفرض عليه العقوبة طبقا للذنب الذي اقترفه • فاذا لم يستطع

دفع الغرامة مثلا حكم عليه بالجلد عدة مرات على قفا قدميه ، والا وجب عليه ان يدفع عن كل جلدة نصف « بني » ونظرا لكثرة امثال هؤلاء المخالفين الذين يؤتى بهم امام القاضي كل يوم ، ويحكم على القسم الاعظم منهم بالجلد ، فقد كنا اثناء وجودنا في الفندق الفرنسي ، الذي يقع قبالة مقر القاضي ، نسمع عويل اولئك التعساء وصراخهم .

ورغم انشغال القاضي بالبت في هذه المخالفات فان قضايا الزواج تأخذ جزءا كبيرا من وقته . ذلك لان كل من يريد ان يتزوج عليه ان يقصد القاضي ليعقد له عقد زواجه المثبتة صورته في كتاب بين يديه . ويعتمد عليه في حالة وقوع خلاف بين الزوجين حيث يحق للاتراك والمسلمين ان يتزوجوا من عدة زوجات ، وان يطلقوهن لادنى سبب[٢] . ويسلم القاضي المتزوجين نسخا من عقود الزواج التي تكتب لعامة الناس على ورق ناعم مستو . اما الاثرياء فتكتب عقود نكاحهم على قطعة من القماش الحريري الابيض يبلغ طولها زهاء ياردة . ولا تشتمل هذه العقود الا على كلمات قليلة يكتبونها باحرف قصيرة ذلك ان كل قطعة من هذه القطع لا تحتوى اكثر من ثمانية او عشرة اسطر تفصل بين كل سطر وآخر مسافة بوصتين . ولاداء هذه المهمة يحتفظ القاضي بجملة من الكتبة الذين غالبا ما يكتبون وهم يضعون اوراقهم على ركبهم بدلا من المناضد او الموائد .

ويلبس امراء الالوية والصوباشيون والقضاة الذين اشرت اليهم قبلا وكذلك زوجاتهم اغلى الملابس واثمن انواع الحرير المطرز بالاوراد وبمختلف الالوان . وغالبا ما تقدم اليهم هذه الملابس من الاناس الذين لهم معاملات

(٢) هذا قول هراء من الرحالة فالمسلم لا يحق له ان تكون في عصمته ، وفي وقت واحد ، اكثر من اربع زوجات شريطة ان يعدل بينهن فاذا ما فقد العدل يقتصر الامر على زوجة واحدة .
اما الطلاق فانه لا يقع لادنى سبب كما ذكر الرحالة ذلك فان شروط الطلاق كثيرة وثقيلة ولا يسمح به الا اذا توفرت تلك الشروط كلها .

عندهم ، اذ ان هؤلاء الحكام لا يودون ان ينفقوا من نقودهم شيئا ، وذلك بقصد تأييد تلك المعاملات ونوال الحظوة بينهم • فهؤلاء الحكام شديدو الجشع ، واذا لم تقدم لهم العطايا لا يؤدون سوى القليل من الاعمال •

ولما كان الباشوات وامراء الالوية الذين يديرون الممالك والولايات تحت امرة السلطان يدركون جيدا ان بقاءهم في هذه الاماكن لا يزيد على ثلاث سنوات ، وان عليهم ان ينتقلوا منها الى اماكن اخرى حالما يأمرهم السلطان بذلك ، وقد تكون هذه على مسافات بعيدة جدا ، فانهم لهذا السبب يتطلعون دوما الى الثراء والغنى فيحصلون على الهبات او يرفعون من قبل البلاط الى منصب او وظيفة اعلى ، وحتى اذا لم يحصلوا على هذا المنصب فانهم يحققون لهم ثراء كبيرا نتيجة المنزلة الرفيعة التي اصابوها قبلا •

حين كنت في طرابلس تولى احد امراء الالوية هذا المنصب الذي كان يشغله آمر لواء سابق له • وهكذا توجه اللواء الجديد الى دائرته يحف به رجال حرسه ، واستقبلته المدينة استقبالا فخما ، وكان موكبه يتألف معظمه من الفرسان وحملة السهام والرماح والتروس ، بالاضافة الى حملة الطبول والمزامير وغيرها وكانت هذه الرماح والاسلحة متوجة ببعض المعادن الصقيلة البراقة ، كما كانت ركاب سروجهم تلتمع من مسافات بعيدة •

ويود كل هؤلاء الموظفون ان يظهروا ، عند اداء وظائفهم ، بمظاهر العظمة ومع ذلك فكلهم عرضة للجشع (وهو اصل كل الشرور) والتطلع الى الهبات والرشاوى ، وتلفيق التهم ضد الابرياء في سبيل الحصول على الاموال • وعلى هذا فان من اليسير جدا على من يريد الانتقام من خصمه ان يثير له المتاعب ويلحق به الخسائر عن طريق تقديم الهبات الى الموظفين ولا يختلف احد عن هذا في شيء قط • فهم في سبيل المال الحرام ، لا يأنفون اطلاقا من معاقبة الابرياء اذا ما كان هؤلاء من الاغنياء او الغرباء ، ولذلك فان الموظفين الذين يعملون تحت امرة الصوباشين في مثل هذه الامور حاذقون جدا ، اذ تراهم يتعقبون كل من يعارضهم او لا ينساق اليهم •

ولما كانت مدة بقائهم في مناصبهم قصيرة ، فان هؤلاء الصوباشيين يبذلون قصارى جهودهم في زيادة ثرائهم في اسرع وقت مستطاع ، وهم في هذا لا يخشون امراء الالوية ولا الباشوات لان هؤلاء شركاء معهم في هذه الغنائم وانهم يتلقون انصبتهم من هذه الغنائم كل اسبوع • وبعبارة موجزة ان في مقدور اي فرد ارتكب جريمة ما ان ينجو من العقاب ويعود رجلا صالحا مثلما كان عليه قبلا اذا ما قدم الرشوة الى هؤلاء الحاكمين •

ولكن هؤلاء الموظفين عرضة للمحاكمة ، كما نصت القوانين على ذلك ، امام قضاة كبار يسمونهم « قضاة الشرع » والتعرض للعقوبة جزاء ابتزازهم الاموال • ويعتبر الاتراك هؤلاء القضاة بانهم المعلمون الاساسيون للشريعة الاسلامية وهم يمتازون بالذكاء والمعرفة ولديهم سلطة محاكمة كل الموظفين والضباط ولاسيما القضاة ، والحكم عليهم ، والافراج عنهم تبعا لمخالفتهم • ويتنقل قضاة الشرع من مدينة الى اخرى للاطلاع على كيفية تطبيق العدالة من قبل القضاة ويخشى هؤلاء كثيرا مقدم قضاة الشرع الى اماكن عملهم واذا ما وجدوا انفسهم مذنبين بارتكاب جريمة ما فانهم يهربون من اماكن عملهم في اغلب الاوقات • واذا ما شكا الناس اولئك القضاة عند قضاة الشرع عوقبوا بالجلد علانية ، ونقلوا من اماكن عملهم • اما اذا كانت الجريمة جسيمة فانهم يشنقون او يحرقون وهذا ما يحدث غالبا في هذه البلدان •

اما اذا اعتدى القاضي على احد الناس فان المعتدى عليه لن ينتظر مقدم قضاة الشرع ليرفع اليهم شكواه ، وانما يسلك طريقة اخرى وذلك بان يعرض شكواه على الباب العالي او الى محكمة السلطان أو ان يذهب بنفسه الى هناك ليقدم شكواه بصفة شخصية • وسرعان ما يسمع جواب شكواه تلك • فقد علمت ان مثل هذه القضايا ينظر فيها مرة كل اسبوعين • واذا كان احد المشتكين فقيرا تقوم المحكمة باوده الى ان تنتهي قضيته •

ولقد وقعت مثل هذه الحادثة قبلا لمترجم القنصل البندقي الذي نجح في شكواه ضد احد الصوباشيين حين اراد هذا ان يسلبه ، لكنه لم يستطع ان يثبت اية تهمة عليه تكون موجبة للعقاب ، واذ ذاك وجد الصوباشي طريقة لذلك بان امر احد خدمه ان يخفي عاهرة في بيت المترجم دون علم منه ليكون ذلك دليلا كافيا لاتهامه • ونفذ الخادم تلك العملية فعلا ، وهرع موظفو القاضي الى البيت ففتشوه وعثروا على العاهرة فيه فالقي القبض على المترجم وزج به في السجن دون ان يسمح له بالدفاع عن نفسه وتبرئته ، وانه كان يجهل تلك الواقعة جهلا تاما ولم يستطع ان يقنع القاضي ببراءته بكل الوسائل وهكذا حكم عليه باداء غرامة مقدراها تسعمائة دوكة ارغم على دفعها • وقد اثار هذا الامر قلق المترجم لانه لم يستطع دفع هذه العقوبة القاسية عنه • ولما كان رجلا مجربا وخبيرا بالقوانين السارية المفعول فقد اعد له جوادا ، دون علم من القاضي ، وانطلق به الى اسطنبول ليرفع شكواه بنفسه الى محكمة السلطان وقد نجح في ذلك واعلنت براءته من التهمة التي اسندت اليه •

ولما كانت هذه المحكمة تعاقب بشدة من يقترفون الظلم ، فان ذلك القاضي لم ينج من العقاب ، اذ لم يلبث السلطان ان ارسل بعد فترة قصيرة باحد سياقيه ومعه تذكرة قصيرة يطلب فيها ارسال رأس القاضي مع حامل تلك التذكرة • وقد فزع القاضي لذلك فزعا شديدا لكنه بعد ان استرحم زوجة رسول السلطان سلم نفسه اليه ، وهذا هو السبب الذي يجعل الكثير من الخطط والمقاصد الشريرة ـ ولاسيما اذا استدعى احدهم آخر للحضور امام محكمة السلطان ـ يصيبها الفشل ويتم نقضها من المحكمة ، والا اصبحت نافذة المفعول •

وحين يظهر انسان ما امام احد الاتراك من ذوي المنزلة الرفيعة فان عليه ان يكون حذرا في ذلك ولا سيما حين يغادره بان لا يدير له قفاه لان ذلك يعتبر اعظم اهانة وتحقير ، وهذا من الامور الشائعة في الممتلكات التركية •

ولكن اذا ما ظهر خادم امام سيده يطلب عفوه عن ذنب ارتكبه فانه

يتبع في ذلك اسلوبا خاصا اذ يقدم نفسه اول الامر الى سيده ويبدي له كل صنوف الاحترام التي تخطر على باله ثم يقبع على ركبتيه ويمسك بيدي سيده يقبلهما فاذا ما سمح له سيده بذلك انتعشت آماله في ان سيده سيلبي لـه طلبه . اما اذا سحب سيده يديه وان كان قد هم بامساكها عدة مرات ، ادرك تماما ان سيده ما يزال غاضبا عليه وليس هناك سوى امل ضئيل في العفـو عنـه .

ويود الاتراك ان يعاملوا بقدر كبير من الاحترام والتبجيل فهم يعرفون ان سلطة اسيادهم السلاطين كانت خلال الازمنة الماضية تتعاظم بدلا من ان تنقص ، ولذلك تراهم يعنون بانفسهم فيرتدون دوما اغلى الملابس ، ويمتطون احسن الجياد المطهمة بافخر السروج المطرزة المصنوعة من اجود انواع الحرير ذي الالوان الحمراء والبنفسجية ، واللجم والركائب المصنوعة من الذهـب والفضـة .

واللغة التركية هي اللغة التي يتحدثون بها عادة ، وهي نفسها التـي يتحدث بها جند الحاميات . وينطقون بهذه اللغة بعظمة وفخامـة ويكـون نطقهم بها اشبه بنطق لساننا الالماني . على انهم في الوقت ذاته يحذقون اللغة العربية بصفة عامة وهي اللغة السائدة في هذا البلد كله وفي بلاد اخرى جديدة حيث تجد العرب والسريان واليعاقبة وغيرهم يتحدثون بهذه اللغة ايضا .

وللاتراك عادات وتقاليد حسنة يتمسكون بها فهم يبدأون احاديثهم ، ولا سيما مع الاقارب والمعارف ، بالتحية الودية والتقبيل لكنهم في نفس الوقت يتصفون بالكسل ولا يهتمون بالعلوم والفنون الحرة ، ويحبون البطالة اكثر من العمل ، اذ انك تراهم ينفقون اليوم كله في لعبـة الشـطرنج وغيرها من الالعاب الاخرى ، ويعزفون على القيثارة التي تتألف من ثلاثة او خمسة او سبعة اوتار ، واحيانا احد عشر وترا ، كما لاحظت ذلك في القيثارات التي كان يحملها الموسيقيون الذين يعملون تحت امرة باشا «حلب» . ويعرف هؤلاء على

القيثارة بالسبابة او بقطعة من الريش ، ويسيرون في الشوارع ، وعلى الأخص الجند منهم ، طيلة النهار وبذلك الفوا الكسل والبطالة ، والتعود على اقتراف الاعمال القبيحة ولاسيما اللواط الذي لا يعاقبون مقترفيه بشدة لان الرفيعين والواطئين منهم يمارسونه دوما .

وهم يحبون ارتداء الملابس الجيدة ذات الالوان البراقة دون المبالاة بتكاليفها فملابسهم الفوقانية التي تمتد الى اسفل تكون مثقلة بالازرار ، ويرتدون تحتها صداريات تشبه صداريات الجنود عادة وتكون مصنوعة من قماش ازرق اللون ليست لها ياقات عند الرقبة . وتكون القمصان من القطن وفتحاتها عند الرقبة واسعة مثل بقية ملابسهم الاخرى وبدلا من الربطة يستعملون قماطا للرقبة يلفونه على رقابهم ليبعدون به شدة وهج الشمس .

اما في ايام الصيف فانهم يرتدون السراويل القطنية البيضاء الفضفاضة التي تتدلى الى كعوبهم وتكون جد ضيقة من الاسفل .

والاتراك لا يستعملون الجواريب كيما يستطيعون ان يتوضأوا بان يغسلوا اقدامهم واذرعهم ورقابهم دون ادنى عائق طبقا لما تفرضه عليهم شريعتهم الاسلامية . وهم يشدون هذه السراويل من اوساطها على اجسادهم العارية باحزمة ثم يرتدون قمصانهم فوقها . وحين يريد احدهم ان يتبول يفك سرواله ثم يجلس ويلف كل ملابسه حوله مثلما تفعل النساء ، ويستدير عن ناحية الجنوب لانها الناحية التي يتجهون اليها عند اداء الصلاة . واذا ما شاهدوا رجلا يتبول واقفا استنتجوا من ذلك انه مسيحي وليس من افراد طائفتهم وحين يجلسون تكون سيقانهم في الغالب مطبقة الواحدة فوق الاخرى وذلك هو الوضع الشائع في الشرق كله اذ انهم لا يستعملون الكراسي ولا الموائد ، وانما يستعيضون عنها بدكاك مبلطة ترتفع مقدار درجتين او ثلاث درجات سلم تقوم فوقها اروقة وتكون هذه الدكاك نظيفة مفروشة بالسجاد

او الابسطة او الحصر المضفورة ضفرا جيدا والمحلاة بالالوان تبعا لقدرة اهل البيت على توفيرها .

ويخلع الاتراك احذيتهم عند باب الغرفة عادة . وتكون هذه الاحذية اشبه بالاحذية التي يلبسها الدهانون عندنا وعلى غرار الصنادل التي يسهل لبسها وخلعها وتكون بيضاء او زرقاء عادة مصبوغة من امام وتنتهي بمسامير في الاسفل وبسهماز من الخلف . وهذه الاحذية يلبسها الكبار والصغار ، الرجال والنساء ، الاغنياء والفقراء .

وما عدا ذلك فانهم يلبسون الاحذية الخشبية احيانا . وهذه تباع في كل مكان وتعلو بزهاء ثلاث بوصات وتكون اواسطها مقعرة من الاسفل وذلك لتميز قفا الرجل عن كعبها . وتدهن هذه الاحذية بالوان مختلفة وتلبسها النسوة ايضا ، اذ ان هؤلاء يرتدين في الغالب ذات الالبسة التي يرتديها الرجال ومنها السراويل الطويلة التي تلبس تحت الصداريات وتكون مصنوعة من القطن الجيد ذي الالوان المتعددة ولها ازرار من الجوانب .

ومن النادر مشاهدة امرأة تركية في الشارع او في السوق لشراء الحاجيات ام في المساجد التي تؤمها الشهيرات بينهن وان يكن ذلك نادرا ايضا . فالنساء لهن اماكن مفصولة عن اماكن الرجال ، ولهن في بيوتهن محلات وزوايا سرية يخفين انفسهن فيها حالما يقبل احد الرجال على زيارة بيوتهن وحين يخرجن ، وذلك نادرا ايضا ، هنالك ترى ثلاثا او اربعا منهن مع اطفالهن سوية وكلهن زوجات لرجل واحد اذ ان شريعتهم تبيح للرجل ان يمتلك اكبر عدد يستطيع امتلاكه من النساء[٣] .

(٣) هذا محض افتراء ووهم باطل من المؤلف فالشريعة الاسلامية لا تسمح باكثر من اربع زوجات وبشرط العدالة بينهن ، كما ذكرنا ذلك في حاشية سابقة . لكن للرجل الموسر ان يستخدم العديد من الخدم والاماء في بيته على ان يقوم باعالتهن اعالة تامة .

وتخفي النسوة وجوههن بالحجب التي يصنع البعض منها من الحرير الفاخر بينما يصنع البعض الآخر من شعر الخيل وهذا النوع تستعمله الفقيرات • وهن يغطين رؤوسهن بطرحات مصنوعة من القطن واسعة بحيث تغطي حتى اذرعهن واكتافهن ، وبالشكل الذي تستعمله فتياتنا حين يحاولن محافظة انفسهن من البلل فيلقين بامثال هذه الطرحات فوق رؤوسهن •

ولما كان الاتراك شديدي الغيرة فان من النادر ان تلتقي زوجاتهم في الشارع او السوق ، وانما في البيوت وحدها ، او حين يذهبن لزيارة قبور ابائهن او اقاربهن المتوفين والتي تكون في خارج المدينة عادة وعلى مقربة من الطريق ، ويحصل احيانا حينما يذهبن الى هناك ان يأخذن معهن الخبز والجبنة والبيض وما شاكله ليتناولنه عند القبور • وكثيرا ما يتركن شيئا من طعامهن هذا للحيوانات وللطيور تأكله بعد مغادرتهن ، اعتقادا منهن ان مثل هذا العطف على الحيوان مقبول عند الله كالعطف على البشر •

وتتألف القبور عادة من حفر مغطاة باحجار كبيرة وتكون على شكل اسرة الاطفال في بلادنا اذ ترتفع عند الرأس وعند الاقدام وتكون مجوفة في الوسط ، تملأ بالتراب وتزرع فيها الاعشاب الجميلة ولكن الغالب تثبت الرايات فيها • ومن المعتاد ان يزرع اهل الموتى الريحان الاخضر في حفر صغيرة يحفرونها حول القبور اذ انهم يعتقدون ان موتاهم سيكونون اسعد حالا طالما بقيت الرياحين يانعة محافظة على ريعانها • وبسبب هذه الخرافة تكثر المحلات التي يباع فيها الريحان وهم ينعشونه بالماء كيما يظل طريا اذ تقبل النساء على شرائه وغرسه في قبور موتاهن •

وتكون الاماكن التي تقام فيها القبور خارج المدينة عادة وعلى مقربة من الطرق الخارجية بحيث يستطيع كل امرىء يمر بها ان يتذكرها وان يستغفر الله لها ، وهذا هو السبب الذي يدعهم يقيمون القباب فوق القبور ، ذلك لان

الناس الذين يزورون هذه القبور ، ومعظمهم من اقارب الموتى ، يستطيعون دخول هذه القباب واداء الصلاة فيها على ارواح الموتى .

وحين يتوفى احد منهم يتم غسل جثمانه ، ويلبس افخر ثيابه ، ثم يلقى به على لوح ويغطى بالرياحين والازهار العطرة ، ويترك وجهه مكشوفا بحيث يستطيع كل واحد ان ينظر اليه ويتعرف عليه قبل ان ينقل الى المقبرة(٤) فاذا كان المتوفى « شلبيا » اى شخصا نبيلا ، فانهم يضعون طربوشه وحليه الاخرى عند رأسه ، ثم يسير اصدقاؤه ومعارفه في المقدمة خلف الجنازة مباشرة ، ويكون عملهم هو نقل الجثمان من واحد الى الآخر اذا ما احسوا بالتعب جراء ذلك ، ومن ثم يمضون به في رفق وهم ينتحبون طوال الطريق الى المقبرة ، في حين تسير النسوة وراءهم صارخات معولات يسمعهن كل من يكون على قارعة الطريق .

---

(٤) لسنا نعرف ان كانت مثل هذه العادة سائدة في سوريا او بين الطوائف المسيحية على الاخص . ولكن الشائع عندنا في العراق ان يلف الميت بعد تغسيله بالكفن ، ولا يترك اي جزء ظاهر من جسمه ثم يحمل في جنازة على الاكتاف وبعد ان يصلى عليه صلاة الميت يلقى في القبر ويهال عليه التراب .

الفصل الثالث

الطريق الذي سلكته في سفري من طرابلس الى المدينتين الشهيرتين : دمشـق وحلـب

بعد ان استرحت جملة اسابيع في طرابلس وشاهدت معالم تلك المدينة وابنيتها واطلعت على احوالها البهيجة ، واكثر من ذلك عرفت عوائد سكانها وتقاليدهم واخلاقهم سواء في ذلك الاكابر منهم ام الواطئون ، قررت ان اسافر الى مدينة « حلب » التي تعتبر اكبر مدينة تجارية في سوريا ، واكثرها شهرة اطلاقا ، والتي تقع على مسيرة خمسة او ستة ايام من طرابلس وباتجاهها الشمالي الشرقي .

وحين صادفت بعض الزملاء الراغبين في السفر معي ، تزودنا بالاطعمة التي نحتاج اليها في رحلتنا تلك ، من امثال الخبز والجبنة والبيض وما شاكلها ، وهكذا غادرنا طرابلس في اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني سنة ١٥٨٣ .

ولقد صادفتنا في الطريق امطار غزيرة اذ ان الامطار تسقط عادة في مثل هذا الوقت من السنة ، وتستمر طيلة الشتاء تقريبا ولهذا السبب فقد تأخرت مسيرتنا اذ اننا لم نصل الى « دمشق »[١] ، التي تقع في منتصف الطريق بين طرابلس وحلب ، الا في اليوم الرابع لمغادرتنا .

وقد نزلنا هنا في النزل الكبير الموجود في المدينة والذي يسمونه « كروان صاري » حيث خصصت لنا احدى الغرف فيه ، لكننا لم نجد فيها اية موائـد

---

(١) كتب المؤلف اسم دمشق باسم « دامانت Damant » تارة و « داماند Damand » تارة اخرى وهذا هو الاسم الذي عرفت بـه قديمـا .

او كراسي او مقاعد او اسرة وانما مدت على الارض حصيرة من القصب المضفور لتعوض عن كل تلك الادوات . ولقد ابتعنا من سوق المدينة بعض الاطعمة حسب رغبتنا وامضينا الليل كله هناك .

وهذه المدينة التي يعتبرها البعض مدينة « افاميا »[٢] القديسة كبيرة وحسنة البناء تقع في واد بين التلال ، ولذلك لا تستطيع ان ترى شيئا منها ، قبل قدومك اليها ، سوى القلعة الحصينة الواقعة على احد التلال . ومن حواليها بساتين وحقول كثيرة ترتوي من مياه نهر « العاصي »[٣] الواسع نوعا ما والذي يمر عبر المدينة .

ويرفع القوم الماء من النهر عن طريق النواعير التي تقوم داخل النهر ذاته لهذا الغرض ، وتفرغ الماء في اقنية تحمله الى البساتين والحدائق فتنتعش به رغم شدة حرارة الشمس . ولقد وددت ان اتفرج على هذه البساتين لكن رفاقي كانوا مسرعين في سفرهم ، وعلى هذا غادرنا المدينة صباح اليوم التالي متوجهين الى حلب .

شاهدنا على امتداد الطريق حقولا واسعة للقمح وبساتين كثيرة للكروم واخرى زرعت بالاقطان التي تجلب من هذه الاصقاع وتباع لنا في اوربا وهي تحمل اسم البلد الذي تنمو فيه ، بالاضافة الى الحرائر والسلع الاخرى التي تشترى هناك في الدرجة الاولى .

وفي هذه البلدان عدد كبير من الحمر الوحشية جلودها سميكة قوية تستعمل للسلبس حيث يحسن القوم تطريتها وتحسينها لهذا الغرض . وتعد السيوف والسكاكين التي تصنع في دمشق من خيرة الاسلحة واكثرها شحذا

---

(٢) افاميا Apamia من المدن التي انشأها سلوقس نيقاتور خليفة الاسكندر المقدوني في سوريا وتعرف الان باسم قلعة المضيق وقد دمرتها الزلازل سنة ١١٥٢م .كما انشأ سلوقس في العراق مدينة بنفس الاسم .

(٣) ذكره المؤلف باسم هاسي Hasce خطأ وهو من الانهار الشهيرة في

ورهافة اذ ان في مقدورك ان تقطع بها قضيبا من الحديد الى عدة قطع دون ان يؤثر ذلك في شحذ السكين • ولذلك يفضل سكان المدينة حمل المدي على الخناجر التي يشدونها في احزمتهم او يربطونها باشرطة تتدلى على ظهورهم •

واذ واصلنا السير وبلغنا قمة جبل لبنان شاهدنا عددا وفيرا من القرى على جانبي الطريق معظمها مأهولة بالمسيحيين من السريان والاراميين وغيرهم ، ممن اقمنا عندهم اثناء الليل احيانا وقد استقبلونا بمنتهى الادب وقدموا لنا خمورا من الاعناب التي تنمو فوق تلك الجبال ولم اكن قد شربت في حياتي افخر من تلك الخمور •

من بين القرى التي وصلنا اليها قرية تدعى « حماة »[٤] تقع في ارض خصبة وقد قيل عنها انها كانت في يوم من الايام مدينة جميلة جدا لكنها تهدمت بمرور الزمن وتخربت فلم تعد في ايامنا هذه سوى قرية صغيرة • كذلك تناثرت هنا وهناك بين الحقول خرائب بيوت صغيرة •

استأنفنا مسيرتنا بين الجبال ، وشاهدنا عن بعد مدينة صغيرة تقع فوق التلال والى اعلى منها قلعة حصينة قيل ان الفرنسيين هم الذين شادوها قبلا ، ولما كانت الارواح الشريرة والهوام تعيش فيها فقد تركت متهدمة وغير مأهولة •

تركنا هذه القلعة على يسارنا وانتقلنا الى حقل قمح جيد الزرع ، واذ ذاك شاهدنا عن يسارنا مدينة « سرمين »[٥] وهي على مسافة بعيدة عنا ، وعلى مقربة منها وحواليها غابة كثيفة من اشجار الفستق الذي يجمعونه هناك

سوريا وقد اخطأ المؤلف ايضا في تحديد موقع نهر العاصي ذلك لان النهر الذي يمر خلال دمشق هو نهر بردى ، وليس نهر العاصي .

(٤) دعاها المؤلف باسم هنال Hanal وحماة من المدن المهمة والقديمة في سوريا تقع على نهر العاصي وتشتهر بنواعيرها التي ما زالت قائمة حتى اليوم .

(٥) سرمين Sermin تعرف الان باسم « ادلب » وهي من المدن القديمة تمتاز بوجود جامع فيها مؤلف من تسع قباب

ويبعثون به الى طرابلس ومن ثم يصدره التجار منها الى بلادنا الاوربية • وتنمو هذه الاشجار على مقربة من الطرق الخارجية وعلى الاخص عند قرية « باسيلو »[٦] التي مكثنا فيها طيلة الليل •

مررنا في طريقنا بتسعة او عشرة خانات وهي عبارة عن منازل مفتوحة تدخلها القوافل والمسافرون عند المساء عادة لتمضية الليل فيها ويكون المبيت فيها مجانا ، لكنك لا تعثر فيها لا على اللحم ولا على الشراب • فاذا ما اردت ان تصيب شيئا منهما فان عليك ان تجلبهما معك ، وان تقنع بالمنام على كومة من القش ، فان لم تحصل على ذلك فانك تنام على احدى الدكاك التي تحيط بكل جدران الخان ، والتي يوضع عليها العلف الذي تتناوله الخيل والحمير والابل

والمعتاد ان تكون المسافة بين خان واخر ثلاثة اميال ، وتكون هذه الخانات واسعة منتظمة ، جدرانها حصينة مثل جدران القلاع ، وتبنى على شكل مربع عادة وفي وسطها باحة كبيرة تحيط بها زرائب مفتوحة اشبه بالقلايات في الاديرة •

ويحتفظ البعض من هذه الخانات بحامية تتألف من تسعة او اثنى عشر من الجند الانكشاريين ، وذلك لابقاء الطرق امينة ولحماية المسافرين من هجمات السكان والاعراب •

بعد ان واصلنا السير في عدة جبال وعرة ، واصبحنا على مقربة من حلب ، وجدنا في النهاية مدينة تشبه مدينة دمشق[٧] وهي في حجمها مثل مدينة « ستراسبورغ » ، واذ ذاك ترجلنا عند ابوابها لانه لا يسمح في تركيا لاي اجنبي ان يدخل اية مدينة راكبا ، وعلى هذه الشاكلة دخلنا المدينة فمضيت الى الفندق الفرنسي للمبيت فيه ، وهذا ما يفعله كل الالمان •

---

(٦) باسيلو لم نستطع ان نعثر على الاسم الحقيقي لهذه القرية .

(٧) لعل هذه المدينة التي لم يذكر المؤلف اسمها هي مدينة « الرصافة » التي عرفت منذ العهد الاشوري بهذا الاسم ثم ابدل اسمها فيما بعد الميلاد باسم « سرجون بولس » واعاد المسلمون لها اسمها القديم الرصافة وكانت مقر الخليفة الاموي الشهير هشام بن عبدالملك .

الفصل الرابع

الاوضاع في مدينة حلب . الابنية القائمة فيها ،الفواكه الفاخرة والنباتات النادرة التي تنمو في الحدائق وخارجها!

تبدو مدينة حلب ، وهي من اعظم المدن واشهرها في سوريا ، وكانت تدعى قديما باسم « نيريا »[1] ، محصنة في بعض المواقع بالخنادق والاسوار لكن هذه لا تدور حول المدينة كلها . ولذلك فان في مستطاع اي امرىء ـ كما هو الامر بالنسبة لمدينة طرابلس ايضا ـ ان يدخلها ويخرج منها في اي وقت يشاء من الليل . ولا تكون بوابات المدن ـ كما هو معتاد في بلادنا ولا سيما بالنسبة الى المدن الشهيرة ـ محمية بالجنود . فلا يشاهد سوى اثنين او ثلاثة يقفون عند البوابات الرئيسة التي تنطلق منها الطرق الخارجية ، اذ يقف هؤلاء لاستيفاء الاتاوة لا لمحافظة ابواب المدينة . كما انهم لا يحملون معهم اية اسلحة .

على ان في وسط المدينة قلعة تقوم على تل مرتفع ، وهي حصينة وكبيرة محاطة بالاسوار والخنادق وفيها حراسة جيدة . اما الابنية الاخرى ، وكلها مستوية السطوح ومغطاة بالملاط بحيث يستطيع المرء ان يمشي فوقها ، فانها اشبه بالابنية التي شاهدتها في طرابلس . وقد شاهدت بين هذه الابنية بناية فخمة جدا قيل لي ان صاحبها انفق على بنائها مبالغ طائلة ، لكن مدخلها ليس

---

(1) نيريا Nerea اخطأ المؤلف في ذكر هذا الاسم اذ الصحيح ان حلب كانت تدعى « بيريا » Boarea وهذا الاسم اطلقه عليها سلوقس وهو اسم لاحدى المدن المقدونية القديمة . وكانت حلب في عهد الاراميين تدعى خالوبى وحالوبى وسميت حلبو وحلبون وحلبا ايضا

سوى باب ضيقة واطئة ولذلك فان على من يريد الدخول اليها ان يحني جسمه تماما •

وما خلا ذلك فان حلب محاطة بتلال صخرية واوديتها ذات تربة طباشيرية ومع ذلك فلا تعوزها الحنطة والا الشعير وغيرهما من الحبوب لان ارضها خصبة • ويبدأ الحصاد فيها عادة في شهري نيسان وايار •

ولا يوجد في هذه الاودية سوى القليل من اشجار البلوط ، والاعشاب الجافة ، ذلك لان الجفاف فيها شديد وارضها رملية ، في حين ترى التلال وعرة ملىء بالادغال ليس فيها سوى القليل من العشب الجاف ، ولذلك وجدنا السكان يعلفون مواشيهم بالشعير والتبن الذي تدوسه ادوات الدراسة التي تجرها الثيران • وكذلك وجدنا الادوية مليئة باشجار الزيتون وهذا هو الذي جعل الاهلين هنا ينتجون في كل سنة مئات الالوف من اطنان زيت الزيتون الذي يستعمل في صناعة الصابون •

والى جانب ذلك توجد بساتين كثيرة لاشجار اللوز والتين والسفرجل والتوت الابيض والفستق الذي يجمعه المسلمون في فصل الربيع بكميات كبيرة فيملحونه ويقشرونه ويأكلونه مثلما نفعل نحن بنبات الجنجل •

وفضلا عن ذلك تكثر بساتين البرتقال والليمون والرمان والخوخ وغيرها غير ان ثمار التفاح والكمثرى تعد قليلة بالنسبة الى الثمار الاخرى وتكون صغيرة الحجم وغير ملونة بالشكل المعروف منها في بلادنا • ويعقب ذلك وجود كثرة من حاصلات الرقى والبطيخ والخيار وما شاكلها فضلا عن وفرة انواع الخضار • ولقد شاهدت ثلاثة انواع من الباذنجان تختلف الوانه بين الاسود والبني ،والفاصوليا وغيرها من الخضار التي تباع بكثرة في الاسواق وتطبخ لتهيئة الطعام اليومي كما انهم كثيرا ما يتناولون بعض هذه الخضراوات وهي نجة اي دون طبخ •

وهناك نوع من اللوبياء او الكستناء تطبخ او تحمص ثم تنزع قشورها وهم يتناولونها عندما يجلسون في المقاهي ، كما يقدمونها على مائدة الطعام بعد

انتهاء الوجبات عوضا عن الحلويات او الفواكه من امثال الزبيب والجوز وغيرهما .

وهناك عدة نباتات تستعمل طعاما بالطبخ منها العدس . وهذا ذكرني بنبتة مماثلة يسميها العرب « ماش » وهي في شكلها واوراقها تشبه نبتة الفاصوليا عندنا . ولقد اشار « سيرابيو » الى هذه النبتة باسم « مليس »[٢] في الفصل ١١٦ من كتابه كما اشار اليها ابن سينا ايضا باسم « ميسى »[٣] في الفصل ٤٨٨ من كتابه . غير ان العالم النباتي الشهير « كارلوسي كلوفبوس »[٤] سماها في كتابه « ملخص النباتات الهندية » باسم « مونغو »[٥] وقد وجدت الاتراك يحبون تناول الماش كثيرا ولا سيما مع الرز[٦] .

وجدت التجار في مدينة حلب هذه يشترون كميات كثيرة من الادوية التي يجلبونها من انحاء مختلفة بطرق القوافل .

---

(٢) MES وسيرابو Serapio هذا يذكر عادة باسم سرابيون وسيرافيون ايضا وهو مطران معبد ثميوس في دلتا النيل بمصر ، وضع كتابه عن الصلاة ويعتبر من اشهر المصادر عن المثولوجيا وقد عثر على هذا الكتاب ضمن مجموعة من الوثائق القديمة في دير « لورا » وتم نشره سنة ١٨٩٤ وقد توفي سرابيو في حدود (٣٥٠) ميلادية

(٣) Meisce المراد بكتاب ابن سينا هو كتاب « القانون » من اشهر الكتب الطبية العربية الذي ظل يدرس في الجامعات الاوربية حتى القرن السادس عشر .

(٤) كارلوس كلوفيوس Carlus Clvius عالم نباتي ومؤرخ لاتيني شهير وقد اشتهر بكتابه الموسوعي المعنون « تأريخ النبات في البلاد الاجنبية » .

(٥) مونغو Mungo ليست هي المونا الهندية التي تعرف عندنا باسم عنبة

(٦) لما كانت الغاية التي وفد راوولف من اجلها الى الشرق هي جمع مختلف انواع النباتات والاعشاب التي تدخل في انتاج الادوية الطبية ، لذلك نراه في كل مكان يحل فيه يركز اهتمامه على وصف مختلف النباتات والاعشاب التي يجدها هناك وحيث ان ذكر هذه النباتات وصفاتها بشكل مسهب لا يهم القارىء كثيرا ، سيما واننا قد ثبتنا ملحقا في اخر الكتاب ضم اهم النباتات التي وجدها راوولف في الشرق ، فقد ضربنا صفحا عن هذه التفصيلات واكتفينا بذكر اسماء النباتات والفواكه والاشجار ليس الا .

الفصل الخامس

المناصب الرفيعة والسلطات الواسعة التي يتمتع بها الباشوات . البلاطات الكبيرة التي يحتفظون بها . الطرق التي يديرون بها دوائرهم . اساليب حياتهم . امتيازاتهم ، عوائدهم ، واحاديثهم .

تخضع مدينة « حلب » ، التي يعتقد ان اسمها وموقعها يشيران الى مدينة « شاليبون »[1] التي قال عنها بطليموس انها تقع في بلاد « الشاليبين »[2] ، للسلطان التركي مع بقية الاماكن القريبة منها . ويقيم فيها احد الباشوات فيحكمها هي وباقي انحاء الولاية حسب هواه . ولما كان الباشوات في الغالب هم أعلى طبقة تأتي بعد السلطان ، لذلك فانهم يعيشون في ابهة ومراكز رفيعة ، وتكون بلاطاتهم اشبه ببلاطات النبلاء في بلادنا . وتبعا للولايات التي يحكمونها ان كانت كبيرة ام صغيرة ، فانهم يستخدمون حاكمين يخضعون لسلطتهم من امثال امير اللواء و « بلك » باشا[3] وغيرهم . وهؤلاء يرافقونهم باستمرار ، ويذهبون معهم حتى الى المساجد ، او الى أي مكان اخر يفكرون في الذهاب اليه وذلك في مواكب كسيرة سيرا على الاقدام او على ظهور الخيل ، ولهم شاراتهم الخاصة بهم ولا سيما البلك باشا الذي يكون في رتبة تعادل رتبة

---

(١) شاليبون Chalibon اسم قديم اطلقه المؤرخون الاغريق والرومان على مدينة حلب وهذا الاسم في الواقع محرف عن الاسم الارامي وهو « خالوبي » و « حالوبي » الذي عرفت به مدينة حلب .

(٢) الشاليبيون Chalibonite اي سكان مدينة حلب اي الحلبيون

(٣) بلك (بالكاف المعجمة) كلمة تركية تعني « سرية » من الجيش ولا توجد رتبة في الجيش التركي باسم « بلك باشا » كما ذكر المؤلف ذلك ، وانما هناك رتبة « **بلك اميني** » وتعني عريف الاعاشة المختص بالسرية اما بلك باشا فقد يكون المقصود بها آمر السرية .

نقيب وتحت امرته مائة من الجند الانكشاريين الذين يرتدون الملابس الفاخرة ويضعون الريش في رؤوسهم ويسيرون على الاقدام • وما خلا ذلك فان بلاطات الباشوات تشبه بلاط السلطان نفسه تماما ، ولهم اماكن سكناهم هم ومحظياتهم اللواتي يحصلون عليهن من هنا وهناك ، من المدن والاقطار الاجنبية ، او اللواتي ينقلن زمن الحرب في البر والبحر من الامم المسيحية وغيرها • كذلك يحتفظ هؤلاء الباشوات بعدد كبير من الخصيان الذين يحصلون عليهم باستمرار •

ويسر الباشوات سرورا كبيرا بممارسة الصيد وغالبا ما يقومون برحلات تستغرق عدة ايام في حملات الصيد هذه•وحين يصطادون خنازير برية يتركونها للمسيحيين ذلك لان شريعتهم الاسلامية تحظر عليهم تناول لحم الخنزير ، الامر الذي يجعل الاتراك في معظم الاحيان يهزأون بالمسيحيين في الشوارع ويصرخون بهم ويسمونهم بالكفرة او اكلة الكلاب(٤) •

ومع ان الباشوات هم من كبار الاشخاص وانهم يحكمون المدن والبلدان الا انهم يعتبرون مع ذلك ، ومثل البقية ، ارقاء لسيدهم السلطان ، وانهم لا يستطيعون ان يمتلكوا ما يستطيعون تركه لورثتهم او ذريتهم بعد مماتهم(٥) ، مثلما يفعل ذلك النبلاء في بلادنا ، وذلك لان السلطان يستولي بعد مماتهم على كل ممتلكاتهم المنظورة ولا يسمح لذريتهم الا بماهية سنوية ليس الا • وحين يأمرهم السلطان بالانتقال من مكان الى اخر غريب عنهم وان يبرهنوا على

---

(٤) هذا القول محض كذب وافتراء على الاتراك وغيرهم من المسلمين فعلى العكس من ذلك قامت الشريعة الاسلامية على اساس احترام جميع الاديان التي سبقتها ولقد بقي الكتابيون محافظين على طقوسهم وشعائرهم الدينية في ظل الدولة الاسلامية ابتداء من عهد الرسول وحتى في عهد السلاطين العثمانيين وكانت الحظوة التي لقيها المسيحيون في البلاط العباسي على الاخص مضرب المثل في التسامح الذي جاء به الاسلام •

(٥) هذا خلط فاضح من الرحالة فالمواطنون ليسوا ارقاء للسلطان ولا توجد عليهم اية قيود بالنسبة لاموالهم وما يخلفونه لذريتهم من بعدهم •

نزاهتهم وطيب سمعتهم ، فانهم ينفذون امره في الحال ، ان كانوا لا يريدون تعريض انفسهم للمصاعب والاخطار ، وهذا هو السبب الذي يجعل مثل هؤلاء الاشخاص ، حتى وان كانوا اثرياء ، يهتمون بتشييد المباني الضخمة ولذلك فانك لا تستطيع ان ترى مثل هذه الابنية في كل البلاد ، عدا المساجد والخانات التي يشيدونها كيما يتذكرهم الناس بها •

والغالب ان يحتفظ هؤلاء الاشخاص بثرواتهم في صفة كميات من الذهب والفضة ، مما يستطيعون اخفاءه وتسليمه سرا الى ذريتهم • وهم لا يهبون المحتاجين سوى الضئيل من الهبات ولا يستخدمون عددا كبيرا من العاملين لديهم ، كل ذلك نتيجة شدة جشعهم •

ويتفق كل هؤلاء الباشوات في صفة واحدة هي العمل لمصلحتهم الخاصة والتطلع الى الثراء ولذلك يظل الافراد الذين يخضعون لحكمهم في فاقة وارهاق شديدين ولا سيما الاجانب الذين يعيشون في حركة تنقل هناك كالايطاليين والفرنسيين وغيرهم ، والذين كثيرا ما تحدث بينهم وبين الباشوات ــ الذين لا يفكرون في الصالح العام قط بل في مصالحهم الذاتية ــ خلافات كبيرة يتعرضون بسببها الى اضرار جسيمة ، الا اذا اراد ملوكهم ان يحولوا دون هذه الامور ، وان يعامل رعاياهم معاملة مضمونة ، فاذ ذاك يبعثون ببعض الرجال المحنكين الذين يسمونهم بالقناصل حيث يحصل هؤلاء على امتيازات عظيمة من السلطان التركي ويصبح في مقدورهم ان يرفعوا شكاوى ابناء جلدتهم اليه ، وحمايتهم ضد اي اعتداء يتعرضون له •

وقد حدث في الوقت الذي كنت فيه اثناء مكوثي هناك ان نشب خلاف شديد بين القنصل البندقي والباشا الجديد الذي ارسل الى هناك بدلا من الباشا الذي توفي في السادس من شهر اذار سنة ١٥٧٥ م • فلقد اقبل الباشا الجديد لاستلام منصبه في موكب حافل من الفرسان والمشاة • وعند وصوله الى مقر عمله توجه القنصل البندقي مع عدد كبير من التجار في موكب كبير لمقابلة

الباشا والترحيب به ، وتقديم هدية اليه تتألف من اربع عشرة كسوة من الملابس الحريرية الفاخرة ، والطلب اليه ان يكلأ بين عنايته ابناء وطنه كيما يتاجروا ويتعاملوا بأمان في ظل حكمه • ونظر الباشا الى الملابس فثار سخطه ثم عاد ونظر اليها ثانية واذ ذاك لم يرفض قبولها حسب بل رد على القنصل بكل فظاظة •

وغالبا ما يحدث ان يثير امثال هؤلاء الكبار الخلافات ، وان يشتطوا في خلافاتهم تلك الى ابعد الحدود ، وقد يؤدي ذلك الى ان تعرض هذه الخلافات في النهاية على السلطان ومحكمته • فاذا ما ظهر ان الباشا كان مسيئا عوقب في الحال ، دون اعتبار للسلطة الواسعة التي يتمتع بها بل طبقا للخطأ الذي ارتكبه ، اما بالغرامة او بسواها • واذا كان الجرم كبيرا فانه قد يفقد حياته بسبب ذلك وهذا ما يحدث في اغلب الاحايين ، وهو يعتمد كثيرا على طرق المواصلات التي تدر ايرادات جسيمة على السلطان كل سنة •

ورغم ان بعض العقوبات التي يعاقب بها الباشوات شديدة احيانا ، الا ان ابهتهم ومطامعهم تكون واسعة وانهم ، في سبيل الاحتفاظ بعظمتهم تلك ، لا ينفكون عن التطلع ، بكل الوسائل ، الى الغنى والثراء ، في حين يتعرض رعاياهم كل يوم لمختلف صنوف الاضطهاد والمعاناة ولا سيما اذا كانوا من الاغنياء ناهيك عن الاجانب ، بحيث لا يستطيع هؤلاء ان يكسبوا شيئا •

واكثر من هذا فأن هؤلاء الباشوات يستولون ، بعد وفاة الاغنياء من رعاياهم على اكبر جزء واعظم نصيب مما يخلفه اولئك المتوفون ، ويودعونه في جيوبهم • ولذلك فان امثال هؤلاء الناس لا يعانون اية آلام او يتحملون اية نفقات في سبيل بناء منازلهم او فلاحة اراضيهم مثلما نعاني ذلك نحن في بلادنا •

والغالب ان يعيش السكان في المدن والقرى التجارية في بيوت او صالات واطئة معظمها تحجبها التلال بحيث لا تستطيع ان تراها الا اذا اصبحت امامها مباشرة • حتى اذا ما ولجتها لا تجد فيها كراسي او مقاعد او موائد فكل ما

هناك قطعة مزدوجة من سجاد يجلسون عليه (اذ انهم لا يستعملون الاسرة الوثيرة اطلاقا) ، وحصرا وابسطة يلفونها سوية خلال النهار ويعلقونها في احدى الزوايا ،ثم يفرشونها ثانية اثناء الليل ليناموا عليها .وهم لايستعملون الشراشف كما نفعل نحن ذلك ، ولا المناشف ايضا وكل ما يستعملونه خرقة طويلة من القماش يلفون بها رقابهم العارية او يتمنطقون بها . وكثيرا ما يشاهد في منازلهم وفي كل انحاء بلادهم جملة من الاوعية الطينية غريبة الاشكال تغطى كل جوانب الجدران في الغرف مما اعتاد اقاربهم ان يهدوهم اياه اثناء الخطوبة الامر الذي يسرهم كثيرا لكنهم يستعملون هذه الاوعية ليس لغرض الذكرى وانما لاي نوع من الاستعمال .

ولا يستخدمون في مطابخهم سوى ادوات قليلة جدا من امثال القدور والصحون والاواني ذلك لانهم يطبخون كل اطعمتهم سوية في قدر واحد ولذلك لن يتعب الخدم عندهم في تنظيف الاواني وترتيبها .

وهم لا يهتمون بالملابس اهتماما كافيا رغم نجاحهم في الحصول عليها . ذلك لانهم يحبون المال حبا جما ولا ينفقون طيلة اليوم بنسا واحدا دون رضا منهم . ولذلك فان على الرجل الذي يريد الطواف في هذه الاقطار ان تكون كيسه ملىء بالنقود وان يحفظها قريبة جدا منه ، وان لا يدع احدا يعرف مقدار ما فيها ، وان يكون في منتهى الحذر من اليهود الذين لا يؤتمنون ، اذا ما اردت الخلاص من خطر جسيم ،ذلك لان اليهود لا يؤدون لك اية خدمة كانتمن دون مكافآة . وليس هذا حسب بل انهم اذا ما احسوا بانك تحمل نقودا معك راحوا يسعون بكل الوسائل لابتزازها منك . وعلى هذا فان الناس الذين يحجون الى فلسطين ويرتدون ملابس رثة لا يأبهون بهؤلاء اليهود .

ويشاهد ندمان الباشا ، ومنهم الخصايا والدراويش الذين يحتفظون باعداد كبيرة منهم ، يتهادون في اردية الحرير الطويلة الحسنة التفصيل التي يزودهم بها سيدهم ويوزعها عليهم وهي في الاصل هدايا قدمت اليه .

اما الجند من الخيالة والانكشاريين وغيرهم ، فانهم يحصلون عادة على ملابس صوفية زرقاء من البلاط ، ويعيشون على المرتب الذي يتقاضونه وهو يبلغ اما اربعة « معدني » او خمسة او ستة او سبعة او ثمانية . وكل معدني يعادل ثلاثة « فارثنغات »(٦) .

ويقل هذا المرتب او يزيد تبعا للاماكن التي يعمل الجند فيها ، وهو يدفع لهم يوميا سواء في ذلك ايام السلم ام ايام الحرب .

اما اذا ما استطاع الجند ان يحصلوا على أي شيء بالقوة او بالحرب من اعدائهم فان ذلك يكون ملكا خاصا لهم .

والعادة الجارية هي ان يعتمر الجنود بعمائم بيضاء ، وذلك ما يفعله جميع الاتراك . وفضلا عن هذا فانهم يضعون ورقة ملونة تحت العمامة ، ويفعلون ذلك بصفة رئيسة عندما يتوجهون الى الحرب اعتقادا منهم انهم ان فعلوا ذلك فلن يصابوا بأذى او جرح .

كذلك يثبت الجند في عمائمهم ريشا من ريش الكركي لكي يعتبرهم الغير من الجنود الشجعان . ومن عدد هذه الريش يستطيع الاهلون ان يقدروا عدد المعارك التي خاضها اولئك الجنود ، او العدد الذي قتلوه من الجنود المسيحيين .

وما خلا هذه العمائم يرتدي الانكشاريون قبعات ذات تيجان عالية ، مصنوعة من اللباد الابيض ، وهم يرتدونها بدلا من الخوذ ، وذلك حين يكونون في تأهب او خروج الى الحرب وتتدلى منها على الناصية شرائط مثقلة بالعقيق والياقوت والجواهر الاخرى التي يعلقون بها الريش ، وان كانت هذه الحلي ليست غالية الثمن .

وهؤلاء الجند مثل بقية الاتراك المسلمين لا يطيلون شعور رؤوسهم بل

---

(٦) الفارثنغ **Farthing** اصغر عملة انكليزية وهي تعادل ـ قبل التسعير الاخير في انكلترا ـ مليما مصريا او فلسا عراقيا .

يحلقونها متى ما نمى الشعر فيها ولا يتركون منه سوى خصلة من الخلف تتدلى الى مسافة معتدلة • وهم في الوقت الحاضر يطلقون لحاهم وان كانوا يحلقونها قبلا ، كما انهم اخذوا في السنوات الاخيرة يربون لهم الشوارب الغليظة • وتراهم يحملون البنادق ايام الحرب • اما في اوقات السلم ولا سيما عندما يكونون في الحراسة فانهم لا يحملون سوى الهراوات الطويلة •

ويسمح للجند بالزواج ، وان يمتلكوا ــ اضافة الى زوجاتهم ــ ما يغنمونه من اسيرات اثناء الحرب او غيرها ، او ان يبيعوهن الى اي راغب في الشراء •

وحين يعودون الى الوطن يفرطون في شرب الخمور فتراهم اذا ما اصابوا بعض الخمور ، ولم يكن هنالك من يراقبهم ، يتناولون كميات كبيرة منها اكثر ما اعتادته اي من الامم ، دون مزجها بمادة اخرى •

اما في اوقات الحرب وحين يكونون في احدى الحملات العسكرية فانهم يستطيعون العيش في تقشف شديد ، وان يواصلوا السير طيلة اليوم كله دون ان يريحوا انفسهم •

والحقيقة ان هؤلاء الجند وغيرهم من الجند الاخرين ، وبسبب المرتبات الجيدة التي تدفع لهم ايام السلم كما هي في ايام الحرب ، لا يبدون اية رغبة في التوجه الى ميادين القتال ، او ان يغيروا واجباتهم الهادئة باخرى مضطربة ، او ان يستبدلوا حياة مضمونة باخرى معرضة للخطر ، مثلما كانوا عليه في العهود السابقة ، ولذلك تراهم قد اعتادوا حياة الكسل ولمدة طويلة •

وما خلا ذلك فأن سيطرة الاتراك وقوتهم احط من قوة المسيحيين ، لاننا ، نحن المسيحيين ، مسلحون تسليحا جيدا بالبنادق والرماح الامر الذي نستطيع به ان نصدهم الى مسافات بعيدة بحيث لا يستطيعون الالتحام معنا والتغلب علينا • ذلك لان الخصم اذا ما صمد امامهم ولم يتراجع في اول التحام معهم فانهم سرعان ما يديرون ظهورهم ويولون الادبار •

ولكن على الرغم من ذلك كله فاننا لم نصب من الاتراك شيئا اذ كانوا هم الغالبون • والسبب في هذا يعود — ولا اريد ان اشير هنا الى تجاوزاتنا المتعددة — الى انقساماتنا ومنازعاتنا الكثيرة التي تعيقنا عن مجابهة مثل هذا الجيش بما يجب علينا ان نفعله • كذلك اظهر الاتراك بسالة اكثر في ارهابنا ، وتوجيه الضربات الينا ، واستعمال مختلف انواع الستراتيجية لالهائنا ، او للايقاع بنا في فخ ، عندما نشرع بتعقبهم ، حتى اذا ما خيل اليهم اننا قد كللنا اطبقوا علينا وباعداد كبيرة وجديدة من قواتهم للاحاطة بنا وسحقنا •

يضاف الى هذا ان الاتراك اذا ما فقدوا كتيبة او اخرى فانهم لا يقيمون لذلك وزنا ، بالنظر لوجود عدد واف من هذه الكتائب • كما انهم يعرفون كيف يعبئون للقتال كتائب اخرى يكون افرادها متشوقين جدا لتقبل القتال لانهم يتلقون ماهياتهم من اميرهم كل يوم حتى وان كانوا خارج نطاق ولايته ، ولذلك فان هذا الامير لا يحتفظ بولايته تلك حسب بل يضيف اليها ولايات اخرى غيرها ، ويروح يوسع ممتلكاته كل يوم • وعلى هذا ينبغي لنا ان نكون في منتهى الحذر منه ، لانه كلما ازداد تطلعا الى توسيع ممتلكاته ، تضاعف الخطر علينا • وهكذا نراه يستولي على احدى المدن او الاقطار او الممالك الواحدة بعد الاخرى بحد السيف ، كما رأينا ذلك قبلا في اوربا (ولا نريد ان نذكر شيئا ما عما حدث في اسيا) ، وهذا لا يخلو من اخطار واضرار على كل المسيحيين فهو يقترب كل يوم من حدودنا ولذلك فاننا في النهاية يجب علينا ان لا نتوقع لنا مصيرا افضل مما حل باليونان وتراقيا والبوسنةوهنغاريا وفلاشيا(٧) وغيرها ، التي خضعت للعبودية ، وما يزال فيها عدد من الشخصيات الرفيعة يئنون ويتحسرون حتى اليوم • ففي اثناء وجودي في حلب عثرت على ملكة فالاشيا مع اولادها وكان اصغر اولئك الاولاد قد ولد بعد وفاة ابيه الملك •

---

(٧) فالاشيا Wallachia المقصود بها بلاد بولند الحالية وقد سبق للاتراك ان احتلوها فترة من الزمن ونشروا فيها الدين الاسلامي مثل بقية الممالك الاخرى التي افتتحوها في اوربا

وتعيش هذه الملكة مع اولادها على ماهية ضئيلة خصصها لهم السلطان التركي • وهي امرأة ذكية تجيد اللغتين التركية والعربية وما يزال رعاياها يأملون ان يعيدها الله العظيم اليهم ثانية ، وبذلك تنتهي عبوديتهم •

وعندما ينصر الاتراك في معركة ما تراهم يرفعون اكفهم بالحمد والشكران لله ، ولمبعوثه الحبيب الرسول « محمد » ، ويبتهلون الى الله بأن يثير الخلافات والمنازعات فيما بيننا نحن المسيحيين (لانهم لا يؤمنون بالانجيل) ، وان يتخاصم حكامنا مع رعاياهم ، ويتنازع رجال الدين مع علية القوم ، فتنشأ عن ذلك الاضطرابات ، وتتجاوز الحدود التي وردت في شرائع الله اكثر فاكثر ، ويزول ايماننا بالمسيح وتتحلل كل انظمتنا وسياساتنا الصالحة ، واذ ذاك يبعث الله بالاتراك لمعاقبتنا •

وحين يرى الاتراك ان الاغنياء منا يضطهدون الفقراء ، وان الحكام لا يحمون العدل ولا الابرياء ، بل يتطلع الرؤساء والكبار الى ان يفتك الواحد منهم بالاخر ، فانهم ــ اي الاتراك ــ يفرحون انذاك بهذا البلاء الذي حل بنا ، ولا يخافون أي ضرر قد نلحقه بهم ــ وهذا ما نستطيع ان ننجزه بيسر لو كنا متحدين ــ بل يهددوننا بما سينزلونه بنا من اضرار •

وحين يستولي الاتراك على مدينة محصنة او على البلد كله بحد السيف ، وذلك ما يقدرون عليه من دون عساكر كبيرة او متاعب او اخطار ، فانهم يدمرون الاماكن غير الحصينة فيها ، ويبعدون من فيها من النبلاء والشخصيات البارزة ــ لان هؤلاء قد يلحقون اضرارا جسيمة ــ ثم يحلون محلهم امراء الالوية بعساكرهم وذلك للمحافظة على الاماكن المحصنة ، والاهتمام بجباية الايرادات للسلطان ، ولذلك لا نجد في مثل هذه البلدان المحتلة احدا من النبلاء المنحدرين من سلالات حاكمة قديمة ، ممن ظلوا محتفظين بمقاطعاتهم واملاكهم الخاصة بهم والتي يتوارثونها ابا عن جد • وهذا ما يتصوره المرء

عندما يأخذ بنظر الاعتبار شريعة « محمد » التي تسمح للرجل بان يتزوج من اربع زوجات في وقت واحد بالاضافة الى الجواري او الاماء حسب هواه •

ولا اريد هنا ان اتحدث عن حرية الطلاق عند المسلمين لادنى سبب ، واستبدال الزوجات المطلقات باخرى جديدات مما تنجم عنه الخلافات والقلاقل الى درجة انه لا توجد سوى قلة من الاطفال ممن يعرفون اباءهم[٨] ولا يظهر بينهم سوى القليل من الود مثلما يفترض المرء ذلك • على ان هذا الامر لا يحط من قدر الرجال بل يزيدهم شهرة لان الناس يستنتجون بان الرجال الذين يحتفظون بعدة زوجات انما يتصرفون بمنتهى الادب طبقا لشرائعهم ولذلك سرعان ما يثقون بهم ويفضلونهم على غيرهم في المكان والماهية ، ويعتبرونهم من « الشلبية » الحقيقيين ، أي الاشراف •

ومع ان هؤلاء الاشخاص وغيرهم من الاتراك يحتفظون بعدة زوجات متباينات في المولد وفي النسب الا ان لهن حصة متساوية في ادارة شؤون الاسرة • فكلهن يتزودن بالمأكل والمشرب والملبس على قدم المساواة • كما ان العمل يكون مقسما فيما بينهن بالقسطاس • ذلك لان ايا منهن لم تجلب لزوجها شيئا من المال ، بل ان هؤلاء الازواج هم الذين يشترونهن من ابائهن بمبالغ نقدية كبيرة في بعض الاحيان ، ثم يجهزونهن بالملبس وما شاكله • ولذلك فان الرابطة الزوجية تمنح الزوج سلطة اقوى من سلطة الزوجة ، ولهذا يستطيع

---

(٨) هذا امر مبالغ فيه جدا من جانب المؤلف اذ انمن النادر انلايعرف الولد اباه الا اذا كان ابوه قد طلق امه وهي حامل به او كان في الاشهر الاولى من عمره وانقطعت صلته به وبأمه بتاتا منذ وقوع الطلاق . كما ان الزوج لا يستطيع ان يمتلك ما يشاء من الاماء ، الى جانب زوجاته الاربع .

الزوج ان يتزوج امرأة واحدة ثلاث مرات ثم يطلقها مرة اخرى(٩) .

ولكن الواقع ان الزوج لا يفعل ذلك الا اذ اخشى الفضيحة . وهذا ما تستطيع ان تستشفعه من كلمات السلطان التركي « بايزيد »(١٠) التي وجهها الى « تيمور » او « تيمورلنك »(١١) والتي يقول له فيها من الافضل له ان يعيد زوجته بعد ان طلقها ثلاث مرات ، من ان يهب للحرب ضده . وقد احتمل تيمورلنك تلك العبارة المستقبحة ، واصرها في نفسه ولذلك لم يهزم « بايزيد » في احدى المعارك حسب بل اخذه اسيرا وحمله في قفص حديدي أشبه بوحش الغابة .

علي ان اعود الان الى موضوع الزواج فاقول ان زواج الاتراك لا يشترط فيه ان يصادق عليه احد من رجال الدين قبل وقوعه(١٢) . ذلك لان على

---

(٩) وهذه مبالغة اخرى من المؤلف ايضا . ذلك لان المسلم اذا ما طلق زوجته فلن يستطيع ان يتزوجها بعد طلاقها منه لكن اذا ما تزوجت رجلا غيره وطلقها ذلك الرجل طلاقا بانا جاز لزوجها الاول ان يتزوجها ثانية ولا توجد حوادث تؤكد تكرار الزواج والطلاق من زوجين لاكثر من مرتين

(١٠) بايزيد كتبه المؤلف Bajazet ويقصد به بايزيد الاول الملقب بالصاعقة (يلدرم) وهو رابع السلاطين العثمانيين وابن السلطان مراد الاول ولد سنة ٧٦١هـ ١٣٥٩م وتولى العرش سنة ٧٩١هـ ١٣٨٨م واندحر امام تيمورلنك في معركة انقرة التي وقعت سنة ٨٠٤ هـ ١٤٠١ م ثم توفي في السنة التالية

(١١) تيمور ذكره المؤلف باسم تيميري Temery وعرف باسم تيمورلنك اي تيمور الاعرج من احفاد جنكيزخان ولد سنة ١٣٣٥م وشغل الوزارة في حكومة سيور غاتماش خان ثم تآمر عليه واخذ الحكم من يده وابقاه ملكا اسميا زحف على ايران فاحتلها ثم توجه الى بلاد الاتراك فانتزع منهم المدن الواحدة تلو الاخرى واخيرا هزم سلطانهم بايزيد الاول وفتح الشام ومصر والعراق والتركستان

(١٢) هذا زعم باطل من الرحالة لعل مبعثه جهله باحكام الدين الاسلامي الحنيف . فلابد لاتمام الزواج من مصادقة القاضي على عقد الزواج وبدون هذا التصديق لا يتم اي زواج .

زوجاتهم ان يعشن في وفاق وسلام ومودة ، وان لا يعارضن أزواجهن الا في قضية واحدة هي عدم احلال المساواة بينهن • فاذا ما حدث ذلك ، وهو يحدث في اغلب الاحيان ، فانهن لا يجرأن على ان يشكين ازواجهن الى القاضي او الحاكم • ولذلك تعرض على القاضي كل يوم قضايا غريبة جدا (لكنها ليست غريبة بالنسبة اليه) • فاذا ما ظهر ان الزوج كان مذنبا كانت الزوجة في حل منه واذ ذاك يقع الطلاق رأسا وفي ذات الساعة •

والنساء التركيات جميلات ومهندمات جدا ومؤدبات الى ابعد حد في تصرفاتهن ومسلكهن • وحين تزوج احداهن وتزف الى بيت بعلها يذهب اقاربها معها ، اي انهم يدعون لحضور حفلة الزواج ، وعندئذ تبدأ الجلبة في الشوارع وتتعالى الاصوات اكثر فاكثر كلما استمروا في السير بحيث تستطيع ان تسمع اصواتهم تلك من مسافة غير قليلة •

ويتظاهر الاغنياء والمقتدرون من الاتراك اثناء زواجهم بمشاهد عديدة • فتراهم اثناء النهار يعقدون حلبات الرقص والسباق والتمثيل والغناء والقفز والزحف والرقص على الحبال وما شاكل ذلك • وبعد غروب الشمس وحلول الظلام يشرعون باطلاق عدة اطلاقات وصواريخ نارية علانية وفي الاماكـن المكشوفة بحيث يستطيع كل فرد ان يشاهدها ويستمرون في هذه الالعاب حتى انبثاق نور الفجر •

اما الراقصون على الحبال فانهم يرقصون فوق ثلاثة منها يكون الواحد منها فوق الاخر ويكون اعلى تلك الحبال اكثرها طولا ثم يبدأون يمارسون فوق كل حبل منها ما تعلموه من فنون خاصة بالرقص بكل دقة ورزانة • ومن امثال الرقص والنط والجري والايماء والسير فوق الارجـل الخشبية وغيرها من الالعاب التي تستحق المشاهدة •

وحين يتزوج اولادهم فانهم سرعان ما ينسون اباءهم ولا يجرأون على رؤيتهم ثانية لفترة طويلة[١٣] ولو انهم لا يودون ان يفعلوا ذلك .

وحين يولد لهم اولاد لا يختنونهم في اليوم الثامن لولادتهم ، بل يتركونهم حتى يبلغوا الثامنة او التاسعة او العاشرة من اعمارهم واذ ذاك يجرى ختانهم .

ويوجد بينهم ، ولا سيما العرب ، من يقلدون اباهم « اسماعيل »[١٤] الذي لم يتم ختانه الا بعد ان بلغ السنة الثالثة عشرة من عمره .

والمعتاد ان تتم عملية الختان في بيت الوالدين . وحين يختن اولاد احد الاغنياء تولم لذلك وليمة ، ويشوى احد العجول برمته . فهم يجئون بعجل ويضعون في جوفه احد الاكباش ثم يضعون في جوف ذلك الكبش دجاجة وفي جوف تلك الدجاجة بيضة ويطهونها سوية ويقدمونها في الوليمة وما بقي منها يوزعونه على الفقراء[١٥] .

وحين يكبر الاطفال ويبدأون المشي يلبسونهم قمصانا فضفاضة من نسيج لطيف في عدة الوان تسر الناظر اليها ، ثم يضعون على رؤوس الذين لم يختنوا بعد طاقيات ملونة مطرزة بالورود وتباع بشكل اعتيادي في الاسواق . لكنهم بعد ان يتم ختانهم يشرعون بارتداء العمائم البيض التي تصنع من نسيج القطن وتلف حول الطاقيات بطريقة خاصة ، ويبلغ طول الواحدة منها عشرين يردا .

---

(١٣) هذا راي غريب من المؤلف وهو لا ينطبق لا على العرب ولا على المسلمين اذ المعتاد ان الغربيين ، وليس الشرقيين ، هم الذين تنقطع الصلة عندهم بين الاباء والابناء بعد ان يبلغ الواحد منهم سن البلوغ .

(١٤) اسماعيل بن ابراهيم الخليل جد العرب . والحقيقة انه حتى الوقت الحاضر قد يتأخر ختان الاولاد الى ان يتجاوز الواحد منهم العاشرة من عمره او يبلغ الخامسة عشرة ايضا .

(١٥) هذه الوجبة الغريبة من الطعام غير معتادة لدى العرب او الاتراك فالشائع ان يحشى جوف الخروف بالرز واللوز والفلافل وما شاكله ثم يطهى ويقدم على المائدة وهو ما يعرف عندنا بأكلة : « القوزي »

ولدى السكان في هذه الاقطار عادة غريبة اخرى اعتادها الصغار والكبار والرجال والنساء على حد سواء ذلك انهم يصنعون زواقا رقيقا من العفص والزاج الاخضر المحروق يزوقون به عيونهم ويحفظونها من الرمد كما يصبغون به شفاههم ايضا ، ويرسمون به حول عيونهم دوائر بنفس الطريقة التي نراها في اعناق الحمام المطوق الموجود في بلادنا . ويبدو انهم ورثوا هذه التزويقات من القدم . كما انهم يستعملون الكحل في عيونهم ايضا ، ولقد قرأنا الكثير عن كحل العين في عدة اماكن في العهد القديم واخص بالذكر الاصحاح الثالث والعشرين من سفر حزقيال ، الاية (٤٠) التي يقول فيها الرب على لسان النبي « وهكذا اقبلوا على من كانوا يغتسلون ويزوقون عيونهم ويزينون بالحلي » .

اما ما يختص بتعليم الشبان فانهم لا يتعلمون في المدرسة سوى القراءة والكتابة باللغة العربية ، وهذه حروفها واحدة بالنسبة للعرب وللاتراك وان كانت لغاتهم متباينة تماما .

وما خلا ذلك توجد مدارس اخرى يدرس فيها الشبان القوانين التي يسنها السلطان ولذلك سرعان ما يطلب الى هؤلاء الذين يستمرون في دراسة هذه القوانين ان يتولوا المناصب من امثال القاضي وقاضي الشرع .

اما بالنظر الى العلوم والفنون الحرة التي تتعلمها نحن في بلادنا فانهم لا يقبلون على تعلمها ، ولذلك فان من يعرف هذه العلوم والفنون لا ينعدم وجوده بينهم حسب بل انهم يعتبرون تعلمها خرافة ومضيعة للوقت(١٦) ، في

---

(١٦) يبدو ان جهل الرحالة بالمدنية الاسلامية الزاهرة وسطوع انوارها في أوربا التي كانت غارقة في الظلام ؛ هو الذي جره الى هذا القول المهجور ففي الوقت الذي كانت تقوم فيه الجامعات الاسلامية في الاندلس والمغرب ومصر والعراق وغيرها من ديار الاسلام كان حتى ملوك اوربا في ذلك الوقت لا يعرفون كتابة اسمائهم وذلك بشهادة المنصفين من مؤرخي الغرب . والحقيقة ان المدنية الاسلامية كانت المصدر الاول للحضارة الغربية الراهنة وان أوربا لم تستيقظ من سباتها العميق الا بنفحات الحضارة الاسلامية التي عمت معظم أرجائها .

حين نراهم يتعشقون الاغاني القديمة والاشعار التي تتحدث عن اخلاق سلاطينهم القدامى وعظمتهم وغيرهم من الابطال • كما انهم يحبون القصص الخيالية التي تحط من منزلة الامم الاجنبية او اية امة معادية لهم • وهكذا تجدهم ينهمكون في انشاد الاغاني والاستماع الى من ينشدونها والتي يكررونها كل يوم باساليب خاصة ، خارج المدينة و في الاماكن المخصوصة التي يمارسون فيها الكثير من المتع الاخرى كالغناء والرقص والنط وما شاكل ذلك ولهذا نراهم يقبلون على قراءة مثل هذه الاشياء التافهة بدلا من العلوم والفنون التي لا يأبهون بها ولا بامثالها من الاعمال النبيلة ، من امثال طبع الكتب التي يتعلمونها والتي يتشوق اليها الكتبة جدا ، مس يقل عددهم او يزيد في مدينة عن اخرى • ذلك لان امثال هؤلاء الكتاب يحصلون على قدر من النقود كل يوم لقاء ما ينسخونه من كتابات النبي « محمد » فيجنون من وراء ذلك اموالا طيبة حيث تشاهد هؤلاء الكتاب بعمائمهم الكبيرة التي تميزهم عن الاخرين(١٧) •

والورق الذي يكتب عليه هؤلاء الكتاب صقيل عادة • وهم يكتبون حروفهم بكلمات قليلة • وحين يرسمون هذه الحروف في أعلى الورقة يطوونها بحيث لا يزيد عرضها عن بوصة واحدة ومن ثم يملأون الشقوق الخارجية في الورقة بالشمع من الداخل ، ويلصقون الواحدة بالاخرى بلصاق يستعملونه لهذا الغرض ويختمون اسماءهم عليها باختامهم التي تدهن بالحبر فلا يبقى فيها اي بياض سوى الحروف •

وتصنع هذه الاختام بصفة عامة في دمشق التي يوجد فيها احسن الفنانين

---

(١٧) ان ما قصده الرحالة بعبارة « كتابات النبي محمد » هو الاحاديث النبوية الشريفة التي تتم الاحكام الواردة في القرآن الكريم وتعد كالقرآن ذاته ، ركنا من اركان الشريعة الاسلامية السمحاء .

في هذه الصنعة • وهم يصنعونها من الحديد ولا يكتبون فيها شيئا سوى اسمائهم •

وهم لا يستعملون الورق الذي سبق لهم ان كتبوا عليه على الرغم من توفره بكميات كبيرة • كما انهم لا يصنعون اي شيء فيه ولا يستعملونه لاي غرض • ومع ذلك فاذا ما وجدوا شيئا من هذا الورق المكتوب في الشارع فانهم لا يتركونه ملقى هناك بل يلتقطونه ويطوونه بعناية ثم يضعونه في غار يصادفونه مخافة ان يكون اسم الله مذكورا في الكتابة المدونة عليه •

وبدلا من هذه الاوراق المكتوبة يستعمل العطارون اوراق شجر « القلقاس » التي يحتفظون بمخازن كبيرة منها •

الفصل السادس

عظم المعاملات التجارية في مدينة حلب . جملـــة انواع من المأكـولات والمشروبات فيها الولائم والطريقة الخاصة التي يتناولون بها وجبات الطعام

بعد ان تناولت وصف الابنية والاوضاع الجارية في مدينة حلب العظيمة الفخمة ، وكذلك عوائد الاتراك واخلاقهم ودوائرهم ، على قدر ما استطعت ان الم به ، لم يعد امامي ــ قبل ان اغادرها ــ الا التحدث عن المعاملات التجارية التي تجري كل يوم فيها ، وهي معاملات واسعة النطاق بشكل يدعو الــى الاعجاب ذلك لان قوافل عديدة من البغال والحمير ، بل واكثرها من الابل ، تتدفق كل يوم على المدينة من كل الاقطار الاجنبية ، من الاناضول وارمينيا ومصر والهند وغيرها ، وهي مثقلة بالاحمال . ولذلك ترى الشوارع مزدحمة بحيث يصعب مرور القافلة منها تلو الاخرى .

ولكل من هذه الاقطار او الامم خان خاص بها وهو يحمل عادة اســم الشخص الذي بناه من امثال « خان العجمي » و « خان وزوادا » و « خان الابرق وسبيل » و « خان محمد باشا » وغيرهما من الخانات التي يستعملونها بمثابة فنادق ، ينزلونها ويعيشون فيها ويعرضون فيها سلعهم للبيع حسبما يشاؤون . ولذلك نجد بين بقية افراد هــذه الامم جماعـــة من الفرنسيين والايطاليين وغيرهم ممن لهم ابنيتهم الخاصة بهم والتي مرت الاشارة عنها قبلا مما يسمونه بالفنادق . ويعيش البعض من هؤلاء سوية في هذه الفنادق بينما يسكن غيرهم ، ولاسيما الايطاليون المتزوجون ، في بيوت اخرى غيرها حيث يقيم عدة انفار منهم في كل بيت من هذه البيوت ويعيشون في اقتصاد مثلما يفعل الاتراك ذلك .

ويستطيع المرء ان يعثر في هذه الخانات على جملة من انواع السلع الغريبة . مثال ذلك انك قد تجد في « خان العجمي » كل انواع المنسوجات القطنية كالمناديل اليدوية وعصب الرأس والاحزمة التي يشدون بها اوساطهم والطرحات على رؤوسهم اضافة الى انواع اخرى من المنسوجات يسميها العرب « موصلي » نسبة الى بلد « الموصل »(١) الذي يجلبونها منه ، والذي يقع في بلاد ما بين النهرين ، وهذه الاقمشة هي التي نسميها نحن الاوربيين «موسلين» والتي يصنع السادة الاتراك البستهم منها ايام الصيف .

وهناك نوع من السجاد الفاخر المحلى بالالوان الزاهية ، وهو من النوع الذي نستورده نحن الى بلادنا احيانا .

وهم يجلبون من بلاد فارس في اكياس من الجلد كميات كبيرة من « المن » يسمونه « طرنجبيل »(٢) ويجمعونه من نبتة يسميها العرب « عاقول » و « الحاجى »(٣) . وهذا هو السبب الذي يجعله يمتزج مع اشواك صغيرة وقش احمر اللون . ولهذا المن شيء من الحبوب احيانا على غرار حبات « الكزبرة » عندنا . ولذلك فهو في كل مظاهره يشبه «المن» الموجود في بلادنا والذي نجنيه من شجر اللاركس(٤) كما ان هذا المن يشبه المن الذي تناوله الاسرائيليون الذي وفره الله فكان على شكل معجزة خارقة للطبيعة(٥) .

---

(١) الموصلي وهو ما يعرف حتى الان في اوربا باسم موسيليني ، نسبة الى الموصل وقد سميت عدة عوائل في اوربا كانت تتاجر بهذا القماش الموصلي باسم « موسوليني » ومنها عائلة دكتاتور ايطاليا السابق موسوليني . Mosselini

(٢) طرنجبيل Trunschibil وهي تسمية فارسية

(٣) عاقول Agul والحاجي Alhagi

(٤) لاركس Larix

(٥) يظهر الرحالة تاثره العظيم باقوال التوراة في كل ما يتحدث عنه ويعتبر وجود « المن » من المعجزات الخارقة للطبيعة . في حين ان هذا المن

←

اما المن الذي يسقط على الاشواك فقد اكده كل من « سيرابيو » و « ابن سينا » في الفصول التي تناولوا فيها هذه المادة من مؤلفاتهم وكانوا يسمونها « تسريابين » و « طرنجبيين »[٦] .

كذلك عرفه العالم النباتي الشهير « كارلوس كلوفيوس » واكده في كتابه « موجز النباتات الهندية » .

ولقد عثرت في اطراف حلب على بعض هذه الشجيرات التي يبلغ ارتفاعها حوالي ذراع وتتفرع منها عدة سيقان مدورة تنقسم بدورها الى عدة اقسام كالزهرة . ويستخدم الاهلون هذه الشجيرات للتنظيف والتعقيم ، اذ انهم يأخذون كمية منها يغلونها بالماء .

وما خلا ذلك فان لديهم نوعا اخر من المن شبيه بالنوع السابق . وهذا النوع يرسل الى بلادنا من « كالبريا »[٧] عن طريق البندقية .

وفضلا عن ذلك يعرض الاهلون للبيع احجارا يسميها العرب «يازور»[٨] وهي على اشكال مستطيلة ومدورة صقيلة وذات لون اخضر غامق . ويحصل الفرس على هذه الاحجار من نوع خاص من الصخور وهم يستعلون مسحوقه ضد المساحيق السامة والمميتة .

يسقط في اصقاع كثيرة من العالم وفي القسم الشمالي من العراق وهو ما يعرف ب (من السماء) .
اما اليهود فقد عثروا على هذه الحلوى وعلى طائر السلوى ، أثناء متاهاتهم في صحراء سيناء حين خرج بهم موسى من مصر هربا من الفراعنة ولم يكن عثورهم على المن والسلوى معجزة لموسى ولا نعمة خصهم الله وحدهم دون غيرهم كما يزعمون ذلك .

(٦) Trangibine

(٧) احد اقاليم ايطاليا .

(٨) كتبه المؤلف باسم بازورا Bazora والذي اعتقده انه اراد بذلك حجر اليازور او اللازورد .

وهناك انواع اخرى تشبه هذه الاحجار في الشكل والصورة لكنها ليست مثلها في الجودة ولذلك ينبغي للمرء ان يكون في منتهى الحذر كيلا يغش بها .

على ان هناك بعض الدلائل التي يمكن بها معرفة جودة هذه الاحجار من عدمها مما اطلعني عليه احد التجار . وذلك بأن تأخذ شيئا من الجير وتمزجه بالماء مع شيء من مسحوق هذه الاحجار وتصنع منه مزيجا . فاذا ما جف المزيج اطحنه . فان بقي لونه ابيض كان ذلك مغشوشا . اما اذا تحول الى لون اصفر دل ذلك على جودته .

وهذا النوع يؤتى به من بلاد فارس . كذلك يجلب الفرس الى تركيا احجارا لا توجد الا في بلادهم . ويحتفظ ملكهم الصفوي[٩] بخزائن كبيرة منها وقد صدرت في الاونة الاخيرة كميات كبيرة من هذه الاحجار الى بلادنا واذ ذاك هبط سعرها في الحال . وما ان سمع ملك فارس ذلك حتى حظر مباشرة اصدار أي منها واستمر الحظر سبع سنوات . ولذلك فان من المحتمل ان تكون اسعار هذه الاحجار قد عادت الان الى مستواها السابق لان مدة السبع سنوات قد انتهت الان كما اخبرت بذلك .

كذلك يعرض الاهلون للبيع اقراطا عديدة من اللالىء الشرقية الغالية الثمن التي يعثر على القسم الاعظم منها في « البحار العربية »[١٠] وعلى مقربة

---

(٩) يطلق الاوربيون على العائلة الصفوية التي حكمت ايران والعراق من سنة ٩٠٧ الى ١١٤٨هـ (١٥٠٢ — ١٧٣٦م) اسم صوفي Sophy وهو الاسم الشائع لها في كل المدونات الغربية عنهم .

(١٠) وردت عبارة « البحار العربية » لدى المؤلف باسم « البحار الفارسية » وهي التسمية المغلوطة التي سار عليها قدامى المؤرخين وغيرهم من مؤرخي الغرب حتى الوقت الحاضر . والمقصود بالبحار العربية هنا هو الخليج العربي

من جزيرة يسمونها « البحرين »[١١] لا تبعد في موقعها كثيرا عن المدينة التجارة التركية « البصرة »[١٢] .

وهم يجلبون الى هنا كثيرا من الافاويه من امثال « الدار صيني »[١٣] والفلفل والهيل[١٤] وجوز الطيب[١٥] وقشر جوز الطيب[١٦] وغيرها من الجذور الصينية التي يستعملها العرب بوفرة ، وجذور ثمينة يسمونها « الراوند »[١٧] بالاضافة الى الاقداح والصحون الصينية ايضا .

يضاف الى هذا انهم يعرضون للبيع عدة انوع من الاحجار الكريمة من امثال العقيق والياقوت ، والياقوت الازرق والماس وكذلك اغلى انواع المسك الذي يتألف من حبات صغيرة .

ويخفي التجار هذه الاحجار الثمينة في قوافل كبيرة ترد من الهند وهم يأتون بها سرا كيلا يدفعوا عنها الرسوم الكمركية . ذلك لان الباشوات وامراء الالوية وغيرهم لا يتورعون عن سلب هذه الجواهر من التجار اذا ما عثروا عليها في الطرق الخارجية .

اتخلى الان عن متابعة الحديث عن هذه المواد والادوية الاخرى وكذلك البضائع التي يجلبها التجار الى هنا من البلاد الاجنبية كل يوم ثم يصدرونها الى بلاد اخرى ، اذ ليس من مهمتي التحدث عنها .

---

(١١) ذكرها المؤلف باسم « بحاري » Bahare .
(١٢) الاسم الذي عرفت به « البصرة » لدى الاوربيين هو باتوزورا وبلصره Balsora وقد اوردها المؤلف بهذين الاسمين
(١٣) Cinnanon
(١٤) Cardamom
(١٥) Nutmeg
(١٦) Mace
(١٧) Rhubarb

من بين المواد التي يجلبها التجار من الهند بعض القصب الطويل الصلب الممتلىء بمادة لزجة ذات لون اصفر • ويكون هذا القصب على نوعين قصير وطويل • فاما الطويل فهو اصلب ويستعمله الشيوخ والعرج بدلا من العكاكيز اما النوع الاخر فيصنعون منه القسي والسهام حيث نجد الاتراك يغلفونها باغلفة حريرية مختلفة الالوان ويتباهون بها كثيرا •

كذلك توجد في الحوانيت انواع اخرى من القصب القصير المجوف الصقيل ذي الالوان البنية والحمراء • وهذه الانواع يستعملها الاتراك والمسلمون وغيرهم من ابناء الاقطار الشرقية لغرض الكتابة بها ، ذلك انهم لا يستعملون ريش الاوز لهذا الغرض •

وفضلا عن ذلك يوجد نوع من العصي يجلبها الحجاج معهم من « مكة » حين يذهبون لزيارة قبر نبيهم « محمد » • واهل تلك البلاد ولا سيما العرب يحملونها معهم على ظهور الخيل بدلا من الرماح لانها قوية وطويلة وخفيفة وفي الوقت نفسه صلبة يستطيعون بها مقارعة الاعداء ، ذلك انهم يمسكون بها من الوسط بقوة ، ويرفعونها عاليا ثم يقذفون بها اعداءهم فتتغلغل في الاجسام التي تصيبها عميقا بفعل القطع الحديدية الحادة التي تثبت بها من خلف ومن امام •

والى هذه الرماح اشار « ثيوفراستس »[18] في الفصل الحادي عشر من الجزء الرابع من كتابه • كذلك اشار اليها « بليني »[19] ايضا في الفصل السادس والثلاثين من الجزء السادس عشر من كتابه •

(١٨) ثيوفراستس Theophrastus مؤرخ يوناني شهير ولد في حدود سنة ٣٠٠ ق.م • واشتهر بكتابه المهم « تأريخ النبات » الذي كان من المراجع الرئيسة في اوربا حتى العصور المتأخرة •

(١٩) Pliny هو بليني الكبير (٢٣ – ٧٩م) مؤرخ وسياسي روماني شهير وعالم في النبات ايضا شارك في الحروب الرومانية في المانيا واسبانيا وبلاد الغال ومات في مدينة « بومبي » التي غطاها بركان فيزوف عند ثورانه في آب سنة ٧٩م ترك كتابا عن التأريخ الطبيعي يقع في اثنين وعشرين جزءا تحدث فيه عن الطبيعة والتأريخ وغيرهما •

ولم نشاهد في بلادنا الاوربية سوى قلة من هذه الرماح ، ذلك لانه يحظر على المسيحيين حملها وانهم يتعرضون لعقوبات شديدة ان هم اقدموا على ذلك ، وكذلك ان حملوا بقية انواع الاسلحة الاخرى التي تستخدم اثناء الحرب خارج البلاد . فاذا ما عثر على اي منهم يحمل هذا السلاح تعرض لمصاعب ومخاطر شديدة . وهذا ما وقع لواحد منهم في وقتي . فبعد ان عثر على سيف عربي معه وجهت اليه تهمة شديدة لقاء ذلك وحكم عليه بغرامة مقدارها سبعون دوكة فرض عليه ان يسددها في خلال يومين فان لم يفعل ذلك ختنوه واعتبروه تركيا .

وما خلا الخانات التي مرت الاشارة عنها قبلا ، هناك حوانيت كثيرة داخل المدينة وخارجها تباع فيها مختلف اصناف السلع الكبيرة والصغيرة ، الجديدة والقديمة وما سواها (٢٠).

ولدى الاهلين « بورصة » يسمونها « السوق » وتقع في وسط المدينة ، وهي اكبر من بورصة « فرايبرغ » في « بافاريا » تتوفر فيها عدة منعطفات يختص كل منعطف منها بطائفة من اصحاب الحرف والصناعات ، من امثال العطارين والبزازين وتجار السلع والاقمشة الصوفية الرفيعة وكل انواع المنسوجات الحريرية والقطنية ، ناهيك عن اصناف غالية من الفراء وعلى الاخص جلود الحيوانات البرية التي توجد وفرة كبيرة منها في هذه البلدان .

وفي المدينة عدد من الجوهريين الذين يبيعون متباين انواع المجوهرات والاحجار الكريمة واللالىء وما عداها . يضاف الى هذا وجود اصناف اخرى من اصحاب الحرف كصانعي الاحذية والخياطين والنحاسين والحدادين وما عداهم ممن لهم حوانيت في السوق يمارسون فيها اعمالهم . ولكن الفئة

---

(٢٠) ذكر المؤلف هذه الاوصاف بالفاظها العربية فقال كبير Quibir وصغير Sougir وجديد Gedith وعتيق Atich

الغالبة بينهم هم صاغة الفضة والذهب وصانعي الاقفال الذين لا يقل عددهم عن عدد امثالهم في بلادنا .

وهناك الخراطون وصانعو السهام الذين يصنعون القسي والرماح والذين يحتفظون الى جانب حوانيتهم بمحلات صغيرة تمارس فيها اعمال الرمي والتهديف يستطيع كل انسان يمر بها ان يجرب حظه في التهديف او ان يختبر سهمه قبل ان يشتريه .

وبعض هذه السهام بسيطة احيانا لكن بعضا منها يكون مكفتا بالعاج وقرون العظام وغيرها مما يجعل اسعارها متباينة .

ويضع رماة النبال والسهام حلقة في الابهام الايسر - مثلما يفعل النجار عندنا ذلك اذ يضعون اختامهم في الابهام الايسر - حين يريدون اطلاق السهام . وتكون هذه الحلقات مصنوعة من الخشب او القرون والفضة ، ومرصعة بالاحجار الكريمة في بعض الاحايين .

وما عدا هؤلاء فانك تجد في الاسواق الكبيرة عددا من « الحلاقين الجراحين »[٢١]. فاذا لم يجد هؤلاء شخصا يحلقون رأسه اخذوا يطوفون في الشوارع وهم يحملون معهم ادواتهم مع قطعة من الصابون معدة للعمل . فاذا ما عثروا على شخص يبغي الحلاقة لا يعودون به الى حوانيتهم ليحلقوا رأسه بل يمارسون هذه العملية في الشارع او في أي خان قريب منهم ، وعندئذ يمسحون شعر رأسه بالصابون ثم يحلقونه كله ولا يبقون منه سوى خصلة طويلة تتدلى من وراء على ظهره .

---

(٢١) اوردهم المؤلف بهذه الصفة « الحلاقون الجراحون » Barbar Surgeons ويبدو من هذا ان الحلاقين حتى في اوربا كانوا يمارسون بعض العمليات الجراحية وقد ظلت هذه صفتهم في الشرق الى ما قبل ربع قرن تقريبا وربما لا تزال باقية في بعض القرى والارياف حتى الان .

وفي المدينة اماكن لبيع الرقيق من كلا الجنسين ، كبارا وصغارا ، يباعون باسعار مرتفعة او منخفضة تبعا لقوتهم وجمالهم وما شاكل ذلك .

ولم اشاهد في هذه البلاد اية عجلات او مركبات ويبدو ان هذه ليست مستعملة لديهم . كما انني لم اعثر في هذه المدينة الكبيرة على صانع اسلحة يستطيع ان يصلح اي عطب يحدث في مغلق البندقية ، على الرغم من وفرة التجارة التي يؤتى بها يوميا الى هذه الاسواق ، حيث تستطيع ان تجد فيها ، وفي كل اوقات النهار ، عددا كبيرا من ابناء مختلف الامم يطوفون فيها جيئة وذهابا ويسببون الازدحام في هذه الاسواق حتى لكأنك في معرض من المعارض .

وغالبا ما تجد بين هؤلاء المتجولين عددا من الاتراك السكارى الذين يتدافعون مع الناس الذين لا يفسحون الطريق امامهم ولا سيما ان كان اولئك الناس من المسيحين (٢٢). ولهذا ترى المسيحيين لا يخشون مثل هؤلاء السكارى حسب بل يعدون انفسهم لمثل ذلك مسبقا فاذا ما ابصروا احدهم ــ وهم لا يسيرون الا وحراسهم معهم ــ استداروا الى جهة اخرى او الى واجهة احد الحوانيت . وكثيرا ما يحدث ان يحنى بعض الاتراك ظهورهم تجاه الحوانيت فان مر بهم احد المسيحيين مدوا واحدة من ارجلهم امامه فيسقط واذ ذاك يهزأون به ويضحكون عليه . على ان بعض المسيحيين ما ان يشاهدوا ذلك حتى يرفسوا الرجل الاخرى التي استند عليها التركي ويدعونه يسقط على الارض .

---

(٢٢) هذا ادعاء باطل لا اساس له من الصحة اطلاقا . ذلك لان احدا أيا كان من الناس لا يجرأ في تلك الايام على ان يتظاهر بالسكر ، وتناول الخمور بله ان يسير في الشوارع سكرانا ولقد انتشرت المسكرات في البلدان الاسلامية بتسلط المستعمرين الانكليز والفرنسيين والايطاليين والهولنديين وغيرهم عليها اذ سارع هؤلاء المستعمرون الى افتتاح الحانات علانية فاصبح تناول المسكرات يجري علانية كما هو ظاهر الان في العراق وفي بلدان اسلامية اخرى . كما انه لم يكن للمسحيين في ذلك الوقت زي خاص يعرفون به حتى يتعمد الاتراك مضايقتهم كما ادعى المؤلف ذلك

ومن المعتاد ايضا ان يحاول الاتراك اختبار المسيحيين لمعرفة حقيقة معدنهم وما اذا كانوا من الشجعان ام لا ، للتأكد من ذلك قبل التحرش بهم حيث يواجهونهم اول الامر بكلمات خشنة ، فاذا ما وجدوهم يشعرون بالخوف سخروا منهم واغتصبوا ما عندهم . اما اذا ما ابدوا مقاومة سامحوهم في الحال وعدوهم من الشجعان اللائقين لدخول غمار الحروب .

كذلك تجد بين هذا الحشد جملة من المحافظين على النظام وهم «السقاة» وهؤلاء يكونون عادة من الحجاج الذين حجوا الى « مكة » [٢٣] . فهؤلاء السقاة يحملون ماء الشرب في اوعية جلدية ويتصدقون به على كل من يحتاج اليه بما في ذلك المسيحيون .

ولما كان محظورا في القرآن على المسلمين شرب الخمور ، فانك تجد الكثيرين من هؤلاء السقاة يتمسكون بعوائد خاصة . فتراهم يتنقلون ـ بدافع من ايمانهم ـ طيلة النهار بين الناس يقدمون الماء للعطاش منهم بدافع من المحبة والاحسان ويحمل الواحد منهم في احدى يديه قدحا يصب فيه الماء من الاوعية الجلدية التي يحملونها ويضعون فيها عادة العقيق الابيض [٢٤] وحجر اليشب [٢٥] وغيرهما . كما يضعون في بعض الاحيان فواكه لذيذة كيما يظل الماء عذبا ومنعشا وحين يناولونك شيئا من هذا الماء لتشربه ، يقدمون اليك مرآة لتنظر الى نفسك فيها ولتتذكر بانك هالك وانك ميت لا محالة !

وهم لا يطلبون ازاء هذه الخدمة اي شيء منك . اما اذا ما منحتهم شيئا ما تقبلوه منك شاكرين ، ورشوا على وجهك ولحيتك من ماء يحملونه في اقداح زجاجية مطوقة بسلاسل نحاسية ، اظهارا بهذا مدى شكرانهم لك .

---

(٢٣) يبدو ان المؤلف قد فهم من مناداة الناس للساقي بلقب « الحاج » ان هؤلاء من الحجاج حقا . والواقع انهم ليسوا كذلك ابدا فلربما كانت كلمة حاج تطلق على كل شخص كما تطلق الان كلمة « سيد » مثلا .

(٢٤) العقيق الابيض Chalcedonick

(٢٥) اليشب Jaspir

وكذلك يعتبر الاتراك والعرب ان من المودة والاحسان ان يضعوا امام دورهم حبابا مليء بالماء العذب طيلة النهار بحيث يستطيع اي مار او ظامىء ان يطفيء ظمأه من مائها ، اذ يعلقون بهذه الحباب كؤوسا لتناول الماء بها فاذا ما اقبل احد الناس الى هذه الحباب وشاهده الاخرون ، لحقوا به ورووا ظمأهم منها • ولذلك تجد في الغالب حشدا من الناس عند هذه الحباب •

اما ان فكرت في تناول طعام او شراب فانك تجد عادة حانوتا مفتوحا لهذا الغرض تجلس فيه على الارض او على السجاد وتتناول ما تريده من طعام وشراب •

من بين الاشربة التي يتعاطونها في هذه البلاد ، شراب حسن جدا يسمونه « قهوة » اسود اللون كالحبر تماما ، وهو مفيد جدا للمرض ولا سيما امراض المعـدة !•

والقوم يتناولون هذا الشراب في باكر الصباح وفي اماكن مفتوحة امام كل الناس دون ادنى خوف او اعتبار • وهم يصبونه في اقداح صينية وهو جد ساخن فيرفعون القدح الى شفاهم لكنهم لا يتناولون منه سوى شفة واحدة بين اونة واخرى • وتدار عليهم هذه الاقداح حين يجلسون وهم يضعون في هذا الماء ثمرة يدعونها « البن »[٢٦] هي في حجمها وشكلها ولونها تشبه ثمرة التوت ، ولها قشرتان رقيقتان تحيطان بها • وقد انبأوني عنها بانهم يجلبونها من الهند • وحيث ان كل ثمرة من هذه تحوي حبتين صفراوين ذات قشرتين مميزتين لها ، فانها في شكلها وصفتها واسمها تتطابق مع الثمرة التي ذكرها ابن سينا باسم « باتتشو »[٢٧] والرازي باسم « باتنشا »[٢٨] ولذلك اعتبرها واحدة الى ان اطلع على حقيقة امرها من العارفين بها •

---

(٢٦) ذكره المؤلف باسم بنرو Bunru

(٢٧) Bancho

(٢٨) Bancha

وهذا الشراب كثير الشيوع جدا لدى القوم ، ويوجد عدد كبير من يتعاطون بيعه . مثلما يبيع الاخرون التوت في الاسواق . وهم يعدونه من المواد الغالية مثلما نعد نحن في بلادنا الخمر المصنوعة من الشجر او التي يجري تحضيرها من اعشاب وعقاقير اخرى .

ومع ذلك فان القوم يفضلون الخمر لو سمحت لهم شريعتهم بتناولها ، كما شاهدنا ذلك في عهد السلطان (سليم)(٢٩)الذي سمح لقومه بتناول الخمور ولذلك اخذوا يلتقون يوميا في حانات الشراب ولا يكتفي الواحد منهم بتناول قدحين او ثلاثة من الخمر غير الممزوجة بالماء ، بل واربعة او خمسة اقداح ايضا وبشوق كبير طالما كانت مثل هذه الخمور تنقل اليهم من « البندقية » بسرعة .

وكما شاهدتهم انا نفسي فانهم لا يتناولون لقمة او لقمتين من طعام عند تعاطي الشراب ، وهذا ما يجعلهم خشني الطباع بشكل يفوقون به بقية الامم .

ولكن ما ان توفي « سليم » وخلفه ابنه « مراد »(٣٠) في الحكم حتى اصدر اوامره بحظر شرب الخمور في اوائل حكمه مباشرة وراح يطارد من يشربونها بمنتهى القسوة الى درجة ان اي فرد تشم منه رائحة الخمر يسجن في الحال ، ويفصل من عمله ، وتفرض عليه غرامة ثقيلة طبقا لحالته المالية ، بالاضافة الى جلده عدة جلدات على قفا قدميه .

وقد حدث ، عندما فرض هذا الحظر ، ان كان باشا حلب خارجا من دائرته في احد الايام فشاهد احد السكارى في الساحة وما ان تأكد من ذلك حتى استل سيفه وقطع به رأس ذلك السكران وتركه جثة هامدة في مكانه .

---

(٢٩) السلطان سليم Selyme هو سليم الثاني بن السلطان سليمان الاول ولد في السادس من شهر رجب سنة ٩٣٠ هـ وتولى الحكم في سنة ٩٤٧ هـ وتوفي في ٢٧ شعبان ٩٨٢ هـ – ١٥٧٤ م ودفن على مقربة من جامع ايا صوفيا .

(٣٠) مراد Amurath هو السلطان مراد الثالث بن سليم الثاني ولد في ٥ جمادي الاول سنة ٩٥٣هـ – ١٥٤٦م وتولى الحكم سنة ٩٨٢هـ وتوفي في الثامن من جمادي الاولى سنة ١٠٠٣هـ (١٥٩٤م) ودفن في قبر ابيه.

ولكن على الرغم من كل هذه الصرامة وشدة الحظر ، فان القوم ــ ولا سيما الكفرة منهم الذين تعودوا تناول المسكرات ــ قد اعتادوا في ايام الصيف ان يحملوا معهم ، مثلما يفعل النسل ذلك ، كميات كبيرة من الخمور سرا ، وان يوجدوا لهم بعض الاماكن التي يجتمعون فيها ليلا ويعكفون على تنـــاول المسكرات حتى تمتلئ بها بطونهم ثم يمضون الليل كله في تلك الاماكن كيلا تشم منهم رائحة الخمر في اليوم التالي •

وفي الوقت الذي حظر فيه تناول الخمور في هذه الاقطار كنا ، نحــن المسيحيين ، نتزود بها تزويدا حسنا وباسعار رخيصة الى ان جاء الوقت الذي سمح فيه للاتراك بتعاطيها مرة اخرى •

والخمرة التي يتناولها الاتراك حمراء اللون جيدة ومنعشة وهم يضعونها في زقاق ويأتون بها الى « حلب » من اماكن عديدة ، ولكن بصفة رئيسة ، من مدينة « نصيبين »[٣١] الشهيرة التي تقع على مسيرة يومين عن حدود ارمينيا• واستعمال الزقاق في حفظ الخمور ما يزال شائعا كما كان عليه في العصور السابقة ، وكما ورد عن « المسيح » في انجيل « متي »[٣٢] حيث جاء في الآية التاسعة عشرة من الاصحاح التاسع قولها « يجب ان لا يضع المرء فيها خمــرة جديدة » • ولذلك رأينا المسيحيين قد ابيح لهم تناول الخمور وبيعها وشرائها بالاضافة الى زرع الكروم في القرى التي يمتلكونها •

اما الاتراك الذين تحرم عليهم دياناتهم تناول الخمور ، فانهم لا يهتمون كثيرا بزراعة الكروم ، واذا ما فعلوا ذلك فانهم يعصرون العنب بعدة وسائل ،

---

(٣١) نصيبين Nisibis, Nisis من المدن القديمة في العراق تقع على نهر جغجغ احد روافد نهر الخابور ورد في التوراة ان « نمرود » ملك اشور هو الذي بناها واحاطها بالاسوار . تقع اليوم ضمن اراضي تركيا

(٣٢) القديس متي St. Mathew احد تلامذة السيد المسيح (ع) والذين رووا عنه اقواله وقد وضع واحدا من الاناجيل الاربعة التي جمعت فيهــا اقوال المســيح

ويصنعون منه الزبيب ، ولا سيما الناس الذين يعيشون في دمشق وضواحيها ، بينما يعمد اخرون الى غلي الاعناب ليصنعوا منها الدبس • ونخص من هؤلاء اولئك الذين يعيشون في مدينة « عينتاب » (٣٣) التي تقع بين « بيره » (٣٤) ونصيبين • وهم يصنعون نوعين من هذا الدبس احدهما ثخين والثاني خفيف • والنوع الاول افضل من الثاني وهم يضعونه في « براميل » يبعثون بها الى اقطارنا الاوربية •

اما النوع الثاني فانهم يمزجونه ويقدمونه بدلا من « الجلاب » (٣٥) كذلك فانهم يضعونه احيانا في اقداح صغيرة يغمسون فيه خبزهم ويأكلونه مثلما يفعلون ذلك بالنسبة الى الدبس •

وما خلا ذلك فلدى الاهلين مرطبات حلوة اخرى يعدونها من اثمار التوت الاحمر الذي يغلونه مع قليل من الدبس الذي يجلبون كميات كبيرة منه من جبال لبنان •

ومن المرطبات الاخرى لديهم نوع خاص يسمونه « شربت » يستخلصونه من الدبس ، وهو اشبه بالمزيج المخمر عندنا •

ولديهم شراب اخر يصنعونه من نقيع الشعير والحنطة وحين يتناوله الاتراك يصبحون ذوي رقة ونشوة اذ ان فعله فيهم اشبه بفعل الجعة التي يتناولها شباننا ، فهم يغنون ويرقصون على اصوات المزامير والطبول والابواق التي يعزف عليهم موسيقيوهم كل صباح عند انتشار الحراس •

---

(٣٣) عينتاب Andeb من المدن القديمة في العراق ايضا • تقع على الطريق بين نصيبين وحلب وهي من اراضي تركيا في الوقت الحاضر

(٣٤) بيرا Birtha وتعرف باسم بيرجك هي مدينة برثا القديمة تقع على نهر الفرات وعندها احد المعابر الرئيسية لهذا النهر عرف لدى الاشوريين باسم « زجما »

(٣٥) الجلاب Julep هو اي نوع من المرطبات المبردة التي تستعمل ايام الصيف ويسميه العرب باسم البراد •

وكل هذه المرطبات تباع بوفرة في اسواقهم الكبيرة حيث تجد السلال ملىء بالثلج والجليد طيلة ايام الصيف ولذلك تراهم يضعون قطعاً من هذا الثلج في المرطبات التي يبيعونها فتغدو باردة تصطك من شربها الاسنان •

ارى فيما ذكرته الكفاية عن الخمور والاشربة واعود الى الطعام فاقول ، ان الخبز الذي يتناولونه هنا جيد ومغذ وابيض اللون ، لاسيما في مدينة حلب مما لا يوجد مثيل له في كل انحاء تركيا ، ولذلك فهم يصنعون عدة اشكال من هذا الخبز يمزجون في البعض منه صفار البيض ، بينما يمزجون في البعض الاخر عدة حبوب كالسمسم والكزبرة والزعفران وغيرها •

واللحوم التي يتناولونها رخيصة ومن نوع جيد وذلك نتيجة للاعشاب الثمينة التي تنمو في بلادهم ولا سيما في جبال « طوروس »(٣٦) التي تمتد الى اقصى ناحية في الشرق ، اذ انهم يجلبون من هناك قطعان كثيرة من المواشي كالخراف والنعاج ذوات الاليات السمينة التي تزن الواحدة منها عدة باونات •• ولديهم الى جانب ذلك عدد وفير من الماعز التي يسوقونها باعداد كبيرة كل يوم عبر المدينة ويبيعون البانها الدافئة في عرض الشارع •

ومن هذه الماعز نوع صغير الحجم ذو اذان طويلة يبلغ طول الاذن الواحدة زهاء قدمين واذا ما تحركت عاقتها اذناها عن الحركة •

ولا يعوز الاهلين اي من الحيوانات الاخرى • ويذبح الجزارون هذه الحيوانات خارج المدينة في مجازر خاصة ولذلك تكثر الكلاب عند هذه المجازر ، ويجلب القوم اعدادا كبيرة من صغارها يربونها فتكون مفترسة يطلقونها اثناء الليل للصيد ، كما قيل لي ذلك ، وهي تشبه الذئاب في بلادنا •

---

(٣٦) جبل طوروس Tauri الذي يمتد عبر الانضول في امتداده الى الاراضي السورية واللبنانية وهو ما عرف لدى البلدانيين العرب باسم طور عابدين •

ولا يقدم الاتراك على قتل الكلاب بل انهم على العكس من ذلك يحملون صغارها ويطعمونها ويربونها ، ويعتقدون انهم بهذا العمل يقدمون حسنة مقبولة لدى الله العظيم مثل غيرهم من الطوائف الاخرى التي تعيش في الهند وتعرف باسم « البانيان » (٣٧) التي تعنى بتربية الطيور مثل القطط والكلاب على حد سواء .

وكلاب الصيد هنا شبيهة بما لدينا في بلادنا منها من ناحية الشكل والضخامة ، ولذلك يقول « بليني » ان الذئاب في مصر اصغر حجما من الذئاب التي تعيش في الانحاء الشمالية .

ونظرا لعدم وجود منازل للمسافرين على الطرق الخارجية فان كل مسافر يحمل معه امتعته وزاده . ولذلك نجد عددا كبيرا من مختلف المخابز في الاسواق وكل انواع المأكولات النظيفة من امثال لحوم الاغنام والدجاج ، وانواع الحساء والمرق وغيرها ، يستطيع المرء ان يشتري منها ما يشاء تبعا لطاقته المالية .

والطعام الشائع جدا هنا هو الرز وهم يطبخونه الى ان ينضج ويغدو لينا . وهناك انواع من الاطعمة الجاهزة تراها في قدور من النحاس لدى اصحاب هذه الحوانيت .

وهناك نوع شائع جدا بينهم يصنعونه من الحنطة والشعير ويطبخونه ، بعد جرشه بالمجرشه ، مع الحليب او بدونه ، في وعاء سميك وهم يسمونه

---

(٣٧) طائفة البانيا Banian من الطوائف الهندوكية في الهند مفرطة في التعصب لشعائرها الدينية .

« بنهور »[٣٨] ولكن « ديوسقريدس »[٣٩] اشار اليـــه في الفصل الثالث والثمانين من الجزء الثاني من كتابه باسم (كرمنون)[٤٠] بينما دعاه كل من « ابن سينا » و « الرازي » باسم (سويق)[٤١] •

ويحتفظ الاتراك بكميات مخزونة وفيرة من هذه المادة ، وعلى الاخص زمن الحرب وهم يجلبونه الى بلادهم بطريق البر والبحر معا • ومتى احتاجوا الى الطعام صنعوا منه بديلا عن الخبز •

ومن الاطعمة عندهم نوع يسمونه « ترشان »[٤٢] على ما اذكر ، وهذا يصنعونه قويا اشبه بالغراء حين تسحبه وهم يتركونه مدة الى ان يجف ثـم يقطعونه الى قطع صغيرة ، ويغدو طعاما جيدا ولذيذا حين يطهى •

ويخزن الاتراك كميات كبيرة من هذا الطعام في حصونهم ، مثلما نفعل نحن ذلك بالنسبة الى الذرة في بلادنا • فهم يتناولون هذه المادة عند الحاجة بدلا من الخبز او أي طعام اخر •

وهذه الاطعمة التي يسميها اللاتينيون باسم « السليقة » كانت شائعة جدا لدى القدماء الذين كانوا يتناولونها في اوقات الضرورة ، وقد اشار اليهـــا « بليني » في الفصل الثامن من الجزء الثامن عشر من كتابه •

---

(٣٨) بنهـور Bnuhourt

(٣٩) ديوسقريدس Dioscoredes طبيب وعالم نبات يوناني شهير ولد في القرن الاول للميلاد في « عين زربة » بمدينة قليقلة الفلسطينية ولذلـك لقبه العرب باسم « العين زربي » وضع عدة كتب في الاعشاب والعقاقير من اشهرها « مديكا متريا » عن الاعشاب ترجمه اصطفن بن باسـيل تحت اشراف حنين بن اسحاق

(٤٠) كرمنـون Crimnon

(٤١) اورده المؤلف باسم اسـنجق Sanguick وسويق Savik

(٤٢) تراشـان Trachan

في هذه البلاد اصناف عديدة من الطيور منها الدجاج والبط والدراج والحجل والجهلول وغيرها • غير ان الاسماك قليلة عندهم اذ لا توجد لديهم سوى نهيرات صغيرة تكون ملىء بالسلاحف ، ولذلك فان الاسماك جدا نادرة في مدينة « حلب » •

ولا يحب الاهلون اكل الاسماك لانهم يتناولون بسببها كميات كبيرة من الماء ، بدلا من الخمر الذي تحرمه دياناتهم ، ولذلك فان القليل من هذه الاسماك يتم الاتيان به الى هنا من الاماكن الخارجية من امثال « انطاكية » ونهر الفرات الذي يبعد مسافة ميلين او ثلاثة اميال من هنا •

ويعرض الاهلون للبيع كل اصناف الخضار كاللفت والجزر والفاصوليا وما شاكلها ، الى جانب الثمار المجففة كالزبيب واللوز والبندق والفستق والجوز وغيرها •

ويتناول اهل هذه البلاد الشرقية طعامهم على الارض • فحين يأزف وقت الطعام تفرش الارض بقطع من الجلد تمد فوقها الابسطة والمطارح ثم يجلسون عليهم وسيقانهم متقاطعة • وقبل ان يمدوا ايديهم لتناول الطعام يشكرون الله ثم يأكلون ويشربون بسرعة متناهية ، ويخفى كل واحد منهم ما يجول في ذهنه ، ولا يتحدثون على الطعام الا قليلا • ويضع الاغنياء ملايات من القطن والكتان حول اعناقهم تتدلى الى تحت او يعلقونها في احزمتهم بدلا من المناديل •

ولا تتناول النساء الطعام مع الرجال بل يظللن قابعات في حجراتهن الخاصة بهن •

وحين ينتهي الرجال من تناول الطعام ينهضون سوية وبخفة لا يستطيع ابناء بلادنا تقليدهم فيها حتى لو مكثوا في هذه البلاد ردحا من الزمن ، ذلك لان المفاصل تكون قد تخدرت بفعل تقاطع السيقان عند الجلوس بحيث تصعب اعادتها بيسر الى حالتها السابقة .

وعندئذ تلف موائد الطعام بما بقي فيها من خبز وزاد وتلقى في احدى الزوايا .

الفصـــل الســـابع

مغادرة حلب الى مدينة (بير) الشهيرة وسفري من هناك في نهـــر الفرات الى بابـل القديمة

بعد ان مكثت فترة لا بأس بها في « حلب » اطلعت عليها وعرفت التجارة والبضائع التي يتعاطى بها السكان هناك مع غيرهم من افراد الامم الاخرى كالاغريق ، والارمن ، والكرج ، والعرب ، والفرس ، والهنود ، والتي يجلبونها ويصدرونها في قوافلهم يوميا ، وبعد ان احسنت الاطلاع على طرقهم وعاداتهم وفهمتها جيدا ، وجمعت رزمة من نباتات اجنبية غير معروفة قبلا ، استقر بي الرأي على المضي في السفر الى بلاد الرافدين ، واشور وبابل وغيرها[1] من الاقطار القديمة الخصبة حيثما وجدت ، والتي كانت تقطنها الشعوب القديمة والملوك الاشداء • اما تلت البلدان التي تقع بعيدا جدا ، والتي يمر الطريق اليها عبر صحارى وقفار شاسعة فان محاولة السفر اليها وتحقيق ذلك ، تكون اكثر مشقة واشد خطرا • وعلى هذا فقد رحت اتطلع في الدرجة الاولى الى رفيق سفر اثق به ليكون مساعدا لي • واذ ذاك صادفت في الحال احد الهولنديـين ممن امضوا فترة طويلة في حلب ، فاستجاب الى طلبي (لانه كان هو الاخـر يرغب في هذه الرحلة بذات الاحساس الذي كنت احس به) وان يصحبني في ذلك • وهكذا اتفقنا على التو ، وحددنا الطريق المفضل الذي ينبغي لنا ان نسافر فيه •

---

(١) ذكر الرحالة « بلاد الرافدين » او مـــا بين النهرين « ميســوبوتاميا » واضاف اليها بلاد بابل واشور ، علما بان ميسوبوتاميا تشمل العراق باكمله بما في ذلك بابل واشور ، بالاضافة الى اعالي دجلة واعالي الفرات التي تقع ضمن الحدود التركية والسورية

ولما كنا اغرابا فليس من المستبعد ان يعتبرنا القوم (وهم كثيرو الشك)من المتشردين او الجواسيس • واذ ذاك سينتهزون الفرصة رأسا (مثلما اعتاد الاتراك ان يفعلوا ذلك) فيفرضون علينا اتاوات او ضرائب فادحة وبالشكل الذي يتعرض له المسيحيون الذين يتعاملون مع هذه الانحاء ، من خسائر واضرار جسيمة •

وحين اخذنا ذلك بنظر الاعتبار وجدنا ان التجارة هنا واسعة جدا فهي لا تنقل من هنا الى ارمينيا ومصر واسطنبول حسب (حيث تنقلها القوافل من هناك عبر الاناضول في مدة شهر تقريبا) وانما ترسل بنطاق واسع الى فارس والهند • وعلى هذا رأينا ان من الافضل لنا ان ندعي باننا من التجار ، كيما نستطيع ان نسافر بامان مع التجار الاخرين ، وان نشتري بعض السلع التي تباع في تلك الاقطار ونحملها معنا الى مسافات بعيدة •

وحين شرعنا ننفذ هذه الخطة عانى صديقي الذي اشرت اليه وهو « هانز اولرخ رافت » من مدينة « اولم » مشاق كثيرة في تزويدي ــ طبقا لرغبتي وطلبي ــ بطائفة من السلع التي تباع في تلك البلدان على حساب نصيري المستر « ملشيور مانليش » واذا ذاك حزمتها لاذهب بها الى مدينة « بغداد » (٢)التي تقع على نهر دجلة والتي ترسل منها اصناف التجارة الى فارس والهند •

ولما كان يندر وجود اي من التجار الذين يودون السفر من حلب الى تلك الاقطار ، كما يندر وجود اي نوع من ملابسنا هناك ، فقد ارتدينا الملابس التركية (كيلا يظن باننا من الغرباء) ، وقد بدأنا اول الامر بارتداء قباء طويل ازرق اللون مزرر من الاسفل ومفتوح عند الرقبة ، وهو لا يشبه النوع الذي يستعمله الارمن ، وسراويل مصنوعة من القطن تنحدر الى حد الكعبين ثم تلف

(٢) كتبها المؤلف بأسم بغـدت Bagdet

وتربط حول اجسامنا ، وفوق ذلك قمصان من دون بنائق . واعتمرنا بعمائم بيضاء ذات شريط اسود من النوع الذي يستعمله المسيحيون عادة ، ثم انتعلنا احذية صفراء صقيلة مدعمة بسامير من الامام وبهماز حصان من الخلف . وما خلا ذلك لبسنا نوعا من صدرية سوداء مصنوعة من نسيج خشن يسمونها في لغتهم باسم (مسكا)[٣] وهي شائعة الاستعمال لدى المسلمين وهي تصنع من شعر الماعز او الحمير عادة[٤] وتكون ضيقة نوعا ما وبلا اردان وقصيرة لا تصل الى اسفل من حد الركبة . والانسجة التي تصنع منها لا تكون متشابهة ولعل احسن صنف منها (وهو مخطط بخطوط بيضاء وسوداء) يستعمل بمثابة رداء ، في حين يستعمل النوع الخشن منه في صنع الخيام والاكياس التي تنقل بها المؤن عبر الصحراء كما ينقل فيها علف ابلهم وبغالهم حيث يعلقونها في اعناقها .

وقد ذكرني هذا الملبس بالالبسة البسيطة التي اعتاد سكان هذه الاقطار ان يرتدوها (ولا سيما الاسرائيليون حين يكون موتاهم ، او حين يندمون على اقترافهم بعض الاثام ، او الابتعاد عنها ، وعندما يصلون لله ليغفر لهم خطاياهم المتراكمة) ، كما قرأنا ذلك في الاصحاح السابع والثلاثين من سفر « الخليقة » حين راح « يعقوب » يندب وفاة ولده « يوسف » ، وكما هو الامر ايضا في كتاب النبي « يونس » عن سكان (نينوى) الذين امنوا بكلمات النبي التي انذرتهم بالفناء في مدة اربعين يوما ، وان يقلعوا عن ذنوبهم ، وان يرتدوا المسوح ، ويصلوا لله ليعفوا عنهم .

ومثل هذا قرأنا ايضا في كتاب الملك والنبي « داود » بعد ان احصى عدد

---

(٣) Meska لعلها تشبه الكبنة التي تصنع من اللباد عادة ويكثر استعمالها بين القرويين في كردستان وبقية الانحاء الشمالية من العراق .

(٤) المعروف ان شعر الحمير يكون قصيرا عادة لا سبيل الى قصه وغزله ، ولعله اراد بذلك الخيول لا غيرها .

افراد شعبه • فقد وردت فقرة في الفصل العاشر من انجيل « لوقا » وفي اماكن اخرى ، انهم كانوا يلبسون المسوح ويفترشون الرماد •

بعد ان اعددنا انفسنا على هذه الشاكلة للسفر ، وتزودنا بكل الاشياء الضرورية من سلع وملابس ومؤن من الخبز والشراب ، مكثنا ننتظر بعض الرفاق الذين قد يسافرون معنا ، بقينا — مع ذلك — مترددين فيما اذا كان من الملائم اكثر لنا ان نسافر برا مع القوافل التي كانت تنطلق من هنا ومن دمشق بكثرة الى بغداد عبر رمال وصحاري واسعة في مدى خمسين يوما ، وقد تزيد او تقصر ، تبعا للاحوال الجوية ، او ان نسافر بطريق النهر في دجلة او الفرات حين تحين فرصة السفر مع الاخرين •

لكن الشيء الذي حدث هو ان التقينا ببعض التجار من الارمن الذين كانوا يسكنون في « حلب » والذين تزودوا بالسلع ايضا واعتزموا السفر الى ذات الاقطار التي نقصدها ، واذ ذاك اغتنمنا هذه الفرصة لان هؤلاء كانوا من ناحية يعرفون اللغتين التركية والعربية وهما اللغتان السائدتان بصفة رئيسة في سوريا ، ومن ناحية ثانية لان البعض منهم سبق له ان سافر اربع مرات الى الهند ، وهكذا ضممنا بضائعنا الى بضائعهم واوسقنا بها عددا كبيرا من الابل على ان تسلم الينا في مدينة « بير » لنمخر من هناك نهر الفرات •

ولما كنا سوف نجتاز الممالك التركية فقد حصلنا على جواز مرور من الباشا والقاضي . وهكذا بدأنا سفرتنا الى « بير » التي تبعد مسيرة ثلاثة ايام عن حلب ، في اليوم الثالث عشر من شهر آب ١٥٧٤ م •

★ ★ ★

كنا في الطريق غرباء احدنا الى الاخر • وكان من الصعب ، ونحن نرتدي الملابس الشائعة ، ان يميز الواحد منا الاخر في هذا الجمع من القوم •

وبعد ان سلكنا طريق وعرا في اليوم الاول من رحلتنا ، واجتزنا صحارى

واماكن عديدة خالية من السكان ، وصلنا عند المساء الى قرية صغيرة توقفنا عندها ونصبنا خيامنا هناك وقد وضعنا امتعتنا على شكل دائرة من حولنا ، ولم نضع معها دوابنا (كما جرت العادة ذلك عند وجود قافلة كبيرة) كيما نرد عنا هجمات الاعراب ليلا .

وبعد منتصف الليل بقليل سمعنا اصوات قافلة كبيرة مؤلفة من ابل وحمير ، تمر بنا وعلى مقربة جدا منا ، ولذلك استيقظنا من النوم حين مرت بنا ، ورحنا نتعقبها في سيرنا .

وحين بان ضوء النهار شاهدنا حقولا محروثة اكثر عددا مما رأيناه في اليوم السابق ، كما شاهدنا هنا وهناك في كثير من الاماكن البهيجة خيام الاعراب وقد تلاصقت الى بعضها البعض وبدت وكأنها معسكر ، وامتدت في شكل شوارع منتظمة .

وبعد ان واصلنا السير في مشقة ذلك الصباح وبان الكلل على دوابنا الموسقة بالاحمال من شدة الحر ، عمدنا الى الاستراحة قليلا خلف معبد صغير لنريح انفسنا ونطعم دوابنا .

وفي الوقت ذاته انحدرت الينا بعض النساء الفقيرات من ربوة ، ليجمعن روث الابل بغية استعماله وقودا بدلا من الحطب الذي كن في امس الحاجة اليه .

وحين ولت شدة الحر ، وكنا قد مكثنا هناك مدة ساعتين ، واصلنا السير ثانية فبلغنا ، قبل حلول الظلام قرية صغيرة تقع في احد الاودية اقام الاعراب على ارض مرتفعة قريبة منه ، مخيما كبيرا لهم . وقد صعدنا الى ذلك المرتفع ونصبنا خيامنا في ارض مستوية قريبة من مخيم الاعراب ، وبقينا في حراسة ومراقبة دقيقة ، وسرعان ما اقبلوا علينا وتحدثوا الينا برقة ، كما جلبت نساؤهم لنا الماء واللبن الجيد .

ولما كنا قد رأينا القوم عراة جياعا وهيئاتهم اشبه بهيئات الغجر . فقد أبينا ان نضع ثقتنا فيهم ، وظللنا نراقبهم مراقبة جيدة طول الليل .

لقد كان هؤلاء من الاقوام الرحل ، أي انهم اعتادوا حياة البطالة والكسل منذ الصغر . وهم يحتملون الجوع والحر والبرد اكثر من ان يحصلوا على شيء ما من اعمالهم اليدوية ، او يزرعوا الحقول ، او ينشئوا البساتين لادامة حياتهم ، وان كانوا قد يفعلون ذلك في بعض الاماكن الخصبة التي تقع تحت تصرفهم ، ولذلك فانت تجد هنا عددا كبيرا منهم يعيش في اطراف هذه الصحاري الرملية التي لا يعيش فيها انسان ، لكنهم يعيشون في خيامهم اشبه بمعيشة الحيوانات في الكهوف او يتنقلون بكل حرية ، مثل الغجر ، من مكان الى اخر الى ان يستقروا في احد هذه الاماكن فيستمرئوا العيش فيه مع مواشيهم لفترة طويلة ، حتى اذا اتوا على كل ما هو موجود من طعام دفعتهم الحاجة الى الارتحال من هنا بحثا عن مكان اخر[٥] .

وفي الخامس عشر من الشهر وقبل ان يطلع ضوء النهار ، نهضنا في صباح بارد ونحن نعتزم ان نبلغ مدينة « بير » عند المساء . غير ان دوابنا كانت جد متعبة بسبب شدة الحر وثقل الاحمال التي كانت تحملها الى درجة انها كانت تسقط من شدة الاعياء عدة مرات في الوقت الذي كنا نبحث فيه عن مكان ملائم نمضي الليل فيه ، الى ان اهتدينا اخيرا الى قرية نصبنا خيامنا على مقربة منها حيث تناولنا بعض الخبز واليقطين واخلدنا بعدها الى الراحة .

وقبل ان يطلع النهار بساعتين استأنفنا مسيرتنا مرة اخرى فوصلنا في باكر

---

(٥) كان الاعراب او البدو وما زالوا حتى الان يتنقلون في الاراضي التي يكثر الكلأ فيها أيام الربيع ومن ثم يغادرونها الى مواقع أخرى ايام الصيف ، حيث تقتصر مهنتهم على رعي الاغنام والابل .
ولكن يبدو من الوصف الذي ذكره المؤلف ان القوم الذين شاهدهم في هذه المنطقة هم من جماعات الغجر (الكاولية) على اكثر احتمال .

الصباح الى نهر كبير يدعى « الفرات » عبرناه بما كان معنا من سلع ومتاع ، ثم ضربنا خيامنا امام المدينة ، وعلى مقربة من النهر في الجانب الاخر منه ، وذلك انتظارا لسفينة قادمة من ارمينية في طريقها من هناك الى « بابل » التي تدعى الان « فلوجة »[٦] .

لم ارَ هنا اية نباتات تستحق الاهتمام سوى الخلنجان الذي يسمى عندنا في هولندا باسم « السذاب »[٧] وهو ينمو بكثرة في الوديان الجافة . كما شاهدنا على مقربة من الطريق اول نوع من شجرة نسميها نحن « سم الكلب »[٨] وهي باوراقها وعذوقها تشبه شجرة « الخالندين »[٩] شبها كبيرا. كما شاهدنا مساحات شاسعة من الاراضي مزروعة بنوع من القمح التركي ندعوه « جلجلان »[١٠] بالاضافة الى مساحات اخرى زرعت بالقطن وباشجار « الايسولا »[١١] المليئة بالحليب وهذه تغطي مساحات واسعة من الاراضي الخالية التي يمكن زرعها بالقمح .

ولقد وجدنا هنا نبة « السقمونيا »[١٢] التي يؤتى بها الى حلب ، والتي

---

(٦) وقع راوولف وغيره من الرحالين القدامى في خطأ فاحش بالنسبة الى تحديد موقع مدينة بابل وغيرها من المدن العراقية القديمة ، ولا سيما بالنسبة الى اولئك الذين كانوا يفدون الى العراق من سوريا . فقد خيل الى راوولف ان مدينة الفلوجة هي مدينة بابل نظرا لوقوعها على نهر الفرات وطراز بنائها القديم . ولقد تورط الرحالة الانكليزي جمس بكنغهام (١٧٨٦ – ١٨٥٥م) فوقع في ذات الخطأ اعتمادا على راوولف

(٧) الخلنجان Galega والسذاب Goat Rue من النباتات الطبية .

(٨) سم الكلب او قاتل الكلب Apocynom

(٩) الخالندين Chelandine نبات طبي

(١٠) ليس الجلجلان Sesamo من انواع القمح ، كما ذكر ذلك الرحالة خطأ ، انما هو بذر الكتان

(١١) الايسولا Esula نبات بري يحمل بذورا سمراء اللون بحجم حبة العدس فيها مادة حليبية تعرف عندنا في العراق باسم « الزريقة » – بتشديد الراء – يجمعها الاعراب ويحمصونها ثم ياكلونها .

(١٢) السقمونيا Scammony هي شجرة اللبلاب التي يستخرج الصمغ من جذورها .

يمكن مزجها مع حبات الايسولا • وعلى مقربة من المدينة كانت اشجار الاكاسيا(١٣) تنمو بكميات وفيرة ، وهم يسمونه هنا باسم « الشوك » والشاموك وثماره اكبر حجما واكثر وفرة مما رأيت من امثاله في أي مكان اخر •

تقع مدينة « بير» على الجانب الاخر من نهر الفرات الكبير ضمن اراضي ما بين الرافدين(١٤) وعلى مقربة من جبال طوروس مثلما تقع طرابلس قرب جبل لبنان ، او تقع مدينتنا «لوزان »(١٥) على مقربة من جبال الالب •

والمدينة ليست كبيرة ولا محصنة ، ولكن يمكن الدفاع عنها جيدا بالقلعة التي تستقر على صخرة عالية تقع على حافة النهر ولا يمكن الاستيلاء عليها بيسر •

ويحيط بالمدينة ريف جميل جدا ، فائق الخصب (ذلك لان هذا الجانب من النهر يتألف بصفة رئيسة من ارض سهلية) وكان القوم قداتسوا دراسة القمح حين وصولنا الى هناك ، واخذوا يضعونه في عربات تجرها الثيران • وقد تناثرت هنا وهناك قرى حسنة المنظر ، لكن المنطقة التي تأتي بعد النهر كانت مرتفعة وهي من نوع الاراضي التي تمتد مسافات طويلة الى الشرق ، وتفصل ارمينية عن بلاد ما بين النهرين • ولم نر في بقعة مرتفعة جرداء سوى بعض الشجيرات والادغال ، وعددا كبير من الحيوانات ، ولا سيما الخراف والماعز ، وهذه يؤتى بها كل يوم لتنقل من هناك عبر نهر الفرات ثم يدفع بها الى حلب والاماكن القريبة الاخرى •

ويبلغ عرض النهر في المكان الذي يجري فيه عند المدينة حوالي ميل ، وهو

---

(١٣) الاكاسيا Accasia نوع من الاشجار العطرة وتعرف لدى العرب باسم السنط .

(١٤) يقصد الرحالة بالجانب الاخر من نهر الفرات ضفته الشرقية فكانه يعتبر نهر الفرات حدا فاصلا بين سوريا والعراق

(١٥) لوزان من المدن الشهيرة في سويسرا تقع على بحيرة جنيف وفيها العديد من المصانع الشهيرة والمعاهد العلمية الفخمة .

عميق الغور وليس من اليسير اقامة جسر فوقه • ومع ذلك ، ولانه لا يجري سريعا في ذلك المكان ، فلا يوجد أي خطر من الملاحة فيه الا عندما يصبح عريضا جدا (كما يحدث ذلك ايام الفيضان حين يجري وسط الصحاري الكبرى) ، او حين يتفرع الى فروع عديدة ، ففي مثل هذه الاحوال لا يعرف الملاحون الماء الافضل الذي ينبغي لهم ان يسيروا فيه ، في الوقت الذي يخيل فيه الى التجار ان في مقدورهم ان يصلوا بتجارتهم الى « بغداد »[١٦] باسرع وقت وباقل اذى • فهؤلاء التجار يحملون تجارتهم برا الى « اورفه »[١٧] والى مدينة « قره آمد » الشهيرة التي تقع على مسيرة ستة ايام الى الشرق عند حدود اشور وماذي[١٨] •

وتقع بغداد على نهر دجلة السريع الجريان وهي تعد مستودعا كبيرا للسلع التي ترسل منها الى « هرمز »[١٩] والهند • ومياه نهر الفرات عكر دوما ولذلك تكون في الغالب غير ملائمة للشرب ، الا بعد ان يظل الماء ساكنا مدة ساعتين او ثلاث ، ويترسب الرمل والوحل منه في القعر فيكون سمك هذا الراسب زهاء البوصة احيانا • وعلى هذا تجد السكان في الدور التي لا آبار فيها في المدن

---

(١٦) اطلق راوولف على بغداد اسم بغدت Bagdet وهو اسم يذكره قدامى الرحالين والمؤرخين من الاوربين كما سماها بعضهم باسم بلداك وبلداشي Baldachi ومن هؤلاء الرحالة البندقي الشهير ماركوبولو

(١٧) اورفه هي مدينة « ارهوي » القديمة وعرفت لدى اليونان باسم اذسا . وقد سماها العرب باسم (الرها) وتقع الان داخل الاراضي التركية والنسبة اليها (اورفه‌لي) .

(١٨) قره‌آمد Carahamit هي مدينة ديار بكر واسمها القديم « آمد » وقد استوطنتها قبائل بكر العربية واقامت منازلها فيها منذ القرن الخامس للميلاد .

(١٩) هرمز Ormutz جزيرة ومضيق هرمز في الخليج العربي وكانت كل السفن التي تمخر الخليج تمر بهرمز وتتزود منها بالوقود والمؤون (انظر : سليم طه التكريتي « الصراع على الخليج العربي » ط. ١٩٦٦)

والقرى الممتدة على ضفاف النهر ، يستعملون اوعية كبيرة يملأونها بماء من النهر ثم يدعونها ساكنة الى ان يروق ماؤها • اما اذا ارادوا احيانا شرب الماء قبل ان يروق فانهم يشربونه بمناديلهم •

جلب لنا الاهلون ، خلال مكوثنا في المدينة ، عدة انواع من السمك اصطادوه من النهر بقصد البيع • وكان من بينها نوع يعرف باسم « الجري » وهو فيشكله وحجمه يشبه النوع المعروف باسم « الشبوط » لكن بطنه اكبر واوسع واقل سمكا وكانت الواحدة من هذه الاسماك تزن احيانا ثلاثة ارطال ، او ما يعادل سبعة عشر او ثمانية عشر باوندا •

وهذه الاسماك لذيذة الطعم جدا وزهيدة الثمن الى درجة اننا استطعنا ان نشتري واحدة منها بمبلغ « معدني »[٢٠] واحد وهو يعادل في عملتنا ثلاثة بنى[٢١] •

وحين اراد ملاحو قاربنا اصطياد السمك شرعوا يرمون في النهر بحبات ممزوجة بمادة (الكوكولوس)[٢٢] وهو ثمر يسمونه (دم السمك) فبعد ان يطفو السمك على سطح الماء تماما يقفز الملاحون من القارب ويمسكون باعداد منـه •

كذلك شاهدت نوعا مميزا من النسور اليفا الى درجة انه لا يحتشد فوق

---

(٢٠) « المعدني » لقد كان شائع الاستعمال في الامبراطورية العثمانية في تلك العهود وقد كتبه راوولف باسم (معيدن Medin

(٢١) يقصد بكلمة عملتنا العملة الهولندية لكن المترجم الانكليزي حولها راسا الى العملة الانكليزية (بني)

(٢٢) الكوكولوس Cocculos هو المادة المعروفة عندنا في العراق باسم « الزهر » وهو ثمر مثل حبة الفلفل اسمر اللون لشجيرة برية يحتوي على مادة سامة يستعملها صيادو السمك وذلك بان تسحق وتخلط بالعجين او غيرها ثم يقذف بها في عرض النهر . فاذا ما تناولتها السمكة تسممت بها فطفت على سطح الماء

البيوت حسب بل ويقبع في الشارع ايضا امام الناس من دون خوف ، وهو رمادي اللون بالنسبة الى الانواع الموجودة عندنا . وهناك نوع اخر من هذه الطيور اكبر حجما واخف لونا من الاخرى ذات طرر سوداء في اواخر اجنحتها تشبه اللقالق المعروفة في بلادنا ، وهذه تأكل اللحوم والجيف وتكون في بعض الاحيان اشد شراسة .

والثابت ان هذه الطيور من النوع الذي اطلق عليه الرازي[٢٣] اسم دجاج الوادي[٢٤] ودعاه « ابن سينا » باسم « الرخم »[٢٥] .

اثناء مكوثنا بعث السلطان باحد الباشوات ومعه بضع مئات من الفرسان المسلحين تسليحا جيدا لشن الحرب ضد الدروز[٢٦] ليستطيع بذلك حماية حدود سوريا وبلاد الرافدين وارمينيا وغيرها من الهجمات التي يشنها هؤلاء ، ولنشر الامن في تلك الربوع .

وكان الدروز يسكنون جبال لبنان ، وقد تزايد عددهم فاصبح في مقدورهم ان يقذفوا بستين الف نفر الى ميدان القتال ، (ومعظمهم من حملة البنادق المجربين) . فاذا ما وقع حادث استطاعوا ان يأتوا باولئك الجند دفعة واحدة في وقت قصير .

---

(٢٣) ابو بكر محمد بن زكريا الرازي وقد عرف لدى الغربيين باسم Rhazis من اعاظم الاطباء المسلمين وقد طبعت معظم مؤلفاته ولاسيما كتابه (الحاوي) وترجمت الى اللغات الاوربية وظلت تدرس ، مع مؤلفات ابن سينا ، في الجامعات الاوربية حتى القرن الثامن عشر .

(٢٤) يعرف باسم الفرغر او الدجاج الاسود

(٢٥) الرخم من الطيور الكبيرة الحجم وتوجد بكثرة في العراق .

(٢٦) الدروز دعاهم المؤلف باسم Truscis واورد عنهم فصلا خاصا في رحلته هذه وتحدث عن ثوراتهم ضد السلطنة العثمانية وعن احوالهم وعاداتهم

ولقد رأى السيد الأعظم (٢٧) ان عددهم يتزايد يوما بعد اخر ولذلك خشي من ان يصبحوا في وقت من الاوقات جدا أقوياء بالنسبة اليه، ولكي يحول دون ذلك (كما سارت الاحاديث بهذا فيما بعد) ويخضعهم لامرته . فقد اتصل ببعض الباشوات والالوية (٢٨) ، بصفة رئيسة بباشا دمشق ، وطلب اليهم ان يجهزوا جيشا كبيرا ويطبقوا به عليهم . اما كيف استطاع السيد ان يضربهم وكيف انقض عليهم فذلك ما سأسرده بالتفصيل بعد عودتي (لانني لم اسمع في هذا الوقت وفي اسفاري الشيء الكثير عن هذا الحادث (٢٩).

كان الجند الذين جاؤا مع الباشا ، ولكيلا يظلوا خاملين ، يتمرنون على اطلاق السهام ، او المبارزة بالسيوف او النبابيت . وكان ابناء البلاد ، في بعض الاحيان ، يشتركون معهم في العابهم تلك ولكن ليس بانواع كثيرة من الاسلحة التي يستعملها المتبارون في بلادنا ، أي الخناجر والسيوف والرماح ، لان هذه الاسلحة ليست على تلك الشاكلة في هذه البلاد . فهم يستعملون بدلا منها ، النبابيت او الهراوات ، اذ يقترب الواحد من الاخر ثلاث مرات ولكن من دون مباهاة وتفاخر كما يفعل ذلك المتبارون عندنا قبل ان يبدأوا المبارزة ، اذ ان ملابسهم الطويلة تعوقهم عن ذلك . وتراهم يحملون في اليد اليسرى ترسا يبلغ قطره حوالي قدم واحدة يكون مغلفا بالجلد ومخيطا بخيوط الشعر وفي اليد اليمنى يحملون الهراوات واذ ذاك يوجه الواحد منهم ضرباته في اول جولة ، كما يفعل ذلك الصبيان في بلادنا . اما في الجولتين الثانية والثالثة فهم يتقارعون

---

(٢٧) السيد الاعظم لقب اطلقه الاوربيون على السلطان العثماني .

(٢٨) جمع لواء اي الراية او العلم . ويعرف في التركية باسم « سنجق » ويرمز بـه الى احدى وحدات الجيش .

(٢٩) لم يتحدث راوولف في رحلته عن هذا الحادث كما وعد ذلك قبلا .

بالهراوات وعلى الاخص في الجولة الثالثة التي تعد الجولة الاخيرة ، اذ يرمون تروسهم بمهارة وقد يضرب الواحد منهم سيقان الاخر احيانا ولكن دون ان يؤذيه . فاذا ما وقع تراجعوا الى الوراء وانصرفوا . فهذا النوع من المبارزة كثير الشيوع في هذه البلاد (٣٠).

★ ★ ★

بعد ان مكثنا فترة طويلة وصلت عدة سفن قادمة من اعالي نهر الفرات وكانت من بينها السفينة التي مكثنا طيلة هذه المدة في انتظار وصولها الينا .

بدأ ربان سفينتنا يوسقها بالحمولة ويعد العدة كيما نبرح ذلك المكان . وفعلت ذلك نفسه سفينتان اخريان كانتا تستعدان للاقلاع سوية معنا ، وكانت احدهما تعود الى الاتراك وهي موسقة بالقمح وحده تنقله الى بغداد لندرته هناك بسبب شدة الحر وانحباس المطر .

ولقد ابتعنا عدة انواع من الفاكهة من امثال الزبيب والعنب والثوم والبصل وغيره ، كما حملنا معنا شيئا من الذرة لانها نافعة في الاسفار اذ تصلح لمزجها مع دقيق الرز وصنع السجق منها او لعمل الخبز ، كذلك حملنا معنا شيئا من العسل والمواد الاخرى التي نستفيد منها في السفينة . ذلك لانه كان علينا ان نقطع بواسطة النهر طريقا طويلة عبر الصحارى والاماكن العديدة غير المأهولة مما لا يمكن الحصول فيها على الطعام ، اذ لا توجد فنادق على امتداد هذا النهر كما هو الامر بالنسبة لنهري « الراين » و « الدانوب » اللذين تكثر فيهما مثل هذه الاماكن التي يتوفر فيها الطعام للمسافرين .

ولما كان ينبغي لنا ان نزود انفسنا ببعض الاطعمة الساخنة احيانا فقد

---

(٣٠) هذه اللعبة التي وصفها راوولف بالمبارزة هي المعروفة عندنا في العراق باسم لعبة الساس او لعبة السيف و « الدرگة » بالكاف المعجمة ، وتمارس في ايام الاعياد وحفلات الاعراس .

تزودنا بعدة ادوات للطبخ (كما هو المعتاد في مثل هذه الحالات) لطهي اللحم فيهـا •

كان ربان سفينتنا ما زال في حاجة الى المزيد من المسافرين والبضائع التي تقلها سفينته ، ولذلك ارغمنا على المكوث فترة اطـول انتظارا لتجار اخريـن جاؤا الينا بعد وقت قصير من حلب (وكان بينهم بعض الارمن والبعض الاخر من الفرس ، واخرون من بغداد والبصرة[٣١] كذلك ركب مع هؤلاء في ذات السفينة اربعة جنود من الاتراك ارسلوا الى بغداد لتعزيز الحدود مع فارس • كذلك نقل ربان السفينة بعض اليهود وهم اسوأ من اليهود في بلادنا وطلب الينا ان نعنى بهم • وفضلا عن ذلك اجبرنا على ان تنقل معنا بعض الدراويش الذين تمرسوا على الاستجداء واصبحوا يعتمدون عليه في معيشتهم[٣٢] فتراهم يطالبونك ان تتصدق عليهم بشيء ما لوجه الله ومع ذلك فاذا ما تهيأت لهم اية فرصة انقضوا عليك وسلبوك ما تحمله معك • وهؤلاء سيئو الخلق كسالى لكنهم اشداء لانهم يجوبون كل الاقطار ، ويتحملون المزيد من الاذى ، ولذلك ينبغي للمرء ان يعنى بهم عناية خاصة ولاسيما اثناء الطريق • ومع هذا فانهم على الرغم من كل ذلك يتمتعون بامتيازات كبيرة في هذه البلدان • فهـم يتظاهرون بالقدسية والعبادة ويؤدون الصلاة غالبا ، ويقنعون السذج من الناس بان الله يتقبل صلواتهم قبل غيرهم ، وانهم يمنحون الغير بركاتهم • على ان الناس ليسوا الان على استعداد لتصديقهم كما كان يفعل ذلك اجدادهم من قبل • فهم لا يمكثون طويلا في مكان واحد لان حيلهم تنكشف دائما •

---

(٣١) ذكرها راوولف باسـم بلصرا Balsra كما يسميها اوربيون غيـره باسم بصورة Basura

(٣٢) كثيرا ما يخيل الى الاجانب ان طائفة الدراويش هم من رجال الديـن كما سماهم المؤلف بذلك هنا . والحقيقة ان هؤلاء فئات من الناس لا علاقة لها بالدين بل قد لا تعرف من احكامه شيئا وانما اعتادت حيـاة التشرد والاستجداء والتنقل من مكان الى اخر

الفصل الثامن

الطريق الذي سلكناه بالسفينة . التوجه نهرا الى الرقة . مجيء نجل أمير العرب الى سفينتنا مطالبا بالاتاوة . ما شاهدناه في الطريق وقاسيناه على ايـدي الاعراب والمتسولين

بعد ان اوسقنا سفينتنا والسفن الاخرى التي كانت معها ، وبعد ان اعدت كل اللوازم الضرورية لذلك ، صعدنا الى السفينة فبدأت رحلتها باسم الله في مساء اليوم الثلاثين من آب سنة ١٥٧٤ م (بعد ان مكثنا هناك سبعة عشر يوما) ونحن نعتزم ان نقطع في تلك الليلة ثلاثين فرسخا غير ان اثنتين من السفن انسابتا في واحد من فروع النهر العديدة منذ البداية ، واذ ذاك عانى ملاحونا اتعابـا شاقة في دفعهما الى الاتجاه الصحيح وهكذا بقينا ننتظرهم وقد اتعبنا الانتظار كثيرا ، وعندئذ امضينا الليلة في سوق مدينة تدعى (كسرة)[1] تقع على قمة ربوة وعلى بعد فرسخ من المكان الذي حللنا فيه .

وحين طلع النهار في صباح اليوم التالي صعدنا الى السفينة فاستأنفنا السفر وكنا في البداية محظوظين ، اذ اخذت جبال طوروس[2] التي كانت تقع على يسارنا وتمتد الى ناحية الشرق ، تختفي عنا تدريجا ، ومن ثم اتجهنا الى ناحية اليمين كان النهر فيها يسير وسط صحـاري واسعة ومناطـق تمثل الارض العربية[3] ، ثم يتفرع الى فروع عريضة يصعب على الملاحين تعيين الاتجـاه الصحيح الذي يسيرون فيه .

---

(١) كسرة Cassra والذين نراه ان المقصود بها مدينة « قاصرين » التـي بناها الرومان عند الفرات وقد احتلها المسلمون بقيادة ابي عبيدة ورد ذكرها في معجم البلدان لياقوت الحموي وغيره من البلدانيين العرب

(٢) طوروس Taurus هي سلسلة الجبال التي تمتد من تركيا الـى سوريا ولبنـان .

(٣) يقصد المؤلف بعبارة « الارض العربية » بادية الشام او مبتدى ارض الجزيرة العربية من الاراضي السورية اذ كان يتصور ان الارض التـي تقع شرقي نهر الفرات هي بلاد الرافدين واشور وفارس ليس الا .

عندما بدأ السير في النهر لم نكن نتوقع اي خطر تتعرض له لأن السفينة التركية سبق لها ان مرت قبلنا بسلام في احد تلك الفروع ، لكن السفينة الثانية التي كنا نسير وراءها ما لبثت ان استقرت فوق الرمال لان ملاحيها اهملوا توجيه سيرها في المجرى الصحيح فهي لم تنغرز في المكان الذي استقرت فيه حسب بل وسدت علينا الطريق ايضا وقد ادارها الماء بعنف فوقفت معترضة ، واندفعت سفينتنا فوقها رغما عنا لاننا كنا قريبين منها ، لان سفينتنا كانت تجري بسرعة لم نستطع معها تغيير اتجاهها .

وقد نتج عن الاندفاع والتيار والاصطدام بالسفينة الواقعة ان تحطم الجانبان المرتفعان منها فتدفق الماء الى داخلها وغرقت في اعماق النهر .

ومع ان سفينتنا لم تصب باي ضرر الا انها لم تستطع مواصلة السير حيث ربطناها بالسفينة الغارقة بغية انتشالها من الماء وبعد جهد شاق بذلناه في ازاحة الرمال من تحت السفينة الغارقة وفسح الطريق لاخراجها سالمة ، استطعنا ان ندفع نصفها الى الماء العميق امام سفينتنا ، وسرعان ما دفع بها ماء النهر بشدة فارتطمت بسفينتنا وحطمت احد مجارفها وقسما من جنبها ، ولو ان المجذاف الاخر كان قد تحطم لتكرر ذات العطب والضرر اللذين وقعا قبلا .

وحين كنا على مثل تلك الحالة ، وقد تركز تفكيرنا في الهلاك الذي ينتظرنا سوية لان ربنا الرحيم قد اراده لنا ، وصلنا قرب الشاطىء ، واندفعنا في المجرى القديم للنهر من دون ادنى عائق فاقلعنا قبل ان تقلع السفينة الاخرى ، ثم نزلنا الى البر مباشرة .

نهضنا بعد استراحة قصيرة للعمل على انقاذ السفينة الاخرى فانزلنا حمولة سفينتنا وحملنا بها ما كانت تحمله تلك السفينة الواقفة ثم انزلناها بسرعة الى الماء .

وفي الوقت ذاته ظهر من وراء الادغال وشجيرات الطرفاء على ضفتي النهر

عدد من الاعراب كان البعض منهم يمتطي ظهور الخيل بينما كان البعض الاخر راجلين وقد اقبلوا الينا غير هيابين من حرسنا وهم يحاولون ، بعد ان غادرنا ، سلب ما نحمله من بضاعة .

لكنهم ما ان جوبهوا بالمقاومة ، وسمعوا بضع اطلاقات انطلقت من بنادقنا (ولم تكن البنادق معروفة لديهم) حتى تسلكهم الخوف ، فأداروا لنا ظهورهم ، وولوا الادبار مسرعين ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وفي الاخير حاولنا ان نخرج من السفينة بعض الامتعة الصغيرة فاصبنا في ذلك نجحا طيبا ، ثم ما لبثنا ان نشرنا قلوع السفينة ودفعنا بها باذلين في ذلك كل ما توفر لدينا من جهد وطاقة الى ان استطعنا في النهاية تحريكها واطافتها على سطح الماء . ومع ان ما ضاع من حمولتها كان ضئيلا في كميته الا ان ذلك كان اكثرا قدرا بالنسبة الى الرز والقماش والنسيج الدمشقي والصابون والسكر وجذور نبات « الزرنب » التي تستعمل لمعالجة اوجاع الظهر . كذلك حدث تلف كبير ببعض القمح والتين الذي استجداه ركاب السفينة منا .

كان بودنا لو مكثنا زمنا اطول معهم الى ان تجف امتعتهم وتصلح سفينتهم ليصبح في مستطاعهم السفر معنا في مزيد من الامن عبر هذه الصحارى ، وذلك امر اظهرنا استعدادنا التام لانجازه .

حدث اثناء مكوثنا مع ركاب تلك السفينة ومساعدتنا اياهم ان اتهمت انا ورفيق لي ، من قبل بعض اليهود علانية بتهمة السكر مع ربان السفينة . وكان غرضهم من ذلك التدليل على اننا كنا من الاجانب وان يحطوا من منزلتنا ويجعلونا ممقوتين ، لانهم لم يقبلوا — حسب تقاليدهم — تناول الخمر معنا . ولقد نجح اولئك اليهود في غرضهم ذاك النجاح كله ، فما ان علم رجال الدين بهذا حتى حنقوا علينا واخذوا قارورة الخمر وقذفوا بها في النهر ، ثم ما فتئوا ان اخرجوها من النهر وسكبوا ما فيها من خمر على الارض . وكان من جراء

ذلك ان اغتاظ الجند الذين كانوا يقفون معنا من هذا التصرف فشرعوا يوجهون الى اليهود اقسى الكلمات تعزيرا وتوبيخا وراحوا يهددون كل مسيء بالعقاب. وفي اليوم التالي تلقى الشخص الذي تزعم تلك الحركة ، وكان عربيا تابعا لاحدى فرق الدراويش ، عقابا شديدا لحادث تافه وقع منه مصادفة ومن دون قصد(٤) .

واذ كانت امتعتنا لما تزل مطروحة على ارض الشاطىء فقد امضيت الليل فوق الاكياس اذ جاء دوري في الحراسة ليلتئذ . كان احد الافراد يحمل بيده كوز ماء فطلبت اليه ان يناولني اياه لاشرب منه شيئا . وحين مد يده بالكوز وهممت ان اتناوله منه ، وطأت مصادفة قيثارة احد الاتراك فحطمتها . ومع ان ذلك التركي كان في مقدوره ان يثور ساخطا جراء ذلك الا انه ما لبث ان هدأ بعد ان علم ان لدي من الصمغ ما استطيع ان اصلح به القيثارة . وفي الصباح جلسنا سوية فاصلحناها جهد المستطاع . وحين رآنا ذلك الدرويش منهمكين في اصلاحها اخذ منه الغضب مأخذه لاننا لم نساعد الاخرين في نشر الامتعة المبتلة التي انتشلت من السفينة الغارقة ، ولذلك تناول القيثارة من بيننا فحطمها ورمى بها في النهر ثم عاد وهو يتظاهر بتوجيه كلماته نحونا ظنا منه بانه سينجح في هذا مثلما نجح في قضية قارورة الخمر . غير ان صاحب القيثارة ما ان شاهد ذلك حتى تناول من الارض خشبة كبيرة وراح يهوي بها على رأس ذلك الدرويش وعلى اطرافه عدة مرات حتى تدفق الدم من رأسه واذنيه . واشتط غيظه في اخر الامر فسحب بندقيته وحاول ان يضرب بها ذلك الدرويش وعندئذ فصلنا بينهما فتمت تسوية تلك القضية واحلال الصلح بينهما .

---

(٤) في هذا القول تناقض مفضوح فالمعروف ان اليهود لا يحرمون الخمر وانما حرمها الاسلام . ويظهر ان الذين اتهموا المؤلف ورفيقه بالسكر ليسوا من اليهود وانما هم من رجال الدين المسلمين الذين دعاهم بالدراويش .

كان منظر ذلك الدرويش مخيفا جدا بشعره الأسود الطويل المسترسل وكانت تغطي بدنه ورأسه وصدره وذراعيه ندوب كثيرة احدثها هو بنفسه لانها تعتبر من الامور المفيدة في نظر تلك الطائفة وغيرها ، مما يفعله غيرهم من الامور المفيدة في نظر تلك الطائفة وغيرها ، مما يفعله غيرهم من الاتراك الذين يحتفظون بحروقهم البدنية وذلك باستعمال جمرات متأججة حمراء او قطع من الكتان يبلغ سمكها زهاء البوصة يلفونها بقوة فتكون مفرطحة من الاسفل ومدببة من الاعلى على شكل هرم تماما ، ثم يشعلون فيها النار ويضعونها على اجسامهم العارية ويدعونها تحترق وهم يتحملون ذلك بالصبر الطويل الى ان تنفد وتتحول الى رماد ، وعندئذ يلفون حروقهم تلك بقماش من القطن • ويستعمل هؤلاء الطريقة ذاتها لمعالجة الرشح من الرأس او العين بقصد تجفيفه او سحبه الى مكان اخر •

ولذلك شاهدت جملة من هؤلاء يحمل الواحد منهم زهاء عشرين من تلك الحروق معظمها على اذرعهم وتبلغ سعة البعض من هذه الحروق سعة « الشلن »(٥) بالاضافة الى الندوب والجروح الاخرى • ولم استطع ان اعرف المصدر الذي اخذوا عنه هذه الطريقة اللاانسانية في تجريح اجسامهم وتبضيعها الا ان يكونوا قد اخذوها في القدم عن رهبان (بعل)(٦) الذين اعتادوا ان يجرحوا اجسامهم بالمدي والرماح حتى تسيل منها الدماء ، وذلك ما اعتدنا ان

(٥) الشلن عملة انكليزية في حجم الدرهم العراقي وكانت قبلا موازية له في القيمة اما الان فان قيمته اقل بعد الخفض الذي طرا على الباون والتعديل الذي حدث في العملة الانكليزية .

(٦) بعل Baal كبير آلهة اشور ومقره في نينوى ويعرف باسم بيلوس ايضا وكثيرا ما يخطىء المؤرخون والرحالون في شانه فيعتبرونه آلـه بابـل .

نقرأه في الاصحاح الثامن عشر ، الاية الثالثة من « سفر الملوك »[٧] .

والشيء الذي استطيع ان اقرره هنا هو ان هـــذه الندوب والحروق الواسعة في بدن هذا الدرويش انما اجريت حسب تقاليد الطائفة التي ينتمي اليها[٨] اذ ان هذا الرجل لا يرتدي اية ملابس ، لا في الصيف ولا في الشتاء ، سوى قطعة يستر بها عورته . وبدلا من الملابس يرتدي امثال هؤلاء جلود المواشي فينامون بها ويستخدمونها بمثابة فراش وغطاء ولباس لهم في وقت واحد . ويتظاهر هؤلاء في تصرفاتهم الخارجية بالصبر والفضيلة وكأنهم من الاموات بالنسبة الى هذا العالم حيث يتمسكون بشعائر الصلاة والتذوق والمشاهدة في الوقت الذي تمتلىء فيه نفوسهم بالخداع واللؤم ولذلك يصعب وجود احد يحبهم .

وفد علينا عدد من رجال الديـن ينتمون الى طوائف متعـددة وهم يتميزون بعاداتهم وتقاليدهم المختلفة مثلما هو الامر في بلادنا نحن الهولنديين. وكان من بين هؤلاء شاب قوي البنية ، حسن التكوين ينتمي الى طائفة يطلقون عليها اسم « الجيلانية »[٩] ولم يكن هؤلاء من طائفة « الاكليروس » بل من « الشلبية »[١٠] أي السادة الاغنياء الذين يجدون متعة كبيرة في السفر ايام

---

(٧) سفر الملوك واحد من كتب موسى الخمسة التي تؤلف التوراة ، وهو يتألف من ستة اسفار ، صموئيل الاول وصموئيل الثاني (الملك داود) وسليمان ودانيال واليشع واخبار الايام .

(٨) ليست هذه العادة من تقاليد طوائف الدراويش كما توهم المؤلـف ذلك وانما القصد منها هو معالجة بعض الامراض بطريقة الكي هذه وما تزال هذه الطريقة شائعة حتى الان لدى بدو الصحراء وحتى بعض سكان الارياف في الاقطار العربية .

(٩) سماهم المؤلف باسم الجماليون Geomalers وواضح ان المقصود بذلك هم الجيلانيون اتبـاع الشيخ عبدالقادر الجيلاني

(١٠) الشلبي و « الجلبي » ـ بالجيم الفارسية ـ كلمة تركية تطلق علـى التاجر والغني وما تزال هذه الكلمة مستعملة في العراق وسوريا حتى اليـــوم .

الشباب وتحت مظاهر القدسية مثل الحجاج الذين يعيشون على حساب الغير فيجوبون بلدانا ومسالك عديدة بقصد المشاهدة والاطلاع ، والتعلم والالمام بالتجارب •

كان هذا الشاب يرتدي صداريا ازرق اللون يغطي جسمه . ويتمنطق بحزام من الشاش ، وينتعل نعيلن من جلود الشياه بالشكل الذي اعتاده اعراب الصحراء •

كذلك كان يسافر معنا رجلان اخران أيضا كان واحد منهما يضع في كل من اذنيه قرطا كبيرا سميكا سمك الاصبع يتدلى من شحمة اذنه على كتفه • وكان هذان الرجلان ينتميان الى طائفة تعرف باسم « القلندرية »(١١) • وهؤلاء يحيون حياة قاسية مضنية اذ انهم من النساك الذين يجوبون القفار ويصلون الى اي مكان يستطيعون الوصول اليه •

وقد اعتاد هؤلاء ان يقيموا الصلوات والاذان خمس مرات في اليوم ، مثلما يفعل ذلك المؤذنون من فوق مآذن المساجد • كان احد هؤلاء ينفصل عنا ، حين يحين وقت الصلاة ، فيرفع صوته عاليا وكأنه لا يريد ان نسمعه نحن من على ظهر السفينة حسب بل وان تسمعه الوحوش والحيوانات ايضا حتى اذا ما انتهى من صلاته عاد الينا ثانية وهو ينظر الينا نظرات ملؤها الجذل والورع •

اما زميله الاخر فكان درويشا من طائفة متزمته في تعاليمها فهو يؤدي صلاته بكل خشوع وحمية ولاسيما بعد ان تغرب الشمس حيث يفد عليه الاخرون فيقفون سوية في شكل دائرة ثم يبدأون « صلاتهم » ــ كما كنت اسمعهم ــ في صوت واطىء اول الامر ثم يرتفع درجة بعد اخرى حيث ترتفع اصواتهم بعبارة « لا اله الا الله » عالية تسمع من بعيد وهم لا ينطقون بعبارة

---

(١١) القلندرية يقصد بها طائفة الدراويش وهي كلمة تركية الاصل كما اعتقد

اخرى غيرها ويكررونها وهم يديرون رؤوسهم من ناحية الى اخرى وكأنهم ينظرون الى بعضهم البعض ليدللوا على مقدار حبهم بعضهم بعضا ، ومن ثم يسرعون في القراءة فلا تسمع منهم في النهاية سوى كلمة « الله »[١٢] الى ان يصيبهم الدوار ويتصبب العرق من ابدانهم • اما الامام فانه يبدأ يضرب صدره بقبضة يده وتنطلق منه نغمة غريبة ويظل يردد كلماته تلك الى ان يغمى عليه ويسقط على الارض شبه ميت واذ ذاك يلقي اصحابه عليه غطاء يدثرونه به ويدعونه راقدا وينصرفون الى حال سبيلهم[١٣] •

وبعد ان يظل الامام على تلك الحالة وقتا لا بأس به وقد فتن بصلاته او برؤيته الرؤيا ، يعود الى نفسه فينهض ويجلس امام القوة مرة اخرى •

وهؤلاء المشايخ وان كانوا يمارسون شعائرهم هذه بطريقة تفوق ، في نظرهم ، ما نص عليه الشرع ليحملوا الناس على الايمان بهم تبعا لصبرهم وقسوة عيشهم وغيبوبتهم ، فانهم قد يمارسون تحت ستار الطاعة السرقة والاعمال القذرة كما هو مألوف عنهم • ورغم ما يتظاهرون به من البساطة وعدم الحاق الاذى بالغير ، فان ما عرف من بدعهم وخبثهم قد افقدهم الاحترام ، ولم يعودوا يحصلون على المزيد من الهبات كما كان يحدث ذلك قبلا • اما طريقتهم الغريبة في اداء الصلاة فان ابناء دينهم يقولون عنها ان مثل هذا العابد اذا ما غير صوته الذي وهبه الله اياه الى صوت غير طبيعي فانه يكون بهذا قد تحول من انسان الى وحش !

---

(١٢) كتب المؤلف كلمة « الله » مضمومة بالحروف اللاتينية

(١٣) ان ما اتى المؤلف على وصفه هنا ليس صلاة ولا علاقة له بها مطلقا وانما هو ما يعرف بالاوراد او الذكر التي يعقدها اصحاب الطرق الصوفية بعد اداء صلاة العشاء في امسيات ايام الاثنين والخميس من كل اسبوع عادة . كما ان اشارة المؤلف الى صوت المؤذن المرتفع فيها نوع من التهجم البذيء لم يتجرد الاوربيون منه حتى الان .

وفي اليوم التالي سارت ملاحتنا سيرا حسنا فوصلنا عند الظهر الى قلعة حصينة تدعى « قلعة النجم »(١٤) تقع على الضفة اليمنى من النهر فوق ربوة ضمن اراضي امير العرب الذي خاض غمار حروب طويلة مع السلطان التركي ، وهذا ما استطعت ان افهمه ولو انني لا اعرف لغة القوم جيدا • ولم يستطع السلطان ان يلحق الضرر بالامير العربي لانه لم يستطع ان يتعقبه في الصحراء وذلك بسبب نقص الماء والزاد • ولقد بادر اكبر انجال الامير(١٥) فتحصن في هذه القلعة ظنا منه بانه سيكون بنجاة من اي هجوم خارجي عليه ، وبذلك ارتكب خطأ فظيعا • لان السلطان ما ان علم بوجوده هناك حتى عقد النية على احتلال القلعة رغم كل المصاعب التي تقف في وجهه • ولهذا الغرض استنفر كل قواته سنة ١٥٧٠ م وهاجم القلعة من ثلاثة اماكن في وقت واحد واستطال هجومه هذا اياما ثم استطاع بهجمة خاطفة ان يحتل القلعة ويقبض على ابن الامير وان يأخذه معه اسيرا الى اسطنبول • وقد قيل عنه انه قطع رأسه في السنة التالية •

وهذه القلعة محاطة باسوار قوية ، وفي داخلها برج عال ضخم ، وهي لا تزال في نظري قوية وان كانت قد تحولت الى خرائب وبقيت الثغرات التي فتحت فيها على حالها دون ترميم •

هبطنا اثناء الليل الى جزيرة صغيرة في النهر غير مأهولة دون ان يعترضنا معترض ، وقد كنا فيها آمنين شر الاعراب ، لكننا ما ان تناولنا طعام العشاء وذهبنا لنرتاح حتى اقبل بعض الاعراب عند منتصف الليل نحونا زاحفين على

---

(١٤) ذكر راوولف هذه القلعة باسم (غلانتزا Galantza) والصحيح انها « قلعة النجم » التي تقوم على جبل يطل على نهر الفرات وكان عندها جسر يعبر به الفرات الى « حران » وقد ذكرها ياقوت الحموي في كتابه معجم البلـــدان .

(١٥) مـــا اورده المؤلف هنا عن « امير العـــرب » او « الامير العربي » انمـــا يقصد به شـــيخ احدى القبائل العربية ليس الا

بطونهم وهم يقصدون بضاعتنا اكثر مما كانوا يريدون زيارتنا ، ولما لم يغامروا بالتوجه الى سفننا قبل ان ينكشف امرهم لدى حراسنا فقدا استقروا عند الشاطىء ، ولو لم ينكشف امرهم لاستطاعوا سرقة بعض الاشياء الثمينة وان كان من الميسور استعادتها منهم وذلك لعدم تمكنهم من نقله عبر النهر .

في اليوم الخامس من ايلول ظهر بعض الاعراب في باكر الصباح على الشاطىء ، وانتشر عدد كبير منهم الى مسافات بعيدة ، كما اخذنا نشاهد بعض افواج كان الواحد منها يضم ما بين اربعين وخمسين فارسا ، وقد استنتجنا من ذلك ان مضرب اميرهم غير بعيد عنا . وقد تأكد ذلك لنا حقا . فحين نزلنا على البر عند الظهر اقبل اصغر انجال الامير ممتطيا صهوة جواد ادهم عال يحيط به رجاله وهم يبلغون المائة عدا ، ومعظمهم يحملون السهام والرماح المصنوعة من القصب .

كان نجل الامير شابا يافعا في حدود الرابعة والعشرين او الخامسة والعشرين من عمره ، اسمر اللون يعتم بعمامة بيضاء من نسيج القطن تتدلى احدى نهايتيها الى الوراء بحوالي ذراع طبقا لعادتهم في الملبس . وكان يرتدي عباءة(١٦) طويلة مصنوعة من جلود المواشي مغطاة بالقماش وتمتد الى ركبتيه ، ومثل هذا كان يرتديه افراد حاشيته بحيث كان يصعب ، بهذا اللباس الشائع لديهم ، تمييز احدهم عن الاخر لو لم تكن حوافي تلك العباءات مطرزة باشرطة ذهبية كما اعتدنا في بلادنا ان نطرز حوافي صداريات الاطفال عند الرقبة والاردان ، ولم تكن اردانها طويلة وكانت بعض النقوش ظاهرة فيها .

ولما كانت الاتاوة تعود الى امير المنطقة العربية التي يجري نهر الفرات

---

(١٦) هذه العباءة التي ذكرها المؤلف هي المعروفة عندنا في العراق باسم « الفروة » ، وتصنع من جلود الاغنام ، وتغلف احيانا بقماش بني او ازرق اللون وتطرز حوافيها واردانها بالاشرطة . وبعض هذه الفروات تكون قصيرة الى ما فوق الركبة وبعضها الاخر يكون طويلا حتى القدمين وهذا النوع الاخير هو الشائع في ايران وفي المناطق الكردية من العراق .

فيها ، فقد اقبل نجله هذا للمطالبة بتلك الاتاوة وتسلمها . وهكذا وجدناه ينزل بجواده الى النهر ويخوض فيه متجها نحو السفينة التركية اولا ليرى ما تحمله من سلع ولما لم يجد فيها سوى القسح لم يمكث عندها طويلا وعاد الى سفننا ، وكان خدمه الذين يأتمرون باوامره قد سارعوا في مساعدته على الصعود الى السفينة واجلسوه على حزمة فيها ثم شرعوا يتجولون بين التجار يفتشون سلعهم فيفتحون هذا الكيس وتلك الرزمة ويأخذون من بعضها قليلا او كثيرا حسبما يشاؤون ولذلك كانوا يتأخرون بعض الوقت قبل ان ينتقلوا من تاجر الى اخر .

وفي الوقت ذاته جاء القوم بطفل نجل الامير هذا ، ولم يكن ليتجاوز السنتين ، الى ظهر السفينة وكان احدهم يحمله امامه على ظهر جواد ويسير به خلف ابيه . ولم يكن الطفل ليرتدي شيئا سوى قميص مصنوع من القطن وفي عنقه اطواق وفي رسغيه وقدميه اساور من الذهب العربي الخالص !.

واخيرا اقبل خدم الامير الينا ، انا ورفيقي ، وقد كنا في مؤخرة السفينة. وقبل ان نطلعهم على شيء من سلعنا شاهدوا بندقيتي وكانت مكسوة بعظم العاج فاخذوها مني في الحال الى سيدهم ليرونه اياها ، وهم في منتهى الدهشة والعجب اذ انهم لم يشاهدوا مثلها في حياتهم قط .

حمل نجل الامير البندقية بين يديه ، وسر برؤيتها سرورا بالغا ، وراح يردد قائلا انها من صنع بلاد الاجانب ، انها من صنع (الفرنك)[١٧] ، وذلك هو الاسم الذي يطلقونه على ابناء البلاد الاجنبية كالفرنسيين والالمان والايطاليين وغيرهم اذ لا يعرفون اية فروق او مميزات بين بلادنا . واذ ذاك تقدمت انا ورفيقي الى الامير فافهمناه اننا قد اقبلنا مؤخرا من تلك البلاد في طريقنا الى الهند .

(١٧) الفرنك والفرنجة هو الاسم العام الذي اطلقه العرب على جميع الاوربيين بلا تمييز ولكن الاسم في الواقع يخص الفرنسيين وحدهم

وبعد ان الم الامير بذلك اخذ يتحدث الينا برقة ، وامر حاجبه بان يتركونا ولا يفتشوا امتعتنا ، واخذ يطرح علينا اسئلة عن امور شتى ثم التفت الى رفيقي فانبأه بانه يظن ان قد رآه قبلا ، وكان ذلك حقا اذ كان رفيقي يعيش في حلب ويتعاطى صياغة الذهب فيها زمنا طويلا ، وكان هو وغيره يوفدون من لدن قنصل « فينيسيا »(١٨) في حلب الى الامير ، الذي لم يكن مكانه ليبعد كثيرا عن تلك المدينة ، حاملين اليه هدايا من ذلك القنصل كان من بينها ثياب غالية الثمن • وحين كان هؤلاء يفدون على الامير يقابلون من لدنه بترحاب عظيم وكرم بالغ ، ويريهم مشاهد من مختلف الالعاب•وقد يشاهدون لديه عددا كبيرا من الجند الاقوياء الشجعان ، ومن ثم يعودون منه مثقلين بكرمه ، ويعدهم بتوفير الامن واللطف لهم ولرؤسائهم • فاذا ما حدث واستعانوا به على الاتراك اقبل على مساعدتهم مخلصا ، دون ان يخالجه الشك باتفاقهم معهم ، اذ انهم يقطعون مسافات شاسعة داخل اراضيه الى ان يصلوا اراضي الاتراك بما فيها اسطنبول وغيرها •

غادرنا الامير الصغير عائدا الى مضربه الذي يقوم على تل عال وسط سهل لا يبعد سوى ميلين عنا ، واخذ معه بعض رفاقنا ليحدث أباه بما خبره من احوالنا •

كنت شديد الرغبة في ان احظى بمقابلة ابيه وانما احمل بندقيتي معي ، واد كان علينا ان نسافر عبر صحاري واسعة ، فلربما سر بذلك ، لكنني لم اجرأ ان افعل ذلك امام الجند الاتراك ، واليهود والمتسولين لانني خشيت ان يغدروا بي ويتهموني امام الباشا والقاضي اللذين يستطيعان انزال العقاب بي رغم براءتي ، كما اعتادا ان يفعلا ذلك ازاء الاجانب بل حتى تجاه ابناء

---

(١٨) فنيسيا Venice هي المعروفة بالبندقية وكانت من الممالك التجارية القوية في اوربا في ذلك العهد وهي اسبق من غيرها في اقامة العلاقات مع البلاد العربية .

جلدتهم . وما خلا ذلك فقد تذكرت بان امير العرب حين كان معسكرا على مقربة من حلب كان بعض رجاله يفدون على المدينة كل يوم لشراء الاغذية والملابس وغيرها وعلى اثر ذلك صدرت الاوامر في حلب تحظر بيع اية اسلحة لهم ينقلونها معهم الى الصحراء .

وبعد ان انتظرنا اصدقاءنا بعض الوقت عادوا الينا . وقد منعنا من الذهاب الى أي مكان في ذلك اليوم لان الوقت غدا متأخرا ، وعلى هذا مكثنا في مواضعنا طيلة الليل .

ولقد قال لنا رفاقنا ان الامير لم يصدق قولهم حين انبأوه باننا قد وفدنا من حلب بل ظن اننا جئنا من « صفد » ، وهي مدينة على بعد مسيرة يوم واحد من « صيدا »[١٩] التي كان السلطان التركي قد سلبها منه قبل مدة قصيرة ، وهذا قد يعطيه الحجة في حجزنا نحن وامتعتنا ، ولذلك راح يصر على رأيه في هذا ، وقال انه قد يبعث ببعض رجاله الى حلب مع احدنا للتأكد من حقيقة امرنا الى ان تثبت له ، بما نحمله من رسائل ، حقيقة المكان الذي جئنا منه ، واذ ذاك سيسمح لنا بمواصلة السفر .

على ان الشيء الذي فهمته فيما بعد ، هو ان الامير لم يفعل ذلك الا لكي يضغط علينا بقصد الحصول على الهدايا ، وهو يتلقاها فعلا ، حيث اضطر رفاقنا الى ان يقدموا له بعض المدي المطعمة بالفضة التي جلبوها من دمشق وكذلك بعض الاقمشة الحريرية الدمشقية[٢٠] .

---

(١٩) صفد Saphet من الموانيء المعروفة في فلسطين على مقربة من حدود لبنان اما صيدا Sidon فهي من الموانيء الجنوبية في لبنان وهي من المدن القديمة جدا .

(٢٠) هذه الهدايا وغيرها هي الاتاوة التي كان المتنفذون من السكان على طرق القوافل يأخذونها من اصحاب تلك القوافل وهي تعرف عندنا باسم « الخاوة » وقد ظلت سارية المفعول حتى اواخر العشرينات .

تحركنا في السادس من ايلول مبكرين فمررنا بين بواد مقفرة تكثر فيها الخنازير البرية التي كانت تتجمع على شكل قطعان احيانا . وكانت هذه البوادي تمتد الى مسافات شاسعة ولهذا لم نشاهد طيلة النهار سوى الاشجار الى ان حل المساء ووصلنا الى « القلعة »[٢١] وهذه عبارة عن حصن وقرية تقع على الجانب الايسر من النهر ، ولا تبعد عن حلب اكثر من مسيرة يومين ، وتقوم في سهل تستطيع من رؤيته ان نعرف المجرى المتعرج الذي كان يسير فيه النهر قبلا . وهذه القلعة ملك لاحد الباشوات ويدعى « جون رولانا »[٢٢] وهو يمتلك بالاضافة الى ذلك ، دارا جميلة في حلب . وينعم هذا الباشا بأيرادات وفيرة وله ستون ولدا منهم ستة او سبعة اولاد يحمل كل واحد منهم رتبة لواء ، في حين يعيش الباقون منهم في بلاط السلطان التركي .

ولقد امضينا الليل كله ، على الجانب الاخر من النهر فيما وراء هذه القلعة في ارض خلاء تمتد الى مسافات بعيدة ، ولم نشاهد طيلة اليوم التالي سوى بضعة اكواخ للاعراب متناثرة هنا وهناك ، كان كل واحد منها يستند على اربعة اعمدة ويغطي باوراق الشجر وفي داخل هذه الاكواخ كان يعيش عدد كبير من الاطفال كنت اعجب غالبا من كثرتهم ، وكانوا وهم في باكر طفولتهم يهرعون الى النهر ويتعلمون السباحة فيه بصفة جيدة الى درجة انهم كانوا يسبحون في عرض النهر دون خوف .

وحين مضينا في سبيلنا راح العرب يحييوننا ، ولو لم يحل البعد بيننا وبينهم عليهم الاسئلة ولا سيما عن المكان الذي يقيم اميرهم فيه اذ انهم

(٢١) يغلب على ظننا ان هذه القلعة هي مدينة « بالس » القديمة التي وردت بهذا الاسم في مؤلفات البلدانيين العرب ، وقد فتحها المسلمون من دون قتال بقيادة ابي عبيدة وقد ازدهرت المدينة في العهد الاسلامي ثم ضعف شأنها بعد عهد سيف الدولة الحمداني واستولى الصليبيون عليها سنة ١١١١م وكانت تابعة لحكم (تنكرد) صاحب انطاكية

(٢٢) جون رولانا John Rolanat لعله من بقايا الامراء الصليبيين الذين اثروا البقاء في سوريا بعد طرد الصليبيين من فلسطين وسوريا ولبنان

يولونه قدرا كبيرا من الاحترام ، رغم تنقلهم وتجوالهم ، فهم يظهرون له الطاعة الجماعية بشكل لا تظهره اية امة اخرى لرؤسائها ، ومن هذا نستطيع ان نتأكد بان أيا من الاجانب كان يجتاز هذه الاراضي ويحاول ان يرى اميرهم كان يسمح له بذلك شريطة ان يرتدي مثل ملابسهم وان يصحب احد المسلمين معه ليدله على الطريق وليكون ترجمانا له ، واذ ذاك يبدون استعدادهم لارشاده الى الطريق الذي يسلكه للوصول الى الامير ، ويدعونه يمر دونما مضايقة او تفتيش حين يرون احد ابناء جلدتهم بصحبته . وهذا هو السبب الذي يدع الكثيرين من العبيد في اطراف الجزيرة العربية يسارعون الى الهرب دون كبير عناء او خطر .

وكانت نساء الاعراب تقبل علينا عادة وهن يحملن اللبن في صحون واسعة يعرضنه للبيع . ولذلك كثيرا ما كنا ننزل الى البر فنأخذه منهن ونقدم لهن البسكويت لقاء ذلك بسبب حاجتهن القصوى الى القمح كما ان مثل هذه المقايضة تسرنا نحن بدورنا .

ولقد اعتدنا ان نأكل هذا البسكويت باللبن وقت الغذاء او العشاء . وحين يكون اللبن احيانا كثيفا او تكون كميته قليلة لا تكفينا ، نعمد الى اضافة كمية من الماء اليه .

وقد تضع الاعرابيات هذا اللبن احيانا في اكياس من الكتان فلا يتسرب منها حيث اعتدنا ان نعلقه في السفينة مدة يومين او ثلاثة الى ان يتكثف ويتحول الى خثارة وعندئذ نستعمله مع البسكويت والبصل اوقات الفطور واوقات العشاء .

وكنت اغتنم الفرصة حين نزولنا الى اليابسة فاروح افتش عن النباتات الغريبة في المكان . ولقد عثرت على انواع خاصة من نبتة «الازهار المحززة»(٢٣)

---

(٢٣) Schoenantum تكون اوراقها محززة وهي من الفصيلة الباذنجانية

وهي تشبه النوع المعروف منه في بلادنا لكن ليس لها ذات ميزاته ، ونوعا من شجر العجرم[٢٤] من فصيلة ذكرها المؤرخ « كلوفيوس » وهو ذو اوراق سيكة تشبه شجرة « الودنة »[٢٥] فضلا عن السذاب ونوعا غريبا من الصفصاف يسميه السكان باسمه القديم هو « الغرب » ، بالاضافة الى الطرفاء وهي من انواع كبيرة وعالية تشبه اشجار التوت والنخيل مما يمكن مشاهدتها من بعيد بسبب ضخامتها وارتفاعها وهي تشبه الطرفاء في بلادنا لكنها اكثر ضخامة وارتفاعا ، واوراقها طرية ذات رؤوس وردية الالوان .

والمسلمون في الغالب يطعمون مواشيهم من الادغال التي تنمو على ضفاف النهر ذلك لانه لا يوجد في الفيافي والصحارى ، حين تكون الارض رملية هشة وقاحلة ، سوى القليل من الاعشاب او الزرع ، مما يجعل الخبز نادرا بين سكانها فلا يرون منه شيئا لمدة طويلة حيث يضطرون الى تناول اطعمة اخرى كالسمك والجبنة واللبن والودك دون ان يستعملوا الخبز معها . فهؤلاء الفقراء لا يصيبون سوى وجبة بسيطة من الغذاء ومع ذلك فهم اقوياء وفي صحة جيدة ويقضون اعمارا جيدة .

وفي المساء وقبل ان يسدل الظلام سدوله ، شاهدت على الجانب الاخر من ارض الرافدين حصنا يقوم على تل مرتفع يدعونه « تبيل »[٢٦] يعود الى احد الامراء العرب ، وهو حصين وواسع جدا تقوم على اسواره عدة ابراج ، شبيه بقلعة حلب ، كما لاحظت ذلك عن بعد .

---

(٢٤) Rhanus شجرة شوكية من نوع العفص او العجرم

(٢٥) Housleeke نبات الودنة شجيرة ذات سوق سميكة وازهار وردية اللون .

(٢٦) المعتقد ان هذا الحصن الذي اطلق عليه راوولف اسم (تابر Taber) هو الحصن الذي تقوم عنده الان قرية « تبيل » شرقي الفرات على مقربة من مدينة « الرقة » .

مكثنا الليل في جزيرة قريبة من الشاطىء الايمن ، وكدنا ان تتعرض للسرقة لو لم يكن لدينا حراس . وكنا نراقب اللصوص ، ونطلـــق بعض العيارات النارية التي لم نقصد بها اصابتهم بل اخافتهم حسب ، ذلك لاننا لو قتلنا او جرحنا احدا منهم لارتفع صراخهم ، ولربما تجمعوا بالالوف انتقاما منا لرفيقهم واذ ذاك ينهالون علينا وينهبـون كل ما لدينا من متـاع وهـم متشوقون لمثل ذلك جد التشوق .

ولقد حدث الشيء ذاته في اليوم التالي حين نزلنا جزيرة غير مأهولة وسط النهر فلم نطلق عياراتنا النارية في تلك الليلة كيلا ندعهم يتحسسون مواقعنا وينقضون علينا ، ومع ذلك فحين قررنا ان نظل ساكنين وان نستريح في هدوء تام ، الموا بمواقعنا فاقبلوا في جماعات اكثر من ذي قبل ، واقتربوا بحيث كنا نسمعهم وكانوا يتحدثون الينا ، واذ وجدناهم جادين في مهاجمتنا ، نهضنا من اماكننا وتهيأنا للامر وهتفنا بهم باصوات عالية تنذرهم من مغبة اي اعتــداء ينوون توجيهه ضدنا والا فسنجابههم بمقاومة اشد مما يتوقعونه ، وحين وجدنا ان تحذيرنا ذاك لم يكن مجديا اضطررنا الى ان نسحب بنادقنا ، وكنا نحتفظ بثلاث منها ، فاطلقنا الرصاص الذي اخافهم ، لانهم لم يعتادوه ، فولوا الادبار هاربين وتركونا مطمئنين(٢٧) .

وما خلا هؤلاء كنا نشاهد كل يوم ، ونحن سائرين في النهر ، اعـدادا كبيرة منهم منتشرين فيه ، والبعض منهم يستخدم جلودا منفوخة بالهواء ليقطع بها النهر ولا سيما حين يكون واسعا في بعض الاماكن ولايمكن اقامة جسر فوقه

---

(٢٧) يصف المؤلف بعد هذا في جملة سطور ، العرب بالكسل وبشـدة العوز وقد فاته ان الاعراب الذين شاهدهم في طريق رحلته جلهم من البدو المتنقلين والذين لم يألفوا حيـاة الاستقرار وممارسة الزراعة وغيرها . ولذلك فان وصفه للعرب بالكسل والفاقة ، ينطوي على غلط مشين ، لانه لو توفرت لديهم وسائل الاستقرار في ذلك الوقت لما الفوا حيـاة التنقـل والتجـوال .

حيث لم نر اي جسر اطلاقا • وتراهم يخلعون قمصانهم وهم لا يرتدون شيئا اخر سواها ثم يكورونها ويربطونها باحزمتهم الجلدية فوق رؤوسهم ويخفون فيها خناجرهم الجميلة العريضة المنحنية التي تشبه المنجل يعلقونها في صدوغهم •



مرت الليلة التاسعة من رحلتنا في مرح وقد اصبحنا على مقربة تامة من مدينة « الرقة » التي تعود الى السلطان التركي[٢٨] • غير ان فرحتنا لم تدم طويلا • فقبل ان تتناول الطعام وبعض الفواكه من امثال الزبيب والتين والبطيخ لنبرد به غلتنا ازاء وهج الحر الشديد ، تعرضنا مرة اخرى لخطر اكبر من الخطر الذي اصابنا قبلا ذلك ان سفينتنا ، وهي الكبرى ، ما لبثت ان شلهت فرست على الرمل ، ولم نستطع اعادتها الى الماء ، وتسييرها في الاتجاه الصحيح فيه دون مساعدة الاخرين ، واذ ذاك اضطررنا الى الاستعانة بالاعراب ولما كان هؤلاء يحملون خناجرهم وهراواتهم فلم نطمئن اليهم ، وابقينا قوة من الحرس داخل السفينة ، بينما راحت بقيتنا تحاول دفع السفينة وتحريكها واذ لم نستطع ذلك حاولنا افراغ السفينة من حمولتها وسحبها الى الماء لكننا وجدنا في مثل هذا الاقتراح مخاطرة بالبضاعة التي نملكها ولذلك استقر الرأي بيننا على ان نسحب السفينة الى مجرى اخر ، واذ سألنا الاعراب مساعدتنا ووجدناهم

---

(٢٨) الرقة وتسمى نقفور ونسفوريم يذكر العرب عنها انها كانت حاضرة ديار مضر في بلاد الجزيرة اسمها القديم كالينيكوس Kallinikos ذكر المؤرخ « ابيان » ان الذي بنى هذه المدينة هو سلوقس خليفة الاسكندر الكبير في العراق وسوريا وقد اخذت اسمها هذا من سلوقس الثاني كالنكوس الذي شيدها سنة ٢٤٢ ق.م. نزل العرب المسلمون الرقة سنة ١٨ هـ (٦٣٩م) بقيادة « عياض ابن غنيم » وقد سلم بطريق المدينة مفاتيحها الى المسلمين ففتحوها صلحا .

جادين فيها ووعدناهم بمكافأة طيبة ، على ان يتركوا اسلحتهم جانبا ، تخلوا عن تلك الاسلحة واقبلوا علينا وعندئذ استدعينا الحرس الذين ابقيناهم في السفينة لمشاركتنا ، وبعد جهد نجحنا في ايصال السفينة الى الماء العميق ، ودفعنا الى الاعراب ما وعدناهم به من مكافأة ، وواصلنا مسيرتنا في تلك الليلة الى مدينة « الرقة » .

الفصل التاسع

مدينة الرقـة وموقعها ، بعض الامور عن مغادرة شيخ البادية وحاشيته مع السلطان التركي ، المتاعب التي جابهتنا مع مأمور الكمرك التركي

الرقة ، وهي من مدن ما بين النهرين ، تقع في الصحراء العربية على نهر الفرات العظيم بين مرتفعين ولذلك لا تستطيع ان ترى أي شيء منها قبل ان تدنو منها ، وفي المدينة قلعة يقيم فيها امير لواء تابع للسلطان التركي وتحت امرته الف ومائتان من الجنود للمحافظة عليها •

والمدينة واهية البناء غير محاطة بسور ، وقد شيدت بعد خراب المدينة القديمة التي كانت تقع في الجانب المرتفع منها ، كما يشاهد ذلك من بقايا سور ، وبعض القناطر والاعمدة القديمة ، وبعض الاثار الشاخصة هناك حتى الان ، ومنها بناية عالية قديمة لا تزال محتفظة بقوتها وضخامتها وان كانت اجـزاء كبيرة منها قد تهدمت وتحولت الى انقاض • ويندر ان يرى المرء مثل هـذه البناية مما يوحى مظهرها بانها ربما كانت قبلا مقرا للملوك او العظماء •

وتقوم بين المدينتين القديمة والحالية قلعة قديمة وقويـة ايضا ، فيها حامية تركية ، اذ انها تقع عند تخوم بلاد العرب او فارس للدفاع عن البلاد من الخطر والغارات •

وما خلا ذلك فالمدينة مهدمة واراضيها خالية وليس فيها مكان ملائـم يستطيع الاتراك ان يمارسوا فيه السباق واللعب بالعصي وغيرها ، حيث غالبا ما كنت اجلس على الاسوار المتهدمة ، وانظر اليهم اثناء لعبهم •

ويعزى خراب هذه المدينة في الدرجة الاولى الى التتر وملكهم هولاكو[1] الذي استولى عليها سنة ١٢٦٠ ميلادية ، وذلك بعد مدة قصيرة من استيلائه على حلب وقلعتها بمساعدة « آ جتون »[2] ملك ارمينيا .

ويدعى البعض ان هذه المدينة هي مدينة « رغيس »[3] التي تسمى « اديسا » ايضا[4] حيث بعث « بيوس طوبيا »[5] بولده من نينوى الى صديقه « غابيل »[6] في هذه المدينة ليسترد منه النقود التي اقرضه اياها .

ولما كانت هذه المدينة تقع على مسيرة يوم من نهر الفرات فانها لا يمكن ان تكون هي المدينة المقصودة .

بعد ان نزلنا هناك اقبل علينا ملتزم الكمارك[7] ممتطيا صهوة جواده الى الشاطىء وطلب الى ربان السفينة التركية بان يسلمه الاسلحة والرماح والقسي لانها محظورة اطلاقا . ولم نشهد مثل هذا التصرف من لدن موظفي الكمارك قبلا ، ولذلك دخل هذا الموظف مع ربان السفينة في خصام حاد ، واخذ احدهما

---

(١) هولاكو وقد دونه المؤلف باسم هالونو Haalono

(٢) اجتون Ajton لم نعرف عنه شيئا فيما توفر لدينا من مصادر .

(٣) هذا هو الاسم الذي عرفت به الرقة لدى الاوربيين Rhages

(٤) اذيسا Edyssa هو الاسم اليوناني لمدينة الرها او اورفه ولا صلة لها بالرقة لان اورفه تقع على الفرع الايسر من نهر البليخ وعلى طريق القوافل الموصل الى حلب .

(٥) بيوس طوبيا Pious Tobias ويعرف باسم « طوبيا البار » يهودي من سبط « نفتالي » عاش في نينوى وله سفر ذكر فيه مغامراته مع الملاك روفائيل لم يعثر على نصه العبري لكن بقيت مقتطفات منه باللاتينية .

(٦) غابيل Gabel صديق ابراهيم الخليل

(٧) لم يكن الرسم الكمركي معروفا لدى الاتراك او العرب انذاك ولم يكن هذا الملتزم سوى رسول من حاكم المنطقة لاخذ الاتاوة من القوافل والسفن .

يهجم على الاخر بدرجة اننا لم نستطع في ذات الوقت ان تتدخل بينهما مما ادى الى نشوب جلبة وضوضاء .

والسبب الذي دعا ذلك الموظف الى مثل هذا التصرف هو ان قافلتنا لم تكن متجهة الى « ديار بكر » ، المدينة التي تبعد مسيرة اربعة ايام من هنا وتقع على ضفة نهر دجلة السريع الجريان ، كيما يستطيع ان يحصل منا على مقدار كبير من الرسوم يستخلصها لنفسه وحده . لكن ربان السفينة ، وهو تركي ، لم يكن يحمل في سفينته شيئا سوى القمح ولذلك لم يستطع الموظف ان يحصل منه على شيء فتركه واقبل علينا نحن الغرباء وهو يفكر في ان يصيب منا ما يعوض به عما اصابه من خسران ، وان يخيفنا في سبيل هذه الغاية .

ولذلك امضى الليلة في السفينة معنا ونام بيننا لانه كان يخشى ان نبادر الى اخفاء بعض السلع عنه ، وكان في بعض الاحيان يخاطبنا بكلمات غليظة ، كما كان يردد قوله « انظروا ليس مسموحا لنا ان ندع الاجانب يجتازون هذه البلاد ولذلك فليس امامه والحالة هذه سوى ان يقبض علينا بصفة جواسيس»، وهذا هو الامر الذي اكتشفه دون غيره ، وذلك امر يكفي لحجز سلعنا ولارسالنا بتهمة التجسس الى اسطنبول لنصبح ارقاء لدى سيده السلطان الاكبر !

وبعد ان استمعنا الى حديثه الخالي من الصواب والعقل ، وعرفنا محاولته خداعنا لم نشعر بالخوف أبدا بل ، اخرجنا جواز سفرنا الذي حصلنا عليه من باشا حلب وقاضيها واريناه اياه ، واذ تطلع فيه مليا تأكد لديه ان ليس في مقدوره ان يتصرف تصرفا سيئا ازاءنا ، وعندئذ ابتعد عنا ساخطا ، وشرع يخاصم تجار السفينتين سوية ويطالبهم بدفع ضريبة كبيرة ضجوا بالشكوى المرة منها ، لكنه استمر في مطالبته ولم يقبل باية شروط معقولة ، بل اكثر من هذا حمل مجاديف السفن معه ليحول بذلك دون سفرنا وليضغط علينا لتلبية طلبه .

ومع ان التجار وجدوه مجدا فيما اقدم عليه الا انهم لم يأبهوا به كثيرا ، ولذلك بعثوا بواحد منهم في الحادي عشر من ايلول مع احد الاعراب[٨] الى ديار بكر حيث يقيم الباشا الكبير هناك ، وهو نجل « محمد باشا » ليرفع اليه الشكوى عن هذه المضايقات والعقبات . وما ان علم موظف الكمرك بذلك حتى تعقب الرجل مع ابنه في الحال .

لم يستطع رسولنا مواجهة الباشا لانه كان انذاك في مكان اخر يدعى « الجزيرة »[٩] ولذلك طلبه رسولنا الى مسافة ثلاثة ايام من هناك .

ولقد عاد موظف الكمرك وانبأنا كذبا بان اوامر الباشا تقضي بان ندفع له الضريبة بنسبة عشر « دوقات » في المائة . ورغم ذلك لم يعرف رفاقنا عن هذا الامر شيئا ولم يثقوا بما قاله ، لكنه استطاع ان يخرج احسن واعظم جزء من سلعهم قبل ان يقدم الى السفن لتفتيشها وان كان البعض منهم قد دفنوا بعض بضائعهم ليلا في الرمال ولم يعثر الاتراك ولا الاعراب الذين كانوا يمرون في وضح النهار على اثر لتلك البضائع الدفينة .

وفي صباح اليوم التالي اقبل الموظف مع رجاله ففتشوا بعناية وحذر كبيرين كل شيء لدينا ، وكان يحمل أوامر خاصة بذلك ، ولكنه لم يعثر على شيء مما توقعه على مقربة من المكان . وحين كان منهمكا في عمله هذا عاد الرسول الذي بعثنا به فاخبرنا بان الباشا كان غير ممتن من المعاملة الظالمة التي عاملنا الموظف بها خلافا لاوامر وقوانين رئيسه السلطان الاكبر ، اذ احتجزنا مثل هذه المدة الطويلة ومنعنا من الملاحة في النهر . ولذلك كتب الباشا الى امير اللواء الذي في جهتنا ، وامره ــ مهددا اياه بالاعدام ــ بان يتخذ كل

---

(٨) اعتاد المؤلف ان يطلق اسم المسلمين على الاعراب بقصد تمييزهم عن الطوائف الاخرى كالمسيحيين واليهود .

(٩) الجزيرة سماها المؤلف باسم غزليت Giselet والذي نراه ان المقصود بذلك هي « جزيرة ابن عمر » التى تدخل الآن ضمن اراضي تركيا .

الاجراءات التي تكفل عدم احتجازنا طويلا ، وان يقبض على موظف الكمرك ويبعث به مخفورا الى اسطنبول ليقدم الى المحاكمة التي تعقد مرة واحدة كل خمسة عشر يوما .

ولقد خشي الموظف كثيرا مما سمعه لانه قد يدفع حياته ثمنا لجريمته معنا .

وفي الوقت الذي بقينا فيه محتجزين كالاسرى على ضفة نهر «بابل»[١٠] ونحن ننتظر بفارغ الصبر ساعة اطلاق سراحنا ، غادر شيخ البادية وحاشيته من هناك في اليوم الحادي والعشرين من ايلول متجها الى الجنوب في اعداد كبيرة من رجاله ، بحثا عن مرعى افضل لمواشيه وخيله وابله ودوابه ، يعوض به عن مكانه السابق والذي لا يوجد فيه الكثير من القرى والاسواق التي قد يقيمون فيها طويلا . كما ان هؤلاء الاعراب لا يرغبون في الاشتغال في الزراعة، ولا في التجارة ، بل يكتفون بقدر كبير من الماشية والمزيد من الاعشاب لاطعامها والقيام باودها . ولذلك تراهم حين يصلون الى جدول تنمو عنده الحشائش والادغال يسارعون الى اقامة خيامهم على مقربة منه ويمكثون هناك الى ان تضطرهم الحاجة الى الرحيل والبحث عن مكان اخر غيره .

وعند الرحيل يأخذ الاعراب معهم كل رجالهم ونسائهم ومواشيهم وحاجياتهم حسبما شاهدتهم على تلك الحالة في هذا الوقت حين اقبلوا على هذه المدينة باعداد كبيرة الامر الذي دفع بالاتراك الى ان يغلقوا ابوابهم طيلة اربعة ايام ، حتى انتهى مرور اولئك الاعراب بالمدينة . وكنت اراهم وهم على ظهور الخيل مسلحين بالرماح والسيوف والقسي وغيرها . وهم يفعلون ذلك نفسه حين يمتطون ظهور الابل التي يملكون اعدادا كبيرة منها ولاسيما عندما ينتقل شيخهم من مكان الى اخر كما ذكر لي ذلك البعض منهم ، فقد يصل عدد تلك الابل ، بصفة عامة ، الى مائة وخمسين الف رأس . ولقد شاهدت انا بنفسي في

---

(١٠) يقصد به المؤلف نهر الفرات على اعتبار ان بابل الشهيرة تقع عليه .

احدى المرات ما بين ثلاثة الاف واربعة الاف بعير • وهذه الابل من الحيوانات القوية الصبورة الملائمة لحمل الاثقال ، اذ انها تتحمل العطش في الحر الشديد لمدة ثلاثة ايام متوالية وهي تتبول بين سيقانها الخلفية ولذلك ينبغي على الذين يسيرون وراءها في القافلة ان يكونوا على حذر تام كيلا تصيبهم ببولها !•

ولما كانت خيول الاعراب اصيلة ونظيفة ومناسبة للركوب ، فانه يندر ان يطعموها اكثر من مرة واحدة في اليوم ، ولو انهم يمكثون على ظهورها طيلة يوم كامل ويقطعون بها مسافات طويلة من الارض الخلاء • والمعتاد ان يجزوا الشعر من اطرافها وذيولها فتغدو ذيولها تلك اشبه بذيل الاسد • وهم يركبون نساءهم الحمير الصغيرة ، وكذلك الابل مع اطفالهم ، اذ يجتمع كل ثلاثة او اربعة منهم سوية في صناديق(١١) ، كما هو مألوف في بلادنا الاوربية • وهم سمر الالوان اشبه بالغجر عندنا • ويؤلف العبيد السود زهاء الربع منهم ولكن اختلاف اللون ينجم عن كثرة السفر والتجوال من مكان الى اخر يكثر السود فيه ، وقد يتخلون عن زوجاتهم ليتزوجوا من السود في المكان الذي يأوون اليـــه •

ولا يضرب شيخ البادية هنا خيامه دوما الا في الحقول ولا يقيم في اماكن مقفلة او محاطة ، غير ان مثل هذا قليل في الوقت الحاضر ولا سيما بعد ان نكب بفقدان ولده • ولذلك اخذ يتنقل من مكان الى اخر اشبه بسعاة البريد فلا يعرف احد مستقره • فهو يصعد اثناء الصيف الى اقصى الشمال بينما ينحدر في الشتاء الى الجنوب ، وبذلك يتجنب الحر والبرد معا ، ويصيب امتعة وزادا افضل له ولرجاله ومواشيه • وقد يحدث كثيرا ان يقترب الاعراب في مسيراتهم هذه من المناطق التركية ، وان يقترب الاتراك ، هم بدورهم ، من المناطق العربية،

---

(١١) يقصد بهذه الصناديق الهوادج ، جمع هودج ، التي يستعملها البـدو لنقل نسائهم واطفالهم فيها حيث يوضع هودج واحد على ظهر كل بعير وتركب فيه امرأتان على الاقل مع عدد من الاطفال •

ولذلك كانت تنشب بين اميرين كبيرين من الطرفين خلافات تؤدي الى حروب دموية • ومع ذلك وعلى الرغم من هذا كله ، فقد علمت بان التفاهم قائم بين الطرفين ، اذ تم الاتفاق بينهما على انه في حالة دخول سلطان الاتراك في حرب مع جيرانه .فان على امير العرب ان يهب لنجدته والدفاع عنه. ذلك لان السلطان حين يكتب الى امير العرب يكتب اليه كأبن عم وصديق له ، ويدفع اليه ستين الف دوقة سنويا كمرتب او اجرة مقطوعة • وفضلا عن ذلك يبعث السلطان الى شيخ البادية الجديد ، الذي يأتي في اعقاب وفاة الشيخ القديم ، بكسوة تحمل شارته بالاضافة الى الهدايا الاخرى ، والاحتفالات الاعتيادية ، ويهنؤه بوصوله الى العرش ، ويجدد ويؤكد تحالفه معه • وتساهم دياناتهما المشتركة بقسط غير ضئيل في هذا الشأن فبالاضافة الى شعائرهما والنقاط الاخرى المشتركة تتمسك امتاهما بذات العقيدة • والاعراب ، مثل الاتراك ، يتزوجون بنساء كثيرة ولا تعظم الواحدة من نسائهم نفسها امام الاخرى لانهن منحدرات من اباء طيبين ولذلك لا تستثني واحدة منها – باعتبارها من ذرية عظيمة – من النهوض باعباء العائلة ، ولا تخضع الفقيرة منهن الى الاخرى لانها تحدرت من ذرية فقيرة • فقد كانت احدى زوجات امير العرب مثلا ابنة رجل يملك معملا للنجارة في الرقة فهي وان كانت من اصل واطىء الا انها كانت محترمة مثل بقية الزوجات ، وابوها واخوتها من الرجال المحترمين ، وقد اقبلوا الينا وابدوا اسفهم للاذى الذي اصابنا على يد جابي المكوس •

★ ★ ★

خلال اقامتنا هناك اقبل علينا شاب عربي نبيل ذو قرابة مع شيخ البادية وكان يصحبه عشرون عبدا مجهزين بالقسي والرماح • كان هذا الشاب يعتم بعمامة بيضاء جميلة ويرتدي قفطانا طويلا بنفسجي اللون مصنوعا من الصوف في حين كان عبيده حفاة يلبس البعض منهم طرابيش سوداء وثيابا من النيلة

الزرقاء ذات اردان واسعة ، ويتمنطقون فوقها باحزمة جلدية يعلقون بها خناجرهم المعقوفة كما هي عادتهم في الملبس .

وحدث ان كان البعض منا ذات مرة فوق اسوار المدينة العالية فشاهدنا تحتنا منظرا جميلا في الوادي الذي يجري فيه نهر الفرات الكبير ، اذ اقبل الينا ذلك الشاب النبيل نفسه فجلس مع حاشيته قبالتنا وقدم الينا بعض الزبيب والحمص الجاف فتقبلنا منه ذلك شاكرين . ولكي نظهر شكرنا له قدمنا له نحن بدورنا شيئا من اللوز والجوز والتين وبعض الحلوى التي جلبناها معنا من حلب ، فتقبلها منا بكل رقة ، حيث شرعنا كلنا نأكل ذلك سوية حتى اذا اتينا على ذلك كله ، استدعى الشاب احد موسيقية فامره ان يعزف لنا مقطعا من موسيقاه وكانت الالة التي يعزف عليها شبيهة عند رقبتها بالقيثارة وكنا نتوقع ان نسمع منها انغاما نادرة لكنني حين نظرت اليها وجدتها لا تحوي سوى وتر واحد اشبه بالاوتار التي يستعملها العرب في قسيهم[١٢] . ثم شرع يعزف بعض انغامهم بفن ولباقة تثير المرء بيسر ، وظل يوالي العزف طيلة ساعتين ورغم طول الوقت فقد سررنا بعزفه كثيرا .

على مقربة من النهر عثرت على نوع من شجر الاكاسيا يحمل ثمارا حمراء وغبراء اللون يدعوها الأعراب بالشوك والشاموت كما وجدت بعض الاشجار الاخرى التي يسمونها بالعاقول ويذكر « ابن سينا » ان (المن) يسقط بصفة رئيسة في مقاطعة (خراسان)[١٣] .

وبالاضافة الى ذلك هنالك عدد من انواع الطحالب واعشاب صغيرة ذات سيقان واطئة ذكرها (ديوسقوريوس) ، واخرى غيرها من انواع ثانية

---

(١٢) هذه الالة الموسيقية التي ذكرها الرحالة هي الرباب العربية وهي أصل القيثارة التي انتشرت في اوربا وغيرها وما تزال تحمل ذات الاسم العربي — مع ابدال القاف كافا معجمة (گيتار) .

(١٣) خراسان Corascone احدى الولايات الشهيرة في بلاد ايران

وصفها العالم كارولوس كلوفيوس وصفا صحيحا في الفصل الخامس والاربعين من المجلد الثاني من مؤلفه عن « تاريخ النباتات في البلدان الاجنبية » .

وهناك انواع اخرى لاعشاب لطيفة وغريبة تنمو بكثرة في الرمال . ولكل واحدة من هذه النباتات ما بين خمسة وثمانية اسواق يدخل احدها في الاخر ولها مفاصل كثيرة ولذلك تنمو وهي تزحف فوق الارض اكثر مما تنمو قائمة . وتنبثق من كل واحدة ثلاث او اربع اوراق مدورة تشبه اوراق شجر السماق[١٤] او الزعتر[١٥] وتظهر فوق كل نبتة من هذه نجمة تشبه الزهرة البيضاءذات ست اوراق مدببةوهي بهذاتكون شبيهة بنبتة (الاورنبثوغالوم)[١٦] المعروفة عندنا ، وكل واحدة منها ذات سوق خاصة ، ولم ار فيها اية حبوب وكانت جذورها صغيرة ونسيجية وهي مشابهة في شكلها للنبتة المتعددة الاوراق التي ذكرها ديوسقريدس .

والى جانب ذلك شاهدت انواعا اخرى من الطرفاء العالية والخلنجان وغيرها وكلها تنمو بكميات وفيرة وفي مساحات تمتد على ضفة النهر الى اميال عديدة .

---

(١٤) السماق Marjoram شجر صغير تكون اوراقه ذات طعم حامض وتستعمل اوراق هذا الشجر في تحميض الطعام .

(١٥) الزعتر Origanum نبات جبلي يمتاز بعطره القوي اللطيف

(١٦) نبات من الفصيلة الزنبقية له زهور بيضاء سماه (ابن البيطار) باسم « اشراس » و « لبن الطير » .

الفصل العاشر

سكان الجبل والقفار الواسعة التي اجتزناها الى مدينة « دير »(١) الاصول القديمة لسكان الجبل وحياتهم لتعيسة المضنية .

تنفيذا للامر الحاسم والجيد الذي اصدره الباشا نجل محمد باشا استطعنا ان نتحرر من محتجزنا الطويل فتحركنا ظهر اليوم السابع والعشرين من ايلول فامضينا عدة ايام وقطعنا مسافات بعيدة ونحن لا نرى على البر ما يستحق الذكر سوى اكواخ قليلة من القش انتشرت هنا وهناك يسكنها الاعراب مع عوائلهم ليحموا بها انفسهم من الحر والمطر والندى الذي يكون في هذه الاصقاع اكثر وقعا .

لقد دهشت من هذه الحياة التي يحياها اولئك الناس البائسون مع ذلك العدد الكبير من الاطفال في هذه البقاع الرملية الجافة وهم لا يملكون شروى نقير . فقد وجدت هؤلاء الناس يعيشون في ضنك شديد . وكثيرا ما كنا نشاهد البعض منهم يقبل علينا سباحة في النهر ويتقبل منا ما نقدمه اليه من مآكل .

وبعد ان استمر ظهور هذه الصحارى الرملية زمنا طويلا اجتزناها في النهاية الى تلال مقفرة عالية لم نر فيها اثرا لارض مزروعة ولا مروج ولا بيوت او مستقر بل حتى ولا موطأ قدم ، ذلك لان الناس الفقراء الذين يعيشون هنا

---

(١) يقصد بها مدينة « دير الزور » على الفرات والتي عرفت قديما باسم « ازورا »

لا يسكنون البيوت بل يسكنون الكهوف والخيام كما هي حالهم في الصحراء .
ونظرا لشدة الحر والجفاف فقد غدت التربة قاحلـــة ولذلك فهم لا يستطيعون المكوث فيها طويلا حيث لا توجد قرى ولا سكان وهذا ما يجعلهم يطوفون في الارض صعودا ونزولا ، وقد يغيرون على القوافل فيسلبونها في بعض الاحيان .

وهذه الجبال ، كما علمت ، تمتد الى نهر الاردن والبحر الميت والبحر الاحمر وغيرها حيث تقوم هضبة سيناء و (حرب)[٢] ومدينة (البتراء)[٣] التي دعاها النبي اشعيا « بتراء الصحراء » .

والاعراب الذين يعيشون في هذه الصحارى وفي اطرافها من الرجـال المشهورين في استعمال الســهام والقسي وقذف النبـال التي يصنعونها من القصب ، وهم اناس كثيرو العدد ويخرجون بجماعات كبيرة في الغالب . فهم من امة عريقة وهم متحدون من اولاد « اسماعيل » وبصفة رئيسة من نجلـه الاكبر (نبايوت)[٤] ولذلك اطلق عليهم لقب « النبطيين » المحبين للحرب ، وبلادهم هي بلاد النبط التي اتى على ذكرها (يوسفس)[٥] في الفصل الحادي

---

(٢) ذكرها المؤلف باسم حريب Hareb والاصل حرب وهي جبال تقوم في سـيناء .

(٣) البتراء Petra وتعرف باسم « بطرا » عاصمة مملكة الانباط او النبط العربية التي قامت جنوبي الاردن وفلسطين وقد عرفت باسم مملكـة « ادوم » وهي على بعد خمسين ميلا جنوبي البحر الميت تقع اثارهـا في وادي موسى وفيها هيكل ومسرح يتسع لاربعة الاف متفرج وكـل بيوتها ومعابدها ومسارحها منحوتة من الصخر .

(٤) نبايوت Nebajoth هو الولد البكر لاسماعيل جد العرب المستعربة وقد ورد ذكر نبايوت في النصوص الاشورية .

(٥) يوسفس Josephus (٣٧ ــ ٩٥م) مؤرخ وقائد يهودي درس القانون ورحل الى روما سنة ٦٤م ثم قاد القوات اليهودية ضد الرومان فاندحر وقد عاد الى القدس ليجمع النجدات لكن احدا لم يتبعه . اهم مؤلفاته « الاثار اليهودية » ويقع في عشرة مجلدات .

والعشرين من المجلد الاول من كتابه ، اذ يقول ان انجال اسماعيل الاثنى عشر قد انجبهم من زوجته المصرية (وامه تدعى هاجر)[٦] ولذلك سموا باسم (الهاجريين) كما نعرف ذلك في الفصل الاول والاصحاح الاول من «الاسفار» وهؤلاء هم من سكان تلك البلاد ايضا ، كل هؤلاء كانوا يتلكون البلاد الواقعة ما بين الفرات والبحر الاحمر ويطلقون عليها اسم بلاد النبطيين وقد يكون (المدينيون)[٧] الذين اشتروا « يوسف »[٨] من اخوته وحملوه معهم الى مصر ، هم من سكان هذه المناطق ايضا .

ويطلق « بليني » على نفس البلاد اسم سينا[٩] (لانه ليس فيها من السكان سوى اولئك الذين يسكنون الخيام) .

نستطيع ان نستخلص من ذلك كله بان كلا من النبي اشعيا في اصحاحه الستين ، والنبي داود في الاصحاح مائة وعشرين من الزبور ، قد تحدثا عن هؤلاء القوم ، ولا سيما حين اشار النبي داود الى خيام بلاد « قيدر »[١٠] والتي فهم عنها انها بلاد تستوطنها اقوام تسكن الخيام وانها قد اخذت اسمها هذا من « قيدر » نجل اسماعيل وكان ابوه هذا ، وهو طفل عجيب ، قد ولد من فتاة

---

(٦) هاجر زوجة ابراهيم وأم اسماعيل وقد ذكرها المؤلف باسم Agar

(٧) المدنييون Midianites هم اصحاب مدين الذين ورد ذكرهم في القرآن وفي التوراة وكان النبي موسى قد نزل عند أهل مدين بعد ان هرب من فرعون وتزوج ابنة كاهنهم . وكانت ديارهم جنوبي فلسطين وهم فرع من ذرية اسماعيل

(٨) النبي يوسف بن يعقوب وكان أهل مدين هم الذين اشتروه من اصحاب القافلة التي اخرجته من البئر بعد ان القى به اخوته فيها .

(٩) سيناء ذكرها المؤلف باسم Scienitis وهو الاسم اليوناني لها وعرفت باسم سيني ايضا .

(١٠) قيدر هو احد اولاد اسماعيل ايضا ويأتي بعد نبايوت في الكبر . والى نبايوت وقيدر تنتسب العرب العاربة وام قيدر مصرية لم يعرف اسمها وقد تزوج اسماعيل امراة اخرى من جرهم تدعى (وعلة)

تدعى (هاجر) فرحل قيدر مع امه يجوبان الصحراء • وقد اشتهر بعبارته التي يقول فيها « من انا ؟ انني في (مجيئك)[11] وانا اسكن في خيام « قيدر » •

وفي ايامنا هذه يدعى هؤلاء القوم وغيرهم باسم العرب وقد تعاظم نفوذهم كثيرا تحت زعامة « محمد » (وامه من احفاد اسماعيل)[13] فانتشروا انتشارا واسعا في الارض • ولقد كان هؤلاء في عهد داود ، امة قوية جدا لان داود كان يتضرع الى الله — كما ورد ذلك في الزبور الثالث والثمانين — بان يعاقبهم ويهلكهم ويشتتهم لانهم كانوا اعداء له •

اعود الان الى حديثنا السابق فاقول بان الاعراب كانوا يلحون علينا بالسؤال عن المكان الذي كان يقيم فيه اميرهم في ذلك الوقت • ولذلك كانت لرئيسنا مصلحة في التعامل معهم ومن هذا نستطيع ان تتبين مدى حبهم واحترامهم الشديد لاميرهم[12] •

على انهم لم يكونوا جميعا ينظرون الينا نظرتهم الى اجانب ولم يعتبرونا من الغرباء •

وكثيرا ما كان يحدث في بعض المناسبات ان نغير زي عمائمنا ونترك طرفا منها يتدلى الى اسفل مثلما يفعلون انفسهم ذلك اذ ان هذا يكون بمثابة ظل يحميهم من الحر الذي يشتد كثيرا في بلادهم • ومع ذلك فان أي امرىء يستقصي اخبار اميرهم او يروم الحضور امامه يقدم له بدلة من الملابس او

(۱۱) سماها المؤلف Mesheck وهي تقع بين حويلة و « شور » التي تعرف باسم طور سيناء الى الحدود الشمالية الشرقية لارض مصر . وفي الارض المعروفة باسم برية تيه بني اسرائيل .

(۱۲) ان انتساب العرب الى اولاد اسماعيل بن ابراهيم يجعل كل القبائل العربية المتحدرة من اولئك الاولاد ، ذات نسب واحد ومنها قريش قبيلة الرسول الاعظم محمد (ص) .

(۱۳) سبق ان اشرنا في هامش سابق الى ان الذي قصده المؤلف باسم امير العرب انما هو شيخ البادية او شيخ القبيلة التي تقطن تلك الاحياء

غيرها ، او يريد ان يمر به ، او ان يستكري احدا منهم ليدله على الطريق الى مكان ما ، او ان يجتاز بلادهم ، لا بد وان يجد في الحال واحدا منهم مستعدا للقيام بمثل هذه المهمة وتأديتها بثمن بخس • على انه لا توجد بين الاتراك مثل هذه الطاعة • لانك ان طلبت الى الاتراك ان ينجزوا لك امرا ما باسم سلطانهم فانهم لا يستجيبون الى ذلك الا اذا كان مثل هذا الامر يحقق لهم ارباحا وفيرة، ولو استعنت باحد الادلاء من الاتراك لاقتضاك هذا قدرا كبيرا من النفقة اكثر مما يتقاضاه الدليل العربي •

ويتذكر الاعراب سيدهم كل يوم ويندر ان يتحدثوا عن شيء اخر سواه وعن ثرائه واتساع ملكه بفخر ومباهاة ، ذلك لان جزءا من مملكته يعود اليهم انفسهم ولهذا فان عليهم ان يحترموها •

لم تنفق انا ورفيقي في هذه الرحلة النهرية وسط الصحارى شيئا كثيرا ، وذلك لان المدن كانت على مسافات بعيدة احدها عن الاخرى ، بحيث لا نستطيع ان نبلغها لنتزود منها كل يوم بالحاجيات الضرورية ، او نجوس اماكن الراحة فيها (كما نفعل ذلك في بلادنا حين نمخر عباب نهري الدانوب والراين) •

ولهذا السبب كنا مضطرين الى ان نقنع ببعض الاطعمة الخفيفة او غيرها ، او ان نكتفي باللبن الرائب والجبنة والفاكهة والعسل وما سواها ، فنتناول هذه الاطعمة مع الخبز ، ونستمتع بتناولها •

والعسل في هذه المناطق جيد جدا وهو من نوع ابيض اللون ويحمله القوم هنا في القوافل والسفن في مزاود من الجلد تملأ به ، وهم يقدمونه اليك في اقداح صغيرة ، ويضيفون اليه قليلا من الزبدة ، وبذلك تستطيع ان تتناوله مع البسكويت •

وكنت حين اتناول مثل هذا الصحن اتذكر « يوحنا المعمدان » وكيف بشر بسيدنا ، وكيف كان هو نفسه يتناول العسل في الصحراء مع الاطعمة الاخرى[١٤] .

وما خلا ذلك فحين كنا نفكر في تناول طعام الفطور كان البعض منا ، حين ينزل امر السفينة الى البر ليلا ، يسارع الى البحث عن احطاب في الوقت الذي يكون فيه البعض الاخر قد حفر حفرة في الارض عند الشاطىء في شكل موقد لنشوي فيه ما لدينا من لحوم . وهكذا تتناول كل جماعة منا ما ترغب في تناوله او ما تحتفظ به لديها من طعام . فالبعض منا يطبخ الرز والبعض الاخر يطبخ البرغل وغيره .

وحين يودون تناول خبز طري ، خلال فقدان البسكويت يأتون بالدقيق والماء فيصنعون منهما عجينا يقطعونه على شكل اقراص واسعة سمكها سمك الاصبع ثم يلقون بها في موقد محفور في الارض، ويغطونها بالرماد والفحم ، ويقلبونها عدة مرات الى ان تنضج وتكون هذه الاقراص طيبة الطعم جدا عند تناولها[١٥] .

ويحتفظ بعض الاعراب في خيامهم بصحون من الحجر او النحاس لصنع الخبز .

---

(١٤) يوحنا المعمدان John Baptist هو يوحنا بن زكريا وأمه اليصابات أحد انبياء المسيح عاش متقشفا في برية اليهودية بفلسطين . ظهر في الثلاثين من عمره على نهر الاردن وهو يتعمد بالماء للتوبة دعا قومه الى الرجوع عن الخطيئة وبشر بظهور السيد المسيح ولذلك سمي بالسابق . اعتقله ملك القدس هيرودوس ثم قطع رأسه . هناك خطأ شائع في ان يوحنا المعمدان هو نبي الصابئة . والصواب ان الصابئة لا يعتبرون يوحنا نبيا لهم لكنم يقدسونه لانه انقذهم من اضطهاد اليهود ، وانتقل بهم الى الاردن .

(١٥) هذا النوع من الخبز يسميه الاعراب وغيرهم باسم « القرصة » ويستعمله اصحاب الزوارق والاكلاك عادة في سفراتهم .

في اليوم الرابع ، وهو اخر يوم من ايلول وصلنا عند الظهر الى نهايـة سلسلة الجبال وكانت تقوم امامها وعلى هذا الجانب من النهر قلعة كبيرة فوق تل عال شيدت مربعة الشكل على يد اناس يسمونهم « الصليبين »[١٦] ولها فتحتان تنحدران الى النهر في حين تؤلف الفتحة الثالثة طريقا واسعة الى الجبل وهذه القلعة تشبه في وضعها قلعة « بادن » بسويسرا[١٧] ومع ان القلعة مهدمة الا ان جدرانها لا زالت قوية جدا سواء في القمة او الجوانب وعلى الاخص الجدران المتجهة نحو الجبل والنهر ، والقصد من ذلك هو الحيلولـة دون الوصول اليها من ناحيتي النهر والجبل معا . ولا تزال بعض ابراج المراقبة قائمة فيها عند الاتجاه نحوها من ناحية الجبل ، وهذه الابراج لا تضم سوى ثلاثة او اربعة جنود وما سوى ذلك فهي في شكل خرائب لا تسكن فيها سوى الطيور والهوام ، وقد ظهرت اعداد هائلة من هذه الطيور على شاطىء النهـر . منها « مالك الحزين » ونوع من البط كبير الحجم زاهي الالوان سماها (ارسطو) باسم (بليكان)[١٨] وسماها غيره باسم (اونوكروتالي)[١٩] وقد اشار اليها النبي « صفنيا »[٢٠] في اصحاحه الثاني عندما انذر اهل نينوى والاشوريين والعرب بالعقاب .

---

(١٦) هذه القلعة ـ كما نعتقد ـ هي الحصن الذي يعرف باسم « الحلبية » والذي يقال ان الزباء ملكة تدمر هي التي شيدته ويقع شمالي ديـر الزور على الجانب الايمن من الفرات ويقوم قبالته حصن اخر يسمى « الزليبية » شيدته الزباء نفسها لاختها .

(١٧) بادن Baden ويقصد بها « بادن بادن » من المدن الشهيرة في سويسرا .

(١٨) Pilcan هو طائر البجـع او جمل المـاء .

(١٩) Onocrotali هو المعروف باسم « خلد الماء » له منقار يشبه منقـار الطير لكنه من الحيوانات اللبونـة .

(٢٠) صفنيا Zepheniah احد الانبياء الصغار الاثنى عشر لليهود وقد وضع كتابا في ثلاثة فصول يحتوي على تعاليم وانذارات . وقد انذر صفنيا اهل نينوى بخراب مدينتهم وذلك قبل ان يغزو البابليون والمازيـون سوية نينوى ويستولوا عليها ويحولوها الى ركام سنة ٦١٢ قبل الميلاد

وهناك انواع اخرى سوداء اللون ذات اعناق طويلة مما شاهدته بكثرة اثناء سفرتي الى فلسطين ولا سيما على مقربة من (عكا)[٢١] بين الجبال وشاطىء البحر . ويبدو ان هذه انواع من صقور البحر* وهي تعيش على السمك اكثر من اي غذاء اخر .

وعلى مسافة ستة اميال الى الجنوب وعند الشاطىء الاخر لنهر الفرات يقوم حصن اخر يدعى « الصليبية الواطئة »[٢٢] على ضفة عالية من النهر . ولما كنا قد مررنا سريعين بهذا الحصن فلم نستطع اكتشافه بشكل جيد .

ولقد سررت كثيرا بما عرفته عن هذين الحصنين ، وعن الطريق الذي يسلكه حكام الجزيرة العربية او ملوكها ، ولكن اللغة التي لم اكن الم بها جيدا كانت تعوقني عن ذلك . وحتى لو كنت قد عرفت هذه اللغة جيدا ، واجريت ما فيه الكفاية من التحري عن هذه الاشياء ، فلن استطيع ان انجز ذلك كله دون خطر التعرض للاعتقال بتهمة التجسس ، ذلك لان القوم سرعان ما يشتبهون بالاجانب في أي حادث طفيف يحدث ، وعلى هذا فان التجارة في هذه الانحاء لا تمارس من دون المزيد من الخسائر والاخطار .

شاهدنا فيما وراء الجبال في هذه الاراضي الواطئة مساحات شاسعة من

---

(٢١) ذكر المؤلف هذه المدينة باسم اكون Acon وهو تحريف للاسم الذي يطلقه الاوربيون عليها وهو « اكر Acre » وهي من الموانىء الفلسطينية المهمة وتشتهر بقلعتها الاثرية .

* اورد مترجم الكتاب من الهولندية الى الانكليزية المستر « نيكولاس ستافورست » التعليق التالي : « يخيل الي ان هذه الطيور ليست من صقور البحر وانما هي من غراب البحر Cormorants ذات الاعناق الطويلة »

(٢٢) الصليبية الواطئة Subian Seleby يقصد بها الزليبية وهو الحصن الذي اقامته الزباء على الجانب الايسر من الفرات مقابل الحصن الاول المعروف باسم الحلبية .

الارض المزروعة وفيها من السكان العرب اكثر مما شاهدناه قبلا ، وقد نزل ربان سفينتنا الى احدى القرى ليشتري لنا بعض الاطعمة لسفرتنا المقبلة حيث اعتاد السكان ان يجلبوا الينا اللحم والبطيخ لبيعه علينا .

حدث هنا في منتصف الليل ان خرج احد الجنود الاتراك الى شاطىء النهر للاستمتاع وحين كان منشغلا بذلك زحف احد الاعراب اليه فالقى به في النهر وهرب قبل ان يتبينه ، وراح ذلك التركي يصرخ وسط النهر طالبا النجدة. ولقد سمعت انا ، حين كنت اقوم بمهمة الحراسة في تلك الليلة ، صراخه فاسرعت وبندقيتي في يدي وانا اتعقب صوته حتى وصلت الى مكانه ، وان كان مظلما الا انني استطعت ان اتبينه وان اسحبه من الماء وآتي به الى السفينة . ولقد سر جميع الاتراك بذلك لانني تحركت بكل قواي لصالحهم فراحوا يزجون علي الثناء طوال الطريق الى ان وصلنا بغداد حيث مقر الحامية التي ارسلوا لتعزيزها .

في اليوم الاول من تشرين الاول ، وقد استمرت رحلتنا ، اقبل سعاة البريد في مبكر الصباح الى جانب النهر وكانوا ستة من العرب يستطون الخيول، ليستفسروا منا عما اذا كان شيخهم قد رحل من هناك ، واين يمكنهم العثور عليه اذ انهم كانوا يحملون اليه رسائل من السلطان ولابد لهم ان يتعقبوه الى ان يجدوه . وقد انبأهم ربان السفينة (وهو الشخص الذي يتوجه كل امرىء بالسؤال اليه) باننا قد شاهدناه في اقليم يدعى (الخابور)[٢٣] وقد ارتحل عنه مع رجاله متوجها الى الجزيرة العربية وفي مقدورهم ان يعثروا عليه هناك . وبعد هذه الاستفسارات غادرنا السعاة بينما واصلنا نحن مسيرتنا فشاهدنا

---

(٢٣) سماه المؤلف Amanchar « امانشور » وهو تحريف واضح لان هذا اقرب الاسماء الى الخابور في نظرنا ، ولان هذا الاقليم او السهل بعبارة أصح من مواطن الاعراب المعروفة في تلك البقاع حتى اليوم .

امامنا وعلى بعد ، مدينة على الجانب الايمن من النهر تدعى (سـكرية)[٢٤] تخضع لحكم امير العرب قال الاتراك عنها انه لا يسكنها احد سوى كبار اللصوص وهم لا يخضعون لاي سيد اخر سوى سيدهم •

ولقد مررنا بهذه المدينة واتجهنا مباشرة نحو « الدير » وهي مدينة اخرى ، فاصبحنا على مسافة ثلاثة فراسخ •

والعرب لا يقيسون المسافات بالفراسخ لانهم لا يعرفون سوى القليل عنها بل قد لا يعرفونها قط ، وانما يحسبون المسافات بايام السفر • وسبب ذلك ان مدنهم تقع على مسافات بعيدة يضطرون ازاءها الى الغوص في اعماق الفيافي عدة ايام قبل ان يصلوا الى تلك المدن •

قبل ان نبلغ تلك المدينة راحت احدى سفننا تجرى بسرعة نحو جانب واحد متجهة الى احد فروع النهر الذي يمر بالمدينة (حيث ينقسم النهر هنا الى عدة فروع) وسرعان ما غطست في الطين وتوقفت عن السير • وما ان رأى الربان ذلك حتى نزل من السفينة التي كان فيها حالا ، وارسل رجاله لمساعدة رجال السفينة المتوقفة • وهنا توفر لي بعض الوقت لفحص النباتات والاشجار القائمة عند الشاطىء حيث شاهدت الكثير من الطرفاء ونوعا خاصا من الصفصاف يسميه السكان باسمه العربي القديم وهو « الغرب » وهذه الاشجار عالية وتنتشر بكثرة وأغصانها اقوى واكثر لينا حيث تصنع منها المرابط والمشدات بالشكل الذي نفعله نحن في بلادنا •

اما شجرة الكينا فهي ذات لون اصفر شاحب واوراقها من ذات اللون طويلة عرض الواحدة منها زهاء اصبعين • ولما كنت قد وجدت هذا الشجر جافا بلا زهر فلست استطيع ان اقول شيئا عن ازهاره واثماره (وقد اشار ابن سينا الى ذلك في الفصلين ١٢٦ و ٦٨٦ من كتابه) •

---

(٢٤) سكرية ذكرها راوولف باسم « سكارد Seccard » وهذا الاسم يطلق على موقعين سكرية الكبيرة وسكرية الصغيرة •

رفض التركي الذي يقود السفينة الموسقة بالقمح ، ان يتوقف الى ان نخرج السفينة الغاطسة من الوحل ، وواصل سفره ، ولكن سرعان ما تحطمت سفينته تلك وفقد قدرا كبيرا من القمح الذي كان يريد ايصاله الى بغداد التي كان يسميها باسم (بلداك) ليبيعه هناك نظرا لقلة الغلة فيها بسبب انحباس الامطار وعدم سقوطها طيلة سنتين ونصف السنة • ومع ذلك ، وكما قالوا ، فان المطر اذا ما سقط مرتين او ثلاثا في السنة كان ذلك كافيا لمسرة القوم واسعادهم •

بعد ان كافح رجالنا لاكثر من ساعة حتى افرغوا السفن من حمولتها عادوا الينا ثانية كيما نبدأ حركتنا في تلك الليلة الى مدينة « الدير » • غير ان بعض الصخور كانت تعترض طريق السفينة ، وكان المرور فيما بينها ينطوي على مخاطرة • ولذلك ما ان فهم بعض ملاحي السفينتين الاخريين عمق الماء حتى اقبلوا لمساعدتنا حيث استطعنا الخروج من المنطقة الخطرة بسلام •

تقع مدينة « الدير » ، وهي ليست كبيرة وتخضع لحكم السلطان ، على هذا الجانب من النهر فوق مرتفع[٣٥] • وتقوم فيها مساكن حسنة البناء • وقد وقف عدد كبير من الناس لمشاهدتنا ونحن ندخل الى المدينة وكانت اسوارها والخنادق المحيطة بها شاخصة للعيان •

وحين وصولنا لاول مرة ظننا ان في مستطاعنا ان تتفاهم مع موظف الكمرك حول المكس المفروض على سلعنا وتتحرك ثانية ، لكننا لم نجده في المدينة فاضطررنا الى ان نمكث فيها مدة ثلاثة ايام انتظارا لمقدمه اليها • وفي الوقت ذاته تعرفنا الى سكان المدينة وقد وجدناهم حسنى الصور اصحاء الابدان كثيري الجشع لكنهم مع ذلك كانوا اكثر انتظاما وتأدبا من غيرهم • فقد كانوا يزوروننا من دون كلفة ، ويتحدثون الينا برقة ، وهكذا وجدنا فرقا شاسعا بينهم وبين غيرهم ممن سبق لنا ان شاهدناهم قبلا •

---

(٣٥) يقصد المؤلف بعبارة « هذا الجانب من النهر » الضفة اليمنى منه •

وحين قصدنا موظف الكمرك وجدناه لم يكن اقل تأدبا من غيره ، فقدم لنا صحنا كبيرا من الزبيب وانواعا اخرى من الحلويات محاطة بقطع من الصابون (كما هي العادة الجارية في هذه البلاد) وهذا ما اعتاده هو وعائلته ايضا ،وفي مقابل ذلك قدمنا له ولجماعته اوراقا بيضاء تقبلوها بشوق وسروا بها كثيرا (مثلما يسر الاطفال في بلادنا حين نقدم لهم شيئا فريدا او مسرا لهم) وكانوا ينظرون الى تلك الاوراق ويبتسمون •

والارض هنا خصبة غنية بالقمح والشعير والقطن وغيره بالاضافة الى البساتين الواسعة الحسنة ، ومزارع الخضار المنتشرة على ضفاف الانهار والتي تضم مختلف الثمار والاشجار ومنها الرقى والخيار والبطيخ التي توجد بوفرة حيث يستطيع المرء ان يشتري اربعين بطيخة كبيرة بمبلغ (اسبر) الذي تعادل كل ثلاثة منه « معدنا » واحدا اي اكثر من قيمة (البنى) عندنا • وبالاضافة الى ذلك تكثر اشجار النخيل والليمون والبرتقال وغيرها مما لم استطع تمييزه عن بعد •

الفصل الحادي عشر

سفرتنا الى مدينة « عنه »(١) الشهيرة . الطريق الذي سلكناه ثانيـة وسط ارض رملية قاحلة كان علينا ان نتزود بالاطعمة ونكون على حذر شديد في ملاحتنا . بعض اوضاع السكان وملابسهم واشياء أخرى لاحظناها وشهدناها في الطريق ومـا حدث لنـا

بعد ان دفعنا الرسم الكمركي الى « الملتزم » الذي كان على قدر كبير من الادب بالقياس الى الموظف الذي شاهدناه في الرقة ، وتزودنا بالحاجيات ، وضعنا نصف الحمولة في سفينتنا كيما نسحبها من الفرع الى النهر ثانية . واذ ذاك نقلنا بقية الحمولة اليها في زوارق صغيرة ، وهكذا اقلعنا من هناك في مساء اليوم الرابع من تشرين الاول فامضينا الليل كله غير بعيدين عن مدينة الديـر .

وفي صباح اليوم التالي استأنفنا رحلتنا فسارت بنا السفينة سيرا حسنا حتى الظهر حين وصلنا الى مكان ضحل وواسع في النهر لم يعرف رباننا كيف يخرج السفينة منه . واذ كان مضطربا دائب التفكير ظهر على الشاطىء بعض الاعراب فاشاروا لنا الى المجرى الذي يجب ان نسير فيه لكننا لم نثق بهـم لاننا سمعنا قبلا بانهم قد اغرقوا بعض الاحجار الكبيرة قبـل شهر مضى ،

---

(١) عنه عرفت باسم عانه وعانات Anat Ana وهانا وهانات Hanat Hana وسماها الاشوريون سوخي استقلت عن كل من بابل واشور وان احد ملوك خاني غزا بابل وجلب منها بعض تماثيل الالهة الى عنه . ذكرت عنـه في المصادر الاشورية والبابلية بنى فيها « معين » ملك المناذرة ديرا شهيرا حاصرها الامبراطور تراجان سنة ١١٥م ولم يستطع فتحها فتخلى عنها. كانت مركز اقليم الفرات الاوسط عرف باسم (خاني)

واقنعوا ملاحي احدى السفن بان يسروا من هناك ، ولم يكتشف الملاحون تلك الخدعة الا بعد ان تحطمت سفينتهم اثر ارتطامها بتلك الاحجار وغرقت . وذات الشيء فعله هؤلاء الاعراب مع عدد اخر من السفن تعرضت للخطر نفسه ولم يستطع من كان فيها انقاذ انفسهم مما اصابهم الا بعد عدة ايام .

على اننا حمدنا الله وشكرناه اذ خرجنا من ذلك الموضع خلال ساعة واحدة بعد ان سحبنا سفينتنا قليلا الى الوراء ثم دفعنا بها الى الماء العميق الغور ، مما اثار دهشة اولئك الاعراب .

اما السفن الاخرى التي كانت تسير مع سفينتنا ، فمع انها لم تتأخر طويلا الا اننا مع ذلك بذلنا المزيد من الجهود لاخراجها من الماء الضحل ، اذ كانت تلك السفن اقل طولا واقعارها مجوفة وهي وان كانت تستدير بسرعة الا انها لم تنزلق على سطح الماء مثل انزلاق سفينتنا ذات القعر المسطح .

وفي وقت مبكر من الغروب شاهدنا على مسافة غير بعيدة في الجانب الاخر من النهر قلعة تقوم في سهل تدعى « سيري »[٢] ، ذكر الاعراب عنها انها قد تهدمت منذ سنين عديدة ، وان نهر الخابور[٣] ، وهو من الانهار الكبيرة نوعا ما ، يبدأ من شمالها ثم يمر بها ويكون ماؤه نقيا اشبه بماء الينبوع ثم يجري اسفلها بمسافة قليلة ليصب في نهر الفرات .

كنا نعتقد اننا من هناك سوف نصل « الرحبة »[٤] التي تخضع لحكم امير العرب ، الا اننا توقفنا في ملاحتنا واذ ذاك هبطنا على مقربة من القلعة بعد

---

(٢) ذكر الرحالة هذه القلعة باسم سيري Serc والمقصود بها بلدة « سيرين » التي تقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات ومنها تعبر القوافل متجهة نحو نهر البليخ

(٣) ذكره المؤلف باسم شابو Chabu وهو من اهم الروافد التي تصب في نهر الفرات وينبع من الاراضي التركية

(٤) الرحبة كتبها المؤلف باسم الرشبى Arrachby عرفت قديما باسم « رحبت » و « رحبة » أسسها مالك بن طوق التغلبي في عهد خلافة المأمون وتسمى نسبة اليه رحبة مالك بن طوق .

حلول الظلام حيث استأنفنا في باكر صباح اليوم التالي مسيرتنا الى المدينة ، وكانت هذه كبيرة نسبيا وتقع على مسافة نصف فرسخ عن النهر وفي ارض خصبة جدا وقد مكثنا فيها حتى اليوم التالي لنبيع فيها بعض السلع بينما تجول اثنان من رفاقنا في داخل المدينة لدعوة التجار فيها الى المقايضه معهم •

بعد ان امضينا ذلك اليوم كله تحركنا في صباح اليوم التالي نحو « شارة »(٥) وهي قرية صغيرة تقع على الضفة اليمنى من النهر وعلى مبعدة نصف فرسخ عنه وتخضع لحكم امير هذه المنطقة العربية ، وقد هبطنا اليها لندفع الرسم المعتاد • وكنت وانا في السفينة اشاهد على جوانب النهر عددا كبيرا من الاشجار والنباتات التي لم استطع ان اتبين انواعها لبعدها عني •

ومن « شارة » سارت سفينتنا سيرا منتظما ولايام عدة • وكان النهر في الغالب يمر وسط صحارى رملية واسعة كتلك التي مررنا بها قبلا ، وهي تمتد الى مسافات شاسعة لا نستطيع ان ندرك نهايتها ، وكلها اراضي قاحلة لا اثر للزرع او الشجر او النبات فيها • وهذا ما جعل تلك الصحاري تسمى بحق « بحار الرمال » والتي يتوقع المرء ان يجابه فيها بالاعاصير كما يحدث ذلك في البحار تماما ، وتثور فيها امواج الرمال كامواج البحار حقا • ولهذا يعتمد السائرون في قوافل كبير عبر هذه الصحارى على ادلاء ماهرين مثلما يعتمد على الربان في السفينة والذي يعرف كيف يوجه طريق السفينة بالحك •

ولما كانت الطريق طويلة جدا فانهم يتزودون بالمزيد من الاطعمة التي تكفيهم وقتا طويلا مثلما يفعل ذلك المسافرون بحرا ، اذ يوسقون الثلث من ابلهم بتلك الاطعمة واللوازم ولا سيما الماء منها لارواء انفسهم ودوابهم منه ، اذ لا يمكن العثور على ينابيع الماء في الصحراء الا بالاعتماد على الصهاريج التي تعد الان جافة لانها تعتمد على ما يسقط فيها من مياه الامطار •

---

(٥) شارة وتعرف الان باسم تل الشارة تقع في جنوبي مصب نهر الخابور في نهر الفرات وكانت من مواطن العموريين قديما .

ولقد امر السلطان التركي ببناء ثلاثين الف صهريج من هذه الصهاريج في الصحراء وعرفت ذلك اثناء وجودي في حلب . كذلك امر السلطان بان تزود هذه الصهاريج بالماء ذلك لان الجيوش التركية ، حين تنتقل من مكان الى اخر في الايام التي يكون الاتراك خلالها في حرب مع ملوك فارس او امراء الجزيرة العربية ، لن يعوزها الماء . وحتى اذا ما وجدت احد الصهاريج خاليا من الماء فقد تعثر على الماء في صهاريج اخرى غيره .

في اليوم التاسع من شهر تشرين الاول شاهدنا بعض الابراج القديمة تقوم على ضفة عالية من النهر عند نقطة تدعى (انسبي)[٦] يقول البعض عنها انها كانت مدينة شهيرة يوما ما .

في هذا الموضع يستدير النهر استدارة واسعة لا تخرج السفن منها الا بعد انقضاء نصف يوم . ولقد شاهدنا امامنا وعلى الضفة الاخرى من النهر عددا من الاعراب يمتطون الخيول . ولما كنا نخشى وقوع اي اعتداء على اموالنا ، فقد رحنا نزيد في حذرنا ونشدد حراستنا كما حدث لنا ذلك في الليلة المنصرمة .

فقد عهد الي بالحراسة في تلك الليلة واذ ذاك صعدت الى الجزء الاخير من السفينة كيما استطيع ان ارقب اللصوص من هناك حالما يقبل احدهم نحو السفينة ، ثم وضعت بندقيتي الى جنبي (وهذا ما اعتدناه في كل وقت) وبعد ان استلقيت لففت جسمي بالمعطف الواقي من الجليد ذي الاردان الطويلة لاتقي بذلك سقوط الندى والصقيع الذي يكثر سقوطهما هنا . وبعد حراسة طويلة غلبني النعاس فنمت واذ ذاك اقبل احد اللصوص في الماء الى الموقع الذي كنت مستلقيا فيه في السفينة في صمت فامسك باحد اردان

---

(٦) الذي اعتقده هو وقوع خطأ في طبع هذا الاسم اذ ابدل الحرف F ف في الكلمة Enfy بالحرف س فكتب S انسي Ensy « انفي » وتعرف باسم « اخني » اسسها المقدونيون على نهر البليخ وهي قريبة من الوضع الذي يعرف اليوم باسم تلول الشبات .

المعطف ، وكانت متدلية الى اسفل ، على امل ان يسحبه برفق وهو لا يدري بانني كنت ملتفا به ، واذ احسست ان شخصا ما كان يتحرك وانه يريد سرقة معطفي نهضت فشاهدت رأس اللص واذ ذاك امسكت ببندقيتي لاوجه رصاصة اليه لكنه ما ان رآني حتى هرب سابحا في النهر • واستيقظ افراد الجماعة الذين رقدوا بجانبي وحين استفسروا عن الخبر وانبأتهم بما رأيته فرحوا لذلك وراحوا يزجون الي الشكر على حذري ودقة حراستي •

وفي الوقت الذي كنا نخشى فيه سطو الاعراب علينا ليلا ، تراهم يقبلون في النهار علينا مع زوجاتهم للتعامل تجاريا معنا ، اذ يسارع ربان سفينتنا في النزول الى اليابسة ليسهل على التجار مهمتهم ، وهم الذين يحملون كل انواع السلع معهم من قوالب الصابون الى خرز الكرستال والعقيق الاصفر ، والاساور الزجاجية من مختلف الالوان التي تلبسها النسوة في ايديهن واقدامهن ، وانواع اخرى من اللعب المصنوعة من الزجاج ذي الالوان الحمراء والصفراء والخضراء والرمادية وكذلك علب البرنز والرصاص ، والاحذية الطويلة التي تشد بسيور من الجلد وغير ذلك مما يقايضونه مع العرب بجلود الماشية والجبنة واللبن المجفف واشياء اخرى ، وبالنقود احيانا •

ولا تختلف سحنات هؤلاء الاعراب عن سحنات الغجر كثيرا الا في جمال سمرة وجوههم • وهم سريعو الخفة في اعمالهم • لكنهم لا يعنون بالعمل كثيرا وانما ينفقون جل اوقاتهم في الكسل ، او يختصمون مع بعضهم البعض باصوات عالية وضجة صاخبة لكن يندر ان يهاجم احدهم الاخر • وهم يحلقون شعور رؤوسهم فلا يبقون منها سوى القمة ، ويتركون ـ مثل الاتراك ـ ضفيرة طويلة تتدلى على ظهورهم •

اما البستهم فتتألف من صداريات مصنوعة من نسيج الصوف ليست لها اردان وتكون طويلة حتى تصل الى الركبة ، مثل الصدارية التي كنت انا

ارتديها في رحلتي • وهذه الصداريات مخططة بخطوط سوداء وبيضاء • وهم يلبسون تحتها قمصان طويلة تصل الى الكعب وتكون مفتوحة عند الرقبة وهي رمادية اللون غالبا ذات اردان واسعة يدعونها تتحرك عندما يسيرون او حين يحملون اسلحتهم للتظاهر بها ، وهم يتمنطقون فوق ثيابهم هذه باحزمة عريضة من الجلد تكون مرتفعة • وانت تكاد لا ترى هذه الاحزمة بل ترى الخناجر المعقوفة التي علقت بها بالشكل الذى نحمل به نحن الاوربيون سيوفنا • اما رماة النبال فانهم يضعون احيانا بعض اسلحتهم خارج ثيابهم ويتركون صدورهم عارية في ذات الوقت كيما يستطيعوا ان يقاتلوا بطلاقة ومن دون اية عوائق •

والذين لا يستطيعون منهم شراء الاحذية يستعملون بدلا عنها اعناقا من جلود يلفونها فوق اقدامهم بخيوط من الشعر • ولا يلبس الرجال السراويل بينما ترتدي النسوة سراويل طويلة تمتد حتى الكعب •

ووجوه النساء ليست مغطاة بالحجاب مثلما عليه نساء الاتراك • وهن يعصبن رؤوسهن بعصائب تميل الوانها الى السمرة اكثر من البياض يتركنها معلقة الى وراء في شكل عقدة كبيرة •

وحين يرغبن في التجمل يحملن مقتنياتهن الثمينة (من خرز العنبر او المرمر او الزجاج المختلفة الالوان) في قلائد يعلقنها تحت صدوغهن حتى اذا ما انثنين او تحركن راحت تلك القلائد تضرب وجوههن بل قد تعيقهن احيانا عن اداء اعمالهن •

اما اللواتي ينتمين الى طبقة اعلى ، او يحاولن ان يصبحن غنيات وجميلات في ملبسهن فتراهن يلبسن الاقراط الفضية والذهبية في انوفهن (مثلما يفعل ذلك البعض عندنا في بلادنا الاوربية حين يلبسون قرطا في احدى الاذنين) بالاضافة الى العقيق الاحمر والفيروزج ، والياقوت الاحمر ، واللؤلؤ وغيرها • كذلك تلبس النساء اساور في اقدامهن وايديهن وبكميات كثيرة احيانا حتى

اذا ما تحركن او خطون راحت تلك الاساور تعلو وتهبط في ايديهن وارجلهن محدثة اصواتا مسموعة ، وتلك من الاسباب التي دعتني اسهب في التحدث عن سكان هذه البلاد والصحاري بالصفة التي وجدتهم عليها .

★ ★ ★

بعد ان اجتزنا صحراء واسعة اخذنا نتترب من مدينة (عنه) وقد هبط ربابنا الى اليابسة ليلا وفي مكان جميل يبعد زهاء فرسخ ونصف الفرسخ عن المدينة ، حيث امضينا الليلة في ذلك المكان ، لانه كان من الخطر علينا جدا ان نواصل الملاحة في النهر بسبب سرعة تياره ووجود بعض الصخور فيه .

تشتهر هذه المدينة بجمالها وذلك لكثرة الاشجار المثمرة فيها من امثال الزيتون والليمون والبرتقال والرمان والليمون الحامض وكذلك اشجار النخيل التي لم ار لها شبيها بما شاهدته من امثالها في سفراتي. فقد كانت هذه النخيل سميكة وصلبة للغاية. وحين ذهبت مع بعض من رفاقنا الى المدينة وجدنا كميات كبيرة من الفواكه لم تعجبهم اطلاقا وقد رأينا بينها نوعين من هذه الفواكه التي اعتادوا جلبها الى بلادنا احدهما احمر اللون والاخـــر اصفره اطلق عليهما « سيرابيو » اسم « هيرون »(٧) وذلك في الفصل التاسع والستين من كتابه ، ومع انهما اقل حجما مما هو معروف لدينا الا انهما من نوع جيد وذي طعم لذيذ .

في صباح اليوم التالي تركنا امر السفينة الى ربانها وتوجهنا نحو المدينة وقد شاهدنا ونحن في الطريق اليها اشجارا مثمرة وفيرة الى درجة اننا لم نصدق ما شاهدناه بعد ان اقبلنا من تلك البراري القاحلة التي كانت تمتد من «الدير» القريبة من حلب الى مثل هذه الارض المزروعة .

---

(٧) Hayron لعل المقصود به ثمر شجر التون المعروف في بلادنا « النبــق »

فقد بانت لنا امام المدينة حقول من القطن طري وكثيف مما قد لا يجد المرء امثاله في مكان آخر ، اضافة الى حقول القمح الزاهية التي علت سنابلها ونضجت وحان وقت حصادها ، فضلا عن الاشجار القائمة حواليها والمثقلة بالثمار ، مما جعل تجوالنا فيها مبهجا .

ولم ار في الطريق من النباتات الغريبة سوى ما شاهدته في حقول القمح من نبات (الماش) العربي الذي اشرت اليه قبلا والذي يظن عنه انه هو نبات (كوركوروم)[8] الذي ذكره « بليني » . كذلك رأيت نبتة اخرى تشبه السمسم الا ان ساقها اطول وامتن ، واوراقها اخشن واكثر عددا ، شبيهة باوراق الصفصاف في الطول واللون ، وهي تحمل ازهارا صفراء اللون ذات عروق حمراء او بنية اللون تنتهي بعقد طول الواحدة منها بقدر الاصبع وبمقدار سمكه ومدببة عند الرأس ، ولها خمسة اصناف تحوي البذور التي تشبه نوعا من الخباز الذي يسمى « ابو تيلون »[9] .

• • •

ولقد استفسرت كثيرا عن هذه النبتة فلم اجد لها اسما اخر غير الاسم الذي يطلق عليها وهو اللوبياء الهندية[10] ، ولكن طبقا لمعلوماتي اعتبر هذه النبتة هي « النفل »[11] التي اشار اليها « ثيوفراستس » في اماكن عديدة من كتابه .

يقسم نهر الفرات مدينة (عنه) الى قسمين ، بل بالاحرى الى مدينتين ، احداهما ليست كبيرة لكنها محصنة تحصينا جيدا باسوار قوية لا يمكن الدخول اليها الا بواسطة الزوارق وهي تخضع للاتراك .

---

(٨) كوركوروم Corchorum نبات متسلق ذو ازهار صفراء اللون

(٩) ابوتيلون Abutilon نبتة من فصيلة الخبازيات

(١٠) لوبى اندنيجى Lubie Endigi هي نفس اللوبيا المعروفة في بلادنا

(١١) تريونم Trionum نبات الفل وهو من النباتات العطرية .

اما القسم الثاني فيقع على الضفة اليمنى من النهر ويخضع لأمير الجزيرة العربية[١٢] وهو واسع لكنه غير محصن جيدا بالاسوار والخنادق ، ولذلك فان في مستطاع المرء ان يدخل اليه ويخرج منه ليلا مثله في ذلك مثل بقية المدن الاخرى التي تتبع نفوذ الامير العربي .

ويدعى هذا القسم من المدينة والاقليم الذي يقع فيه (بالقائم)[١٣] ويبعد مسيرة خمسة عشر يوما عن حلب . وهناك طريق جيدة تمتد الى النهر ولذلك فقد امضينا ساعة فيه قبل ان نصل الى منزل ربان سفينتنا والذي يقع على مقربة من المرسى الذي رست عنده .

وجدران هذا المنزل مشيدة بالاجر والحجر تشييدا جيدا وهو واسع ولا يرى المرء احدا على الجانب الاخر منه اذ تقوم فيه حديقة واسعة تضم اشجار النخيل والليمون والبرتقال والرمان وهي مثقلة بالثمار وعلى الطرف الاخر من النهر لم اشاهد شيئا سوى اكواخ تشبه الاكواخ الصينية قائمة فوق التلال .

وقد لاحظت ونحن في طريقنا الى عنه ان بعضا من جماعتنا (وكنت اجنبيا بالنسبة اليهم) قد تخلوا عني ، وشرعوا يقنعون ربان سفينتنا ، وهو من ابناء هذه المدينة ، بان لا يأذن لي بمشاهدة معالم المدينة ، وان يتهمني

---

(١٢) الخطأ الذي وقع فيه الرحالة راوولف بالنسبة للنفوذ الذي كانت تخضع له البلاد التي طاف فيها هو انه اعتبر نهر الفرات حدا فاصلا بين مملكة السلطان العثماني وممالك امراء الجزيرة العربية . فقد ظن ان كل الاراضي التي تقع على الضفة اليمنى من النهر تعود الى امراء عرب الجزيرة على اساس اتصال تلك الاراضي باراضي الجزيرة العربية فعلا ، اما التي تقع على الضفة اليسرى من النهر فقد اعتبرها خاضعة لنفوذ الاتراك .

(١٣) القائم ذكرها المؤلف غاميل Gamel وهو من المواقع القديمة عرفت باسم دير القائم لدى البلدانيين العرب يعود زمنه الى القرن الثاني للميلاد وفيه برج يشبه ما هو موجود في الحضر وتدمر . والقائم الان ناحية تابعة لقضاء عنه ويبعد عنها بمسافة ٧٥ كيلو مترا ، وهو ليس قريبا من عنه كما اورد الرحالة ذلك هنا .

امام حاكمها بالتجسس زاعما بانني كنت اشاهد كل المدن والاماكن بدقة ، وانني كنت افكر في خيانتهم حالما تحين لي الفرصة ، وانهم سيخيفونني بهذه الوسيلة ويحصلون بذلك على رشوة طيبة مني في النهاية • وفعـلا ذهب البعض منهم الى نائب الباشا وطلبوا اليه ان يرسل احد خدمه معهم ، وكان هذا الخادم قد التقي بي في احد الشوارع الطويلة وهو يحمل في يديه اغلالا واصفادا من الحديد كانت تتدلى من يديه الى الارض فاقتادني معه واذ ذاك احسست بنواياهم السيئة تجاهي وبما كانوا يعتزمون تنفيذه ضدي • وذهبت مع خادم الحاكم لارى ما سيفعلونه معي ، حتى اذا وصلوا الى المرسى امروني ان اصعد الى السفينة ، وان امكث فيها واتلقى الاوامر منهم • واخيرا اتفقوا فيما بينهم واخبروني على لسان واحد منهم ، كان يمتطي جوادا ويرتدي صداريا من الفراء بانني اذا كنت اريد حريتي فعلي ان ادفع الى نائب الباشا مبلغ خمسمائة دوقة • وحين قلبت الامر على وجوهه ووجدت نفسي بانني قد غدوت وحيدا ، وان هذه الطلبات ليست معقولة ، ورأيت نفسي في مثل هذا الحرج والخطر ، فكرت ان هناك حاكما اخر في القسم الثاني من عنـه الذي يقع على الضفة الثانية من النهر ، وان هذا الحاكم تركي واستطيع ان ارفع شكاتي اليه ضد مطاليبهم الجائرة هذه ، ولاسيما بعد ان فقدت كل امل في الحصول على عون منهم • ولذلك تزودت بجواز سفري ، واعددت ملابسي كيما استطيع السباحة في النهر والخلاص من ايديهم اذا ما حاولوا مهاجمتي والقاء القبض عليّ •

واخيرا ، وحين كانوا ينتظرون جوابي والنقود التي طلبوها مني انبأتهم بما صممت على تنفيذه وذلك بكل بساطة ووضوح ، فانتابهم جراء ذلك خوف اشد من الخوف الذي اثاروه في نفسي قبلا وعندئذ ايسوا من الحصول على بغيتهم الظالمة ولم يحصلوا من الخمسمائة دوقة التي طلبوها سوى دوقة واحدة دفعوها الى خادم الحاكم تخفيفا له عن المتاعب التي تحملها في سبيل ذلك •

الفصل الثاني عشر

الطريق الذي سلكناه من عنه الى بابل القديمة(١) عبر المدن القديمة المسماة حديثة(٢) وجبة(٣) وهيت(٤) وما شاهدناه من حقول بهيجة مثمرة على ضفتي النهر اكثر من ذي قبل .

بعد ان انتهت الكارثة التي كادت تقع على رأسي ، وبقوة من الله العظيم منحني اياها واسر بها الي لافعل ما فعلت ، غادرنا (عنه) في الرابع عشر من

---

(١) كان راوولف واحدا من الرحالين الاوربيين الذين ظنوا خطأ ان مدينة الفلوجة الحالية هي موقع بابل القديمة . وسبب هذا الخطأ كما نعتقد هو ان راوولف واضرابه لم يطالعوا بعض الكتب التي وضعها البلدانيون الاغريق والعرب الذين حددوا موقع بابل تحديدا صحيحا . ولما كانت الفلوجة ، وهي من المدن القديمة التي نشأت في العهد السومري ، تحتفظ في عهد راوولف وما بعده بآثارها القديمة مثل بابل ، وتقع على نهر الفرات كما تقع بابل هي الاخرى ، فقد خيل اليه ان الفلوجة هي بابل ذاتها (انظر كتابنا « رحلتي الى العراق » الذي ترجمنا به رحلة بكنفهام الى العراق سنة ١٨١٦ الجزء الاول ص ٢٧٠)

(٢) الحديثة مركز ناحية تابعة لقضاء عنه وهي قسمان في جزيرة وسط نهر الفرات فيها بقايا قلعة اثرية قديمة ذكرها ايزودور الخاركسي باسم « الابس » . وقد استوطنت الحديثه قبل الفتح الاسلامي وقد تحدث عنها ابن خرداذبة وياقوت الحموي وغيرهما .

(٣) جبه ذكرها المؤلف باسم جبو Juppo وهي قرية صغيرة على الفرات ذكرت في المصادر السومرية باسم « دل » والاكدية باسم « انتو » وفي

(٤) هيت كتبها المؤلف باسم ايديت Idit وهي من المدن القديمة في العراق ذكرت في المصادر السومرية باسم « دل » والاكدية باسم « انتو » وفي اليونانية « اد » و « ايوبوليس » اشتهرت بوجود منابع القير فيها وتضم الان بقايا اثرية مهدمة وقائمة . وذكرها بطليموس في جغرافيته باسم « ادكارا » كما ذكرها اميانوس باسم « دياكيارا » وبلغ من اهمية هيت في العصور القديمة بسبب وجود القير فيها ، ان الملك سرجون الاكدي توجه اليها بنفسه لتقديم القرابين الى الاله « داغان » الذي اقيم معبده هناك .

تشرين الاول • كان يمتد امامنا ريف مخضوضر مثمر تناثرت فوقه بعض الدور الجميلة هنا وهناك بشكل متقارب ، فما نكاد نمر امام واحد من هذه الدور حتى نشاهد الثاني ببساتينه وحدائقه التي تحيط بها اشجار النخيل الجميلة واشجار اخرى غيرها مما لم استطع تمييزه منها لانها كانت تمتد الى مسافات بعيدة ، وعلى هذا المنوال لمسنا تغييرا كبيرا • فالفيافي المقفرة التي كانت تضم مساحات شاسعة حتى النهر تكاد لا ترى شجرة واحدة فيها طيلة مسيرة يوم واحد ، هذه الفيافي قد تحولت في نهاية مدينة عنه الى ارض خصبة ، فغدت الرحلة خلالها مفرحة جدا سيما واننا لم نعد نخشى من خطر الاعراب علينا • على ان ربان السفينة كانت تبدو عليه علائم الاضطراب الشديد لان النهر كان عند الضفاف مغلقا عادة بصخور كبيرة تجعله يرتفع عاليا وذلك بسبب وجود عدد كبير من مكائن او دواليب الماء الضخمة المرتفعة[٥] حيث تطرح تلك الصخور في النهر كيما تحصر الماء فيندفع بقوة الى تلك الدواليب ويحركونها •

وغالبا ما يحدث ان تقوم اثنتان من هذه المكائن في موضعين متقاربين فتشغلان بذلك مساحة واسعة من النهر بحيث كان يصعب علينا المرور بسفينتنا خلالها الا بحذر شديد من جانب الربان لنستطيع المرور دون التعرض الى خطر الاصطدام •

---

(٥) هذه الدواليب هي المعروفة بالنواعير ، جمع ناعور ، وهي من الالات التي يرفع بها الماء من النهر لغرض الزراعة وكانت منتشرة على ضفاف نهر الفرات بقدر اكثر مما هي عليه في دجلة ولكن عددها تناقص في السنين الاخيرة نتيجة استخدام المضخات البخارية بدلا منها ومع ذلك ما تزال مناطق عنه في العراق وحماة في سوريا تحتفظ بعدد من هذه النواعير . ويتالف الناعور من عجلة حديدية مرتفعة تقام فوق خندق ماء عند ضفة النهر وتربط بها اوعية حديدية تحمل الماء فحين يمر تيار النهر في الخندق يحرك العجلة فتدور واذ ذاك تمتلىء الاوعية بالماء حتى اذا ارتفعت الى اعلى انسكب ما فيها من الماء في ساقية تروى بها المزارع والحقول .

والسبب في وجود هذا العدد الكبير من هذه المكائن هناك ان النهر لا يفيض (كما هو شأن نهر النيل) فيغمر الاراضي ، ولان المطر لا يسقط فيها بكميات تكفي لانبات البذور وزراعة البساتين ، ولذلك يقدم اهل هذه البلاد على انشاء هذه المكائن والدواليب المائية حيث تقام كل ثلاثة او اربعة منها مجتمعة ، الواحدة منها خلف الاخرى في عرض النهر فتدور ليل نهار ، وبذلك ترفع الماء من النهر وتفرغه في قنوات خاصة اعدت لهذا الغرض وبقصد ارواء كل الاراضي .

ولكن اذا لم تكن الارض ملائمة ، وكان الشاطى مرتفعا كثيرا يحول دون نصب هذه المكائن ، فان القوم يعتاضون عنها بآلات اخرى يديرها زوج من الثيران لرفع الماء من النهر في اوعية جلدية كبيرة تكون مفرطحة في القسم العلوي ، وضيقة عند القعر .

وتمتاز هذه الاراضي بكثرة ثمارها . ذلك لاننا سرعان ما وجدنا كميات كبيرة من الفواكه اللذيذة التي ابتعناها بقليل من النقود ، وكان من بينها البطيخ الشهي الطعم جدا .

وحين تقدمنا في مسيرتنا شاهدنا الاراضي القائمة على ضفتي النهر وقد زرعت كلها بالذرة التي يكثر السكان من زراعتها بكميات اوسع من الحنطة او الشعير اذ ان الرمال العميقة الغور تحول دون زراعة الحنطة فيها بشكل جيد . وقد وجدنا هذه الذرة قد حان حصادها بل انها حصدت فعلا في اماكن اخرى قبل هذا الوقت . وتشتهر الذرة بسوقها العالية التي يبلغ ارتفاع الواحدة منها ما بين ستة وثمانية اذرع ، واوراقها اشبه باوراق القمح الهندي او قصب السكر . وقد تناولته لاول مرة ووجدت السكان المحليين يعلكونه مثلما يعلكون قصب السكر لانه يحوي عصارة حلوة لطيفة ولاسيما في القسم الاعلى من القصبة بينما تستقر العصارة في قصبة السكر في القسم

الاسفل منها ، وهم يسحبون هذه العصارة منها • وشاهدت رؤوس هـذه الذرة البيضاء اللون ووجدتها كبيرة على خلاف الذرة الايطالية • وهـذه الرؤوس مكونة من حبوب بيضاء تلتصق كل حبة منها بين ورقتين وتكون في بعض الاحيان مضغوطة من الجوانب •

ويصنع من هذه الذرة خبز وكعك لذيذ الطعم ، والبعض منه رقيق اشبه بالورق لا يزيد عرض القرصة الواحدة عن اربع بوصات وطولها ست بوصات وسمكها بوصتان وهي تبدو رمادية اللون •

والسكان المحليون لا يزالون يسمون هذه الذرة باسمها العربي القديم « الذرة » التي اشار اليها (الرازي) لانـــه قرأ عنها كثيرا في مؤلفات المؤرخين •

★ ★ ★

سارت رحلتنا سيرا حسنا جدا واخذ التجار معنا يمضون اوقاتهم في اللهو • فالبعض منهم كان يلعب لعبة تسمى (الثمانية عشرة) واخرون كانوا يلعبون الشطرنج التي يلعبها الاعيان ، وغيرهم كانوا يمضون الوقت في القراءة والانشاد • وكان من بينهم تاجر من البصرة اعتاد ان يرتل « القرآن » عدة مرات وبصوت عال ولطيف جدا • ولقد كنت اشعر بمسرة كبيرة وانا انصت اليه ، ومع ذلك فلم ينغمر اللاعبون في لهوهم الى الحد الذي يجعلهم ينسون اداء الصلاة ولاسيما حين يدعوهم المؤذن ، بصوته العالي ، الى ادائها سواء في السفينة او خارجها في الصحراء حين يحين وقت الصلاة •

ولقد وجدت بين بعض المسلمين غيرة على الدين ، والتزاما به اكثر مما هو موجود لدى البعض الاخر منهم • وان كان المسلمون عامة يمارسون ذات الشعائر ، عند اقامة الصلوات • فهم جميعا يؤدون الصلاة خمس مرات كل

يوم ، ثلاث منها في النهار ، تبدأ الاولى عند الظهيرة ، والثانية حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر[٦] والثالثة حين تغرب الشمس •

اما صلوات الليل فاثنتان ، الاولى منهما قبل ان تشرق الشمس بساعة ونصف الساعة ، والثانية بعد الغروب حين يصفو الجو وتطلع النجوم •

ولم يكن الظلام ، ولا الخطر الذي قد يلف الموقع ، او عدم ملاءمة الوقت ، ليمنع المسلمين من النهوض في وقت يكون فيه سواهم غارقين في النوم ، والهبوط من السفينة الى الارض الخلاء لاقامة الصلاة فيها برهبة وخشوع • فقد كنت اراهم غالبا وكأن الدموع تنحدر من مآقيهم •

ولا بد لي من الاعتراف هنا بان المسلمين يتمسكون بشعائر دينهم ، ويحافظون عليها اكثر من اية امة اخرى ، وان هذه الشعائر تردعهم عن تناول الخمور ، وتأمرهم بالتقشف ، والعكوف على اداء الصلوات •

★ ★ ★

في الثامن عشر من الشهر وصلنا الى « حديثة » وهي مدينة جميلة وكبيرة قديمة البناء تخضع لشيخ البادية ، ويقسمها نهر الفرات ، مثل عنه ، الى قسمين ، يقع القسم الاكبر منها على الجهة اليمنى من النهر •

في هذه المدينة دفع ربان السفينة الى موظف الكمارك مبلغ صايين[٧] (والصاي يبلغ حوالي ثلاثة بنسات في بلادنا) ومن ثم استأنفنا الملاحة ثانية كيما نستطيع ان نبلغ مدينة « جبّه » ليلا •

كان ربان السفينة نشطا وحمسا اكثر من ذي قبل • وكان يحث ملاحيه على مواصلة الجدف ، ولا سيما حين يكون النهر عريضا وعميقا اشبه بالبحر ،

---

(٦) هذا حسب التوقيت الاوربي وفي ايام الشتاء عادة

(٧) الصاي عملة تركية قديمة معروفة قبلا في العراق وهو يذكر باسم « صاغ » ايضا ويعادل زهاء عشرة فلوس بالعملة العراقية الحاضرة ولا يزال المصريون يستعملون « القرش الصاغ » حتى اليوم

وهكذا وصلنا ، بعد حلول الظلام بقليل الى « جبة » وهي مدينة حسنة البناء تعود الى الاتراك ويقسمها النهر ايضا الى قسمين يقع احدهما وسط النهر على ارض مرتفعة يقوم في قمتها حصن وبذلك تكون المدينة محصنة تحصينا قويا .

اما القسم الثاني وهو اكبر من الاول فانه يقع على الشاطىء الايسر في ارض العراق(٨) ويضم بساتين كثيرة يملكها اصحاب الدور ، وهي غنية باشجار النخيل ، ولذلك انفق التجار نصف النهار في هذا القسم لشراء التمر والتين واللوز لينقلوه معهم الى الخان ، وقد فعلوا الشيء ذاته في « هيت » وهي مدينة كبيرة اخرى تقع على الضفة اليمنى من الفرات فوق ارض مرتفعة، وقد بلغناها في العشرين من تشرين الاول وفي وقت حسن من الليل .

ويقايض التجار هذه الاثمار التي يشترونها بقوالب الصابون والسكاكين والورق وغيره ، وتلك هي السلع التي يطلبها اهل هذه المدن منهم . ولقد اعطيناهم صحائف من الورق الابيض تقبلوها بفرح كبير وشكرونا على ذلك كثيرا .

وبعد ان اكتفى تجارنا من شراء هذه المواد ، ودفع ربان سفينتنا الرسم المطلوب ، اقلعنا ظهر يوم الحادي والعشرين من الشهر مستأنفين رحلتنا .

وفي المساء شاهدنا على الجانب الايمن من النهر طاحونة كما شاهدنا اخرى مثلها صباح اليوم التالي ، وجملة من الجدران والابواب والقناطر القديمة ، عرفت منها انه كانت تقوم في هذا المكان قبلا احدى المدن . وقد

---

(٨) خيل الى الرحالة راوولف ان العراق يبدا من الضفة اليسرى لنهر الفرات في حين ان حدود العراق الحقيقية كانت تتجاوز مدينة « دير الزور » التي تدخل الان ضمن الاراضي السورية ودياربكر الداخلة اليوم في الاراضي التركية .

علمت ان تينك الطاحوتتين كانتا تستعملان لطحن بارود البنادق للسلطان التركي . وكان هذا البارود يرسل اليه في قوافل مع سلع اخرى عبر الاراضي التابعة لامير العرب ، حيث ينبغي للسلطان ، مثل بقية التجار ، ان يدفع الرسم عن ذلك البارود .

وبارود المدافع هذا لا يصنع من ملح البارود[٩] مثلما يجري ذلك عندنا في اوروبا وانما يستخرج من عصير شجرة من نوع الصفصاف يسميه الفرس (فير) بينما يدعوه العرب باسم « الغرب » كما اشرت الى ذلك قبلا . فهم يقطعون الاغصان الصغيرة من هذه الاشجار واوراقها فيحرقونها ويحولونها الى مسحوق يلقون به في الماء الى ان تنفصل ذرات الملح عنه واذ ذاك يصنعون منه بارود المدافع ، ومع ذلك فهذا البارود ليس قويا كالذي نصنعه نحن في بلادنا . ولقد اكد ذلك المؤرخ « بلينى » في الفصل العاشر من الجزء الحادي والثلاثين من كتابه اذ قال « ان الناس في الايام السالفة كانوا يستخلصون « النيتر »[١٠] من اشجار البلوط » .

وذلك امر محقق فعلا لان استعمال البارود في تلك الايام لم يكن واسعا قبل ان تخترع المدافع مثلما هو عليه الان .

كذلك شاهدت على ضفاف النهر الغالية كثيرا من نبات (الحنظل)[١١]

---

(٩) ملح البارود Salt - Peter يقصد به مادة نترات البوتاس التي تدخل بصفة رئيسة في صناعة البارود .

(١٠) النيتر Nitre ، Niter هي نترات البوتاس او آزونات البوتاسيوم وتسمى ملح البارود ايضا .

(١١) الحنظل ذكره باسم Coloquinis ويعرف بالانكليزية باسم Colocynth

لم استطع ان اتحقق منه عن بعد ، الا انه لا يزال حتى الان معروفا لدى السكان باسمه العربي القديم وهو « الحنظل » .

بعد ان امضينا في ملاحتنا عدة ايام وفي ماء حسن التيار وصلنا اخيرا ليلة الرابع والعشرين من تشرين الاول الى « الفلوجة »(١٢) وهي قرية صغيرة تحمل هذا الاسم الذي يطلق على المنطقة كلها ايضا .

---

(١٢) الفلوجة ذكرها راوولف باســـم فيلوغو Felugo وايلوغو Elugo وهي من المدن القديمة في العراق يقال عنها انها نشأت في العهد البابلي وذكر بعض المؤلفين ان أصل اسم الفلوجة هو فيلوغوسيا Philogosia وذلك من اسم فيلوغاس أحد ملوك الارشاقيين الذي اقامها . وقـــد أطلق العرب على الفلوجة قبلا اسم « صهباجا » وهي اليوم من الاقضية المهمة التابعة لمحافظـــة « الأنبار » .

الفصل الثالث عشر

بابل القديمة عاصمة كلده وموقعها[1] كيفية بقائها حتى اليوم بعد الخراب الهائل الذي اصابها وهي ترى ببرجها واسوارها المهدمة الغارقة في التراب

تقع مدينة الفلوجة في الموقع الذي كانت تقوم فيه قبلا مدينة (بابل) القديمة عاصمة كلدة • ويقع بناؤها على بعد ربع فرسخ • ومنها يتوجه من يريد السفر بطريق البر الى مدينة بغداد الشهيرة التي تقع شرقا على نهر دجلة وعلى مسيرة يوم ونصف اليوم •

وفي هذا الميناء يقع المكان الذي كانت تقوم فيه مدينة بابل • ولكن في الوقت الحاضر لا يرى ولا منزل واحد هنا نستطيع ان ننقل اليه سلعنا ونمكث فيه الى ان يحين وقت الرحيل • ولذلك اضطررنا الى ان نفرغ بضاعتنا في مكان مكشوف وكأننا وسط الصحراء ، وان ندفع الرسوم تحت السماء التي تعود الى الاتراك !

وهذه البلاد جافة قاحلة لا يمكن زراعتها وهي مقفرة بدرجة رحت معها اشك كيف كانت هنا في يوم من الايام مدينة قوية بل اشهر واعظم مدن العالم هي بابل التي تقع في ارض شنعار المبهجة المثمرة ، لو لم اكن اعرفها بموقعها ، وبالاثار القديمة القيمة التي ما زالت قائمة وقد اصابها الدمار •

فقبل كل شيء كان هناك الجسر القديم الذي كان يمتد فوق نهر

---

(1) سبقت الاشارة في الفصل السابق الى الخطأ الذي وقع فيه راوولف حين ظن ان الفلوجة هي مدينة بابل ولذلك فان كل ما يذكره هنا عن بابل انما يقصد به مدينة الفلوجة ليس غير

الفرات والذي سماه النبي « باروخ » باسم (سود)[٢] وذلك في اصحاحه الاول ، حيث لاتزال بعض قطع الجسر وقناطره باقية حتى اليوم على مسافة قريبة شمالي المكان الذي هبطنا اليه وقد شيدت هذه القناطر من الآجر وهو من نوع قوي ومدهش . ذلك لاننا منذ ان قدمنا من مدينة «البير» الى هناك . لم نر على النهر حتى ولا جسرا واحدا . ولهذا اقول انه من المدهش ان يبنى مثل هذا الجسر في مثل هذا الموقع الذي يبلغ عرض النهر فيه مسافة نصف فرسخ فضلا عن عمق النهر في هذا المكان .

وعلى مقربة من الجسر اكوام من القار البابلي لطلاء السفن به ، وهو يكون صلبا في بعض الاماكن بحيث تستطيع ان تمشي فوقه ، لكنه في اماكن اخرى جلب اليها حديثا يكون رقيقا وتظهر عليه آثار كل خطوة تخطوها عليه[٣] .

وعلى مقربة من قرية الفلوجة وامامها تماما يقوم تل يمثل القلعة التي كانت قائمة في السهل حيث لا تزال تشاهد انقاض تلك القلعة التي تهدمت وخلت من ساكنيها .

وخلف القرية يقوم برج بابل الذي بدأ اولاد نوح (وكان اول من سكن هذه الاصقاع بعد « الطوفان »[٤]) ببنائه صعدا الى السماء .

---

(٢) SUD والنبي باروخ احد الشخصيات اليهودية كان سكرتيرا للنبي ارميا وقد وضع كتابا عن التوراة عثر على ترجمته السريانية في ميلان .

(٣) وقع الرحالة الانكليزي الشهير جمس بكنغهام (١٧٨٦ — ١٨٥٥ م) في الخطأ ذاته اذ نقل عن راوولف ما ذكره هنا عن هذا القار وكانه موجود في مدينة بابل ذاتها وليس في الفلوجة كما هو الواقع حيث كان يجلب اليها والى بقية مدن جنوبي العراق من هيت (انظر ترجمتنا لرحلة بكنغهام المعنونة « رحلتي الى العراق » الجزء الاول حاشية الصفحة ٢٥٢ طبعة ١٩٦٨)

(٤) الطوفان Deluge هوالطوفان الكبير الذي وقع في العراق في عهد السومريين وسجله كلكامش في ملحمته كما اتت التوراة والقرآن الكريم على ذكره وقد اشتهر النبي نوح عليه السلام بانه انقذ بسفينته بعض البشر والحيوانات من ذلك الطوفان

فنحن لا نزال نشاهد هذا البرج الذي يبلغ قطره نصف فرسخ ، لكنه قد تهدم وغدا واطئا وسكنته الهوام ، واتخذت لها فيه جحورا . اذ ان المرء لا يستطيع ان يقترب الى اقل من نصف ميل منه الا خلال شهرين من اشهر الشتاء لا تخرج الهوام فيهما من جحورها(٥) .

ومن بين هذه الهوام نوع يسميه الفرس (ايغلو)(٦) وهو سام جدا كما اخبروني بذلك وهو اكبر من « العظاية » او « الضب » المعروف عندنا وله ثلاثة رؤوس(*) وتكسو جلده بقع ذات الوان عدة . وهذه لا تسكن البرج وحده بل القلعة ايضا وهي ليست مرتفعة كثيرا . وكانت توجد تحت القلعة بئر للماء ولذلك فلا تستطيع هذه الهوام ان تعيش فوق التل ولا تجرأ على شرب الماء الذي ترده الماشية(**) .

وعلى مسافة فرسخين نحو الشرق من الفلوجة تقع مدينة «تراكست»(٧)

---

(٥) يبدو لنا ان ما ذكره راوولف هنا عن هذه الهوام في البرج قد نقله اما عن البعض من اهل العراق وغيرهم الذين تحدثوا عن تلك الهوام دون ان يروها ، واما انه اخذها عن التوراة التي حوت تنبؤات بعض انبياء اليهود بالمصير السيء لمدينة بابل لانها استولت على فلسطين وسبت اليهود الذين كانوا فيها بعشرات الالوف الى العراق وقد جاءت هذه التنبؤات بصفة خاصة في اسفار اشعيا وارميا وباروخ .

(٦) ايغلو Eglo والظاهر انه نوع ضخم من الضب .

* علق المترجم ستافورست على هذا القول « كان راوولف على الدوام ساذجا يصدق بيسر ما يقصه عليه الاخباريون . ذلك لانه لم يكتشف حيوان له اكثر من رأس واحد وانني اؤكد هذا طبعا بكل ثقة » .

** وضع المترجم ستافورست الى جانب ذلك هذه العبارة « هذه اسطورة »

(٧) خيل الى راوولف أن هذه المدينة التي ذكرها باسم تراكست Traxt هي مدينة (افاميا) التي بناها سلوقس الاول قائد الاسكندر المقدوني الذي تولى الحكم بعد وفاته في العراق وسوريا واقام السلالة السلوقية والذي نراه ان المقصود بمدينة تراكست ليس افاميا بل مدينة (كرخ) Kharax او خاركس التي كانت تقع في المكان الذي تقوم فيه مدينة « المحمرة » في الاحوازه وكانت الكرخ عاصمة مملكة عربية قامت قبل ميلاد المسيح بعدة قرون واشتهرت بالتجارة والملاحة (انظر كتابنا « الصراع على الخليج العربي » طبعة ١٩٦٦م)

القوية التي كانت تدعى قبلا باسم « افاميا »[٨] التي اشار اليها « بليني » في الفصلين السادس والعشرين والسابع والعشرين من الجزء السادس من كتابه . وقد وردت في الاصحاح الثاني من « سفر الخليقة » اشارة الى ان الفرات ودجلة هما من انهار الفردوس العظيمة ، وانهما يلتقيان على مسافة غير بعيدة فيؤلفان نهرا واحدا[٩] .

ومدينة « تراكست » محاطة بخنادق ويمكن الدفاع عنها جيدا وذلك لوجود قلعتين قويتين تقع كل واحدة منهما على طرف من اطراف المدينة وهي تعتبر مدخل مملكة فارس . وهناك كثير من المدن الاخرى تتبع مملكة فارس ولا تبعد عنها كثيرا من امثال « ارثوسيا »[١٠] و « الاجمة »[١١] اللتين تقعان في الطريق الى ماذي وكذلك مدينة« جوخى »[١٢] التي تقع على الجانب الاخر

---

(٨) افاميا بناها سلوقس الاول على مقربة من مدينة « القرنة » الحالية وهناك مدينة اخرى بنفس الاسم بناها سلوقس ايضا في الاراضي السورية في اعالي الفرات .

(٩) لا يوجد مكان يلتقي فيه الفرات بدجلة الا في مدينة القرنة وكان الفرات يتصل بنهر دجلة في جنوبي بغداد عن طريق نهر « الملك » الذي كان يتفرع من الفرات ويصب فرع منه في دجلة عند مدينة سلوقية عاصمة المملكة السلوقية التي تقع جنوبي « الدورة » وتعرف آثارها باسم « تل عمر » .

(١٠) يخبط المؤلف هنا خبط عشواء فيما يتعلق باسماء المدن والمواقع التي ذكرها . فقد ذكر اسم مدينة (اورثوكس) Orthox والغالب انما هي مدينة (ارثوسيا) التي تقع على نهر العاصي في سوريا . وكان راوولف يتصور ان البلاد الواقعة شرقي نهر الفرات تدخل في حدود مملكة فارس .

(١١) اوردها باسم مدينة لايجن Laigen وهي على الارجح مدينة « الاجمة » وهو موقع محصن يقع جنوبي « عاقول » احد فروع نهر البليخ وعلى بعد كيلومترين عن البليخ .

(١٢) ذكرها باسم مدينة Goa ولعل المقصود بها مدينة « جوخي » او كوخي وكوشي التي تقع ما بين سلوقية وطيسفون على نهر دجلة .

من دجلة بسافة فرسخ ونصف ، ومدينة « اكست »(١٣) على بعد فرسخين في الطريق الذاهب الى فارس .

★ ★ ★

امضينا اليوم التالي ، وهو الخامس والعشرون من شهر تشرين الاول ، في شراء بعض الابل والحمير لننقل عليها بضاعتنا . وبعد ان انهينا استعدادنا ، رحلنا في باكر صباح اليوم التالي مع القافلة برمتها متوجهين الى بغداد .

كانت الطريق في البداية وعرة جدا ، ملأ بالاحجار والانقاض المتساقطة فيها ، ولكن بعد ان اجتزنا مدينة « دانيال »(١٤) وقلعتها ، اخذنا نجتاز صحراء قاحلة لم نر فيها سوى الاشواك ، ولم نشاهد هناك بشرا ولا حيوانات ولا كهوفا او خياما ، ولذلك كان يصعب كثيرا على الرجل الذي لا يعرف معالم الطريق ان يستدل به ويسير فيه . وهذا ما لاحظته كثيرا بالنسبة الى دليلنا الذي كانت الحيرة تنتابه عدة مرات (بسبب عدم وجود اشارات تدل على الطريق او عدم العثور على بشر او حيوان فيه) في تعيين السبيل الذي ينبغي له ان يسلكه . ولذلك كان في بعض الاحيان يسلك احد الطرق ثم لا يلبث ان يتركه ليأخذ آخر غيره والقافلة تسير في اثره .

وكنا ، ونحن نسير في هذا السهل ، نشاهد الكثير من الابنية القديمة الكبيرة العالية المنتظمة والحصون الشاخصة وسط الرمال ، وهي جميلة الشكل متقاربة احدها من الاخر على غرار ما نعثر عليه في الاودية ، وقد انتشرت هنا وهناك ، وحل الخراب في كثير منها فتركها انقاضا ، وكانت ترى على البعض منها رسوم جميلة تستحق المشاهدة والتمعن .

---

(١٣) اكست Acre هي مدينة طيسفون او سلمان باك الحالية جنوبي بغداد
(١٤) مدينة دانيال اراد بها اطلال دوركوركاليزو المعروفة باسم « عقرقوف » والتي شيدها كوركاليزو احد الملوك الكشيين في حدود سنة ١٤٨٠ قبل الميلاد وانشأ فيها « زقورة » ما تزال بقاياها شاخصة حتى اليوم .

كانت هذه الابنية تقف مهدمة مخربة لم يبق منها سوى ابراج «دانيال» التي شيدت كلها من الحجر الاسود وهي لاتزال مأهولة حتى اليوم •

وهذه الابراج في بنائها وارتفاعها تشبه ابراج كنيسة « الصليب المقدس » او كنيسة « القديس موريس » في اوغسبرغ فانت لو صعدت فوق هذه الابراج لشاهدت برج بابل القديم ، وتل القلعة مع بقية الابنية بوضوح لاطلعت على وضع المدينة القديمة اطلاعا تاما •

بعد ان امضينا اثنتي عشرة ساعة في هذه الارض الموحشة الصلبة والتي كلت ابلنا وحميرنا في قطعها من وطأة الاثقال التي كانت تحملها ، توقفنا عن السير عند احد المرتفعات للاستراحة فبقينا على هذه الشاكلة الى ان انتصف الليل وعندئذ استأنفنا مسيرتنا كيما نصل بغداد قبل ان تشرق الشمس •

وفي الوقت الذي انخنا فيه ركائبنا هناك ، رحت امعن النظر في المرتفع الذي نزلنا عنده فلاحظت وجود مرتفعين احدهما خلف الاخر يفصل بينهما خندق ، وهما يمتدان سوية اشبه بجدارين متوازيين لمسافة طويلة الى ان ينهيا عند مواضع تشبه الابواب مما حملني على الاعتقاد بانهما كانا جدران مدينة قديمة قال المؤرخ « بليني » عنها ان ارتفاع جدرانها يبلغ مائتي قدم ، وان عرض الواحد من تلك الجدران خمسون قدما ، وان الفتحات الموجودة فيها كانت تؤلف قبلا ابواب تلك المدينة التي بلغ مجموعها مائة باب من الحديد ، وذلك قول صائب لانني شاهدت بنفسي الجدران القديمة التي غطتها الاتربة وقد بدت ظاهرة للعيان بكل وضوح ، وهكذا وجدنا انفسنا عند جدران مدينة ملكية شهيرة فيما مضى وقد تهدمت ابنيتها الفخمة المجيدة وغطتها الرمال ، ولذلك فان من يجوسها يأخذه العجب والدهشة اذ يروح يتذكر المجد الذي اصابته والملوك العظام الذين حلوا فيها من امثال نمرود

وبيلوس[١٥] ومن بعدهما الملك مردوخ[١٦] وخلفه « بيلانصر »[١٧] وهو من ذريته الذي جاء في النهاية ، وكيف تحولت قصورها وبساتينها الى خرائب وقفار الى درجة انه حتى الرعاة كانوا يخشون ان ينصبوا خيامهم هناك والسكن فيها .

انه لمثل مرعب ومخيف لكل الطغاة والمتجبرين هذا المثل الذي تقدمه بابل لهم كيما يتحققوا بانهم اذا لم ينصلحوا ويتخلوا عن طغيانهم ويتوقفوا عن قتل الابرياء بالحروب والسجون وبالاوبئة القاسية اللا انسانية ، فان الله الجبار سوف يقضي عليهم ويعاقبهم بغضب منه ، لان الله آله غيور ولا يحتمل غرور الطغاة طويلا ، ولا يترك المسيئين من دون عقاب ، فلا بد ان يحقق فيهم نبوءاته مثلما فعل ذلك باهل بابل المتجبرين حيث انذرهم كل من اشعيا (في اصحاحه الثالث عشر) وارميا (في اصحاحه الحادي والخمسين)[١٨] .

---

(١٥) لم يكن بيلوس اسما لملك من الملوك كما ظن راوولف ذلك وانما هو اسم (بعل) آله اشور بل كبير الهتها وكان مقره في مدينة نينوى وقد نقل اليونانيون عن هيرودوت هذا الاسم الذي يقصد به الاله مردوخ كبير آلهة بابل .

(١٦) Meradach لم يكن ملكا كما ذكر راوولف ذلك وانما كان كبير آلهة بابل وقد اقيم له اعظم معبد في بابل هو معبد « ايساكلا » اي البيت الرفيع ، وفيه تماثيل من الذهب الخالص للاله مردوخ نفسه

(١٧) بيلانصر Belathsar هو بلشاصر احد ملوك البابليين وقد قتل بيد الفرس الذين هاجموا بابل بقيادة الملك داراالاول ملك الفرس الاخمينيين بعد ان حاصروها عدة اشهر واستولوا عليها بخديعة دبرها احد عملائهم من الداخل .

(١٨) وردت انذارات وتنبؤات عن المصير السيء لبابل في كثير من اسفار اليهود الذين سحقت بابل مملكتهم واخذت الالوف منهم اسرى الى العراق فقد قال اشعيا ، وكتابه من اسفار اليهود الاربعة الكبار ويقع في ستة

واذ مررت بهذه الاثار وجدت العاقول قد نبت في الرمال المحيطة بها كما وجدت انواع كثيرة وغريبة من نبات الحنظل .

وحين حل المساء وارخى الليل سدوله كان المكاريون الذين يسوقون دوابنا قد اتموا استعداداتهم لمواصلة الرحلة ، فاعد كل شيء بانتظام واستعد كل فرد من افراد القافلة للسفر في غضون ربع ساعة .

وعلى الطريق شاهدت آثارا اخرى ولكن حلول الظلام لم يمكنني من رؤيتها جيدا . وهكذا واصلنا مسيرتنا في الظلام كيما نستطيع ان نبلغ بغداد قبل ان يطلع النهار بساعتين .

في صباح اليوم التالي ، وهو السابع والعشرون من تشرين الاول ، نزلنا انا وواحد من جماعتنا في منزل احد التجار المشهورين الذين ينتسبون الى حلب وكان قد عاد مؤخرا من الهند .

ولقد استقبلنا ذلك التاجر استقبالا حسنا ورقيقا فمكثنا في بيته اربعة ايام حين حصلنا على حانوت في الحوش الواسع العائد للباشا التركي والذي يقع في المدينة الاخرى القائمة على الضفة الثانية من نهر دجلة حيث انتقلنا اليـه(١٩) .

وستين فصلا ، « ان بابل فخر الممالك وجمال الفخامة الكلدانية ستصبح مثلما صنع الرب بسدوم وعامورة ان احدا لن يسكنها ولن يعيش فيها احد من جيل الى جيل .. وان اوانها يوشك ان يحل وايامها لن تطول : الاصحاح الثامن الاية ١٦ انظر حاشية من ٢٤٤ من الجزء الاول من كتابنا رحلة بكنغهام ط ١٩٦٨ »

اما ارميا فصاحب سفر من الاسفار الاربعة الكبرى ايضا ويقع في ٥٢ فصلا عدا المراثي وعددها خمسة فصول .

(١٩) يقصد راوولف بالمدينة الثانية جانب الرصافة من بغداد وقد عد كل جانب منها بمثابة مدينة منفصلة احداهما عن الاخرى .

الفصل الرابع عشر

مدينة بغداد الشهيرة التي تدعى بالداك(١) موقعها ، نباتاتها الغريبة ، مواصلاتها القديمة ، تجار مختلف الامم الذين يعيشون فيها ، واشياء اخرى شاهدتها وعرفتها بعد مغادرتي لها .

تقع مدينة بغداد العائدة الى الامبراطور التركي عند الطرف النائي جدا من مملكته على ضفاف نهر دجلة سريع الجريان في سهل واسع ، وهي اشبه بمدينة « بازل » على نهر « الراين » ، لكنها ليست جيدة البناء ، لان شوارعها ضيقة ، وكثير من منازلها زري البناء ، يقتصر البعض منها على الطابق الاول حسب ، بينما تحولت منازل اخرى غيرها الى خراب .

ومثل هذا ينطبق ايضا على المساجد التي كانت لقدمها تبدو سوداء(٢) ، وقد تهدمت بحيث يصعب عليك ان ترى واحدا منها سالما ، في حين لا يزال هناك عدد من الكتابات العربية القديمة او الكلدانية محفورة على الجدران(٣) . وكذلك توجد في المدينة آثار كثيرة واضحة لكنني لم استطع ليس قراءتها فحسب ، بل لم اجد من يستطيع ان يترجمها لي .

---

(١) اطلق راوولف على بغداد اسم بغدت Bagdet اما اسم بالداك Baldac الذي اورده في عنوان هذا الفصل من الرحلة ، فان اول من اطلقه على بغداد هو الرحالة البندقي ماركوبولو وعنه اخذه كثير من الكتاب الغربيين.

(٢) اطلق راوولف على المساجد اسم الكنائس وذلك خطأ كبير لانه لم يسمح للطوائف المسيحية ببناء الكنائس في بغداد الا في عهد الاحتلال الصفوي لها على يد الشاه عباس سنة ١٥٢٠م .

(٣) الظاهر ان هذه الكتابات على المساجد وغيرها كانت بالخط الكوفي ولذلك ظن الرحالة انها كلدانية .

هنالك بنايات تستحق المشاهدة من امثال مقر الباشا التركي ، وسوق البضائع الذي يقع خلف النهر في المدينة الاخرى[٤] ، والحمامات التي لايمكن مقارنتها بحمامات حلب وطرابلس ، لان ارضياتها وجدرانها مطلية بالقار الامر الذي جعلها تبدو سوداء معتمة حتى في وضح النهار ، لانها لاتصيب سوى الشيء القليل من النور .

هنالك مدينتان احداهما تقع في هذا الجانب[٥] وهي مفتوحة تماما بحيث يستطيع المرء ان يدخل اليها ويخرج منها ليلا من دون ابة مضايقة ، غير ان هذه المدينة تعتبر في الواقع قرية كبيرة اكثر منها مدينة .

اما المدينة الاخرى فتقع على الطريق الذي يمر الى فارس عند تخوم مملكة آشور[٦] وهي محصنة تحصينا جيدا بالاسوار والخنادق ولاسيما على امتداد نهر دجلة حيث تقوم بعض الابراج ، ومنها برجان يقومان عند الابواب التي تؤدي الى جهة النهر ، لحمايتها . وبين هذين البرجين تقع اسوار المدينة القديمة العالية . وفي اعالي هذه الابراج حفرت كتابات مسطحة بحروف ذهبية يبلغ طول الحرف الواحد منها قدما . ولقد حاولت جاهدا معرفة معاني هذه الكتابات لكنني لم اظفر بذلك لعجزي عن فهمها ، ولانعدام المترجمين مما اضطرني الى التخلي عنها .

وعلى مقربة من هذه الابراج يقوم جسر مصنوع من الزوارق يمتد فوق دجلة ليصل الى المدينة الاخرى .

---

(٤) يقصد بالمدينة الاخرى جانب الرصافة وهو القسم الشرقي من بغداد .

(٥) يقصد به جانب الكرخ الذي هبط اليه الرحالة قادما من الفلوجة الى بغداد .

(٦) كثيرا ما يعمد قدامى المؤرخين من الاوربيين الى ذكر مملكة اشور عند الحديث عن العراق على اعتبار ان بابل واشور معروفتان بتاريخهما القديم الزاهر وعلى اساس ان حدود مملكة اشور كانت تصل الى الموقع الذي وجدت بغداد فيه حيث تبدأ عندها او الى الجنوب منها قليلا ، حدود مملكة بابل .

والنهر في ذلك الموقع عريض يشبه نهر الراين عند مدينة ستراسبورغ[٧] وبسبب سرعة جريانه يبدو لون النهر داكنا يبعث منظره الكآبة في النفس وقد يجعل المرء يحس بالدوار .

وعلى مسافة غير بعيدة في اسفل المدينة ، يلتقي هذا النهر بنهر الفرات ولذلك يجريان مختلطين في الخليج ابتداء من مدينة البصرة التي لم تكن تبعد اكثر من مسيرة ستة ايام من هناك[٨] الى جهة الشرق .

وهاتان المدينتان اللتان تقعان على نهر دجلة كانتا قد شيدتا قبل سنين عديدة من انقاض مدينة بابل المتهدمة[٩] ذلك لان واحدة منها ، وهي التي تقوم على الجانب الآخر من النهر ، قد عرف عنها انها مدينة سلوقية البابلية[١٠] .

كما يمتد على هذا الجانب من النهر واد فسيح يعتقد بان مدينة

---

(٧) ستراسبورغ من اكبر مدن الالزاس تقع على ملتقى نهر ايل بالراين اشتهرت بجامعاتها التي انشئت سنة ١٥٣٨ وبظهور غوتنبرغ مخترع الطباعة فيها .

(٨) لم يكن راوولف يعرف موقع البصرة ولذلك تصور انها تقع الى الشرق من اختلاط دجلة بالفرات وقد سماها « بلصرا » وعرفت باسم باصورة .

(٩) لم يثبت تاريخيا ان مدينة بغداد قد شيدت بانقاض مدينة بابل لكن الشيء المؤكد ان كثيرا من اجر بابل المكتوب استعمل في بناء كثير من الابنية في بغداد ومنها البناء الذي عثر عليه مؤخرا على ضفة دجلة في منطقة خضر الياس بالكرخ وبالموقع الذي يجري العمل فيه لبناء الجسر الجديد الان .

(١٠) سلوقية اخطأ الرحالة في تحديد موقعها فهي في الواقع على الضفة اليمنى من نهر دجلة جنوبي بغداد في الموقع المعروف باسم (تل عمر) انشأها سلوقس المنتصر قائد الاسكندر الكبير وسماها بأسمه وعرفت بالبابلية تمييزا لها عن مدينة بذات الاسم بناها سلوقس على مقربة من الاسكندرونة في سوريا .

طيسفون تقع فيه . وقد اكد « سترابو »[١١] ذلك في الجزء الخامس عشر من كتابه عندما اشار اليها بقوله « ان بابل كانت عاصمة اشور قبلا[١٢] وبعد خرابها قامت مدينة سلوقية على نهر دجلة حيث تقوم على مقربة منها قريـة كبيرة كان ملك الفرثيين قد اتخذها مقرا شتويا له »[١٣] .

كذلك اشار بليني[١٤] في الفصلين السادس عشر والسابع عشر من الجزء السادس من مؤلفه الى ان مدينتي سلوقية البابلية وطيسفون قد شيدتا خارج خرائب مدينة قديمة ، وان نهر دجلة يمر بينهما .

وتقوم في سلوقية[١٥] وفي مكان واسع منها ، قلعة ليست محصنة لا بالاسوار ولا بالخنادق ، كما انها ليست كاملة البناء من الداخل ، ترى امامها بعض قطع من المدافع الكبيرة ملقاة في الطريق وقد علاها الصدأ[١٦] .

---

(١١) سترابو مؤرخ وجغرافي يوناني معروف ولد سنة ٦٣ق.م. وتوفي سنة ٢١م درس في اسيا الصغرى واليونان وروما ومصر . وضمن مشاهداته عن بلدان آسيا وافريقيا في كتاب يقع في سبعة عشر مجلداً .

(١٢) واضح ان قول سترابو هذا ينطوي على خطأ فاضح لان نينوى وليست بابل هي عاصمة اشور .

(١٣) هذه القرية هي التي عرفت باسم « بهر سير » وتقع بجوار سلوقية انشأها احد ملوك الفرثيين من السلالة التي حكمت ايران وجزءا من العراق في الفترة ما بين ٢٤٧ ق.م وسنة ٢٢٦م .

(١٤) بليني « بلينوس » وهو المعروف بالصغير (٢٣–٧٩م) مؤرخ وسياسي ومحارب روماني شهير وعالم بالنبات اشترك في عدة حملات عسكرية في أوربا . مات مع من ماتوا في مدينة بومبي التي دفنها بركان فيزوف في شهر آب سنة ٧٩م اشتهر بكتابه عن التاريخ الطبيعي الذي يقع في اثنين وعشرين جزءا .

(١٥) ما يزال راوولف يتصور ان الجانب الشرقي من بغداد هو مدينة سلوقية .

(١٦) هذه القلعة هي احد الابراج القديمة في سور بغداد وكانت تقع في الزاوية القريبة من الرصافة وفي الموقع الذي تقوم فيه وزارة الدفاع حاليا وعرفت لدى الاتراك باسم « ايج قلعة » أي القلعة الداخلية .

وفي هذه القلعة يسكن الباشا التركي[17] والذي ما ان علم بمقدم اثنين من الغرباء الى منطقته حتى بعث يطلب حضورنا اليه ، فأحضرنا رجاله امامه ، وكان معنا احد الارمن ممن عرفناه قبلا في مدينة حلب ، كي يساعدنا في هذه المقابلة ويكون بمثابة ترجمان لنا ويعطي الباشا معلومات طيبة ووافية عنا .

حين دخلنا غرفة الباشا ، وهي اعتيادية جدا وان كانت قد فرشت بالسجاد الفاخر ، وزينت ببعض الزخارف ، ادينا له التجلة والاحترام ، ووجدناه يجلس ملتفا بعباءته الطويلة الصفراء الثمينة . وعن طريق احد اتباعه ، الذي كان يتحدث بالفرنسية وان لم يكن يفهمها جيدا ، سألنا عن الاماكن التي اقبلنا منها ، والبضاعة التي جلبناها معنا ، والجهة التي نقصدها. وبعد ان اجبناه عن كل سؤال طرحه علينا لم يقتنع باجوبتنا ، وأمرنا بأن ننسحب الى وراء ، وان نمكث الى ان نسمع قراره بشأننا .

لقد فهمنا ما كان يقصده من وراء ذلك تماما . فهو يريد ان يحصل منا على شيء من الهدايا ، لكننا تظاهرنا بأننا لم نفهم قصده ، وانما اريناه جوازات سفرنا موقعة من لدن باشا مدينة حلب وقاضيها . ولقد تناولها منا وراح يقرؤها ويمعن النظر جليا في ختمي الباشا والقاضي اللذين اعتادا ان يغمسا الختم بالحبر فأصبح الجواز ملطخا بالسواد نتيجة ذلك .

وحين وجد الختمين صحيحين ولم يبق لديه ما يقوله ، سمح لنا بالانصراف ، واذ ذاك قدمنا له الاحترام ثانية فخطونا خطوات الى وراء وغادرنا مسكنه ، ذلك لانك لو ادرت ظهرك لاي شخص تقابله ، حتى وان كان ضعيفا ، لعد ذلك اهانة كبيرة له ، وقلة ادب وغلطة منك .

ويحتفظ هذا الباشا بحامية كبيرة في بغداد لانها تقع عند تخوم

---

(١٧) هذا الباشا هو علي الدرويش من ولاة الاتراك المشهورين حكم في البصرة ثم نقل منها الى بغداد .

« سوسيانه »[١٨] وماذي[١٩] وغيرها من الولايات التي تعـود الى ملك فارس . في حين لا يمتد نفوذ « السيد الاعظم »[٢٠] الى الشرق من هـذه الولايات . اذ ان اكبر مسالكه تتألف من الصحراء العربيـة المقفرة التي لا يسيطر الاتراك الا على جزء منها ، بينما يخضع الجزء الاكبر لنفوذ احـد الامراء العرب .

بعد ان اذن لنا الباشا بالانصراف عدنا الى النزول ثانية ، فابتعنا ـ حين مررنا بأحد الاسواق ـ بعض الاطعمة لتناولها ولكي نعد وجبة العشـاء ، ذلك لانه لا توجد في هذه البلاد فنادق يستطيع المرء ان يأوي اليها ، وان يجد فيها الطعام مهيئا للزبائن الذين يفدون مصادفة ، بل ان على المرء ان يذهب الى حانوت الطباخ الذي يتوفر عدد من امثاله في الاسواق .

وما عدا ذلك فكل امرىء يطبخ لنفسه ما يريده من طعام دون ان تكون هنالك ابواب امام غرفته ، وانما توجد مدخنة لهذا الغرض . ولذلك حين يأزف وقت اعداد الطعام في المساء والصباح ، تشاهد في اروقة المكان عدة نيران تم ايقادها فيه .

وحين شرعنا تتناول الطعام اضطررنا بسبب عدم وجـود موائد او كراسي او مقاعد ، الى الجلوس على الارض التي نتام عليها ليلا ، ولذلك لم تعد عباءاتنا نافعة لنا ، لاننا كنا نستعملها بدلا من الفراش ولاسيما في ايام الشتاء لكي نستدفىء بها . ومع ذلك فلم يكن الشتاء شديد البرد في هـذه البلاد وقد نستنتج من هذا ان الازهار المعروفة في بلادنا من امثال « النرجس » و « البصل البري » و « البنفسج » وغيرها تكون مزدهرة تماما في شـهر

---

(١٨) سوسيانه هو اقليم الاحواز او ما سمي بعربستان والذي سلخ عن العراق في اوائل القـرن الحالي .

(١٩) ماذي هي ميديا القديمة التي تقع في الشمال من ايران .

(٢٠) كان هذا السلطان هو مراد الثالث الذي حكم في الفترة ١٥٩٤ ـ ١٥٧٧م

كانون الاول ، كما ان اقبال الزراع على حراثة الارض في مثل هذا الوقت جعلني احكم بأن شتاءهم يشبه ربيعنا •

لمست اثناء وجودنا في بغداد وتجوالنا فيها ان الفاقة لا زالت جد ظاهرة فيها ، وانها قد تتعاظم وتزداد اذا لم تسارع المدن القائمة على دجلة والفرات — ولاسيما مدينة الموصل التي كانت تعرف قبلا بأسم نينوى — الى ارسال كميات كبيرة من المؤن مثلما تفعل ذلك ديار بكر وغيرها التي ترد منها المؤن مصادفة ، ذلك لان معظم اراضيها تقع ما بين النهرين ، ولهذا السبب لا تحصل على شيء من تلك التجهيزات ، ولان ما ينمو فيها لا يكفي لسد حاجتها ، ومن هنا تتجلى اهمية هذين النهرين بالنسبة الى بغداد ، لانهما لا يزودناها بالمؤن كالقمح والشعير والشراب والفاكهة وغيرها حسب ، بل يجلبان لها الكثير من السلع التي تحملها اليها سفن كثيرة ترد كل يوم • ولذلك نرى في هذه المدينة مستودعات كبيرة للسلع ، نتيجة لموقعها الملائم ، يتم جلبها بطريق البر والبحر من انحاء الدنيا العديدة ، ولاسيما الاناضول وسوريا وارمينيا واسطنبول وحلب ودمشق وغيرها كيما يتم نقل هذه السلع ثانية الى الهند وفارس وغيرهما •

وقد حدث في اليوم الثاني من تشرين الثاني سنة ١٥٧٤ م حين كنت في بغداد ، ان وصلت اليها خمس وعشرون سفينة موسقة بالافاويه والعقاقير من الهند ، بطريق « هرمز » والبصرة التي تعود الى سلطان الاتراك وتقع عند الحدود ، وهي ابعد نقطة يمتد اليها نفوذ السلطان في الجنوب الشرقي وعلى بعد مسيرة ستة ايام من هنا • ومن البصرة تنقل السلع في سفن صغيرة تجلبها الى بغداد حيث تستغرق السفرة حوالي اربعين يوما •

وهذا الطريق البحري والبري يعود الى ملكي العربية وفارس ولكل منهما مدنه وحصونه على حدود بلاده ويستطيعان سد هذا الطريق • ورغم

ذلك فأنهما يتراسلان بانتظام ويستخدمان الحمام الزاجل ولاسيما في البصرة حين تتطلب الضرورة ارسال هذا الحمام برسائل الى بغداد ٠

وحين تصل السفن الموسقة بالسلع الى بغـداد يهيء التجار ، وعلى الاخص تجار الافاويه الذين ينقلونها عبر الصحراء الى تركيا ، اماكن خاصة لهم في البساتين على مقربة من مدينة طيسفون[٢١] حيث يقيم كل واحد منهم في خيمته ليضع الافاويه في اكياس حفاظا عليها الى ان يتحركوا كلهم سوية في شكل قافلة ، ولذلك يخيل لمن يراهم من بعيد انهم جنود ، وليسوا تجارا ، وان ما يشاهده سلاحا وليس بضاعة تعود للتجار ٠

ولقد توهمتهم انا على هذه الشاكلة قبل ان اقترب منهم واتبينهـم جيدا ٠

وبعض اولئك التجار الذين جاؤا مع تلك السفن قد اقبلوا على النزل الذي كنا ننزل فيه مباشرة ، وكان من بينهم تاجر مجوهرات جلب معه عدة احجار كريمة مثل الماس والعقيق الابيض والذي يصنعون منه مقابض ثمينة للخناجر ، وكذلك الياقوت الاحمر ، والعقيق الاصفر وغيرها ٠ وقد حصل على النوعين الاولـين من بمباي[٢٢] اما البقيـة فقد جلبها من جزيـرة سيلان[٢٣] حيث ارانا عدة انواع جميلة منها ٠

ويحمل التجار هذه المجوهرات معهم في قوافل كبيرة ويحتفظون بها

---

(٢١) طيسفون Ctesiphon هو الاسم الذي اطلقه اليونانيون على « المدائن » التي انشئت في العراق في القرن الرابع للميلاد وفيها ايوان كسرى الشهير الذي لا زالت اطلاله قائمة وتعرف طيسفون الان باسم « سلمان باك » نسبة الى سلمان الفارسي حلاق الرسول محمد (ص) الذي دفن فيها .

(٢٢) سماها الرحالة بأسم كومباي Comby وهو خطأ فاضح اما عند النقل او السماع .

(٢٣) ذكرها الرحالة بأسم تسليون Zlyon وهو الاسم المستعمل لدى الالمان عادة وقد اطلق العرب على سيلان اسم « سرنديب » .

بشكل خاص لا يمكن العثور عليها من قبل دوائر الكمرك كيلا تصادر منهم . وذلك ما يسعى اليه الباشا بكل ما لديه من قوة وسلطان . فالاتراك لا يحبون الاحجار الكريمة لانها تكلفهم اموالا ، فهم جشعون بصفة غير اعتيادية حيث لا تجد الا قلة منهم يقتنونها ، لكنهم ان استطاعوا الحصـول عليها بلا ثمن بطريقة المصادرة فأنهم يحبونها حبا جما ويحافظون عليها بحرص شديد .

ويحتفظ هؤلاء التجار في بيوتهم بمجوهرات اخرى يبعثون بها ثانية الى الهند كالمرجان والزمرد اللذين يكثر الاقبال على شرائهما في مصر ، وكذلك الزعفران والتوت والكرز ، وعدة انواع من الفاكهة كالزبيب والتمور ، والتين واللوز وغيرها .

ولكن فوق هذا كله يصدرون الخيول الجميلة فيرسلون عددا وفيرا منها الى الهند عن طريق فارس، ولكن معظمها يرسل بطريق هرمز(٢٤) حيث يتلقى ملك البرتغال كل سنة مبلغا طيبا من المال بصفة رسوم تبلغ اربعين دوقة(٢٥) لكل رأس من الخيل ، ذلك لان الذين يستوردون الخيول ، كما انبئت ، يدفعون نصف الرسوم عن سلعهم الاخرى الى دائرة الكمارك ومن ثم يبيعونها بارباح طيبة .

وبعض هذه الخيول تصدر ، بســـبب جمالها واصالتها ، الى سوريا والاناضول ، والى بلادنا في اوربا حيث تباع او تهدى الى الامراء وغيرهم من الشخصيات البارزة .

---

(٢٤) هي جزيرة هرمز Ormutz في الخليج العربي وكانت في عهد الرحالة راوولف خاضعة للبرتغاليين الذين احتلوها سنة ١٥٢١م ومكثوا فيهـا قرنا كاملا الى ان طردهم الانكليز بمساعدة العرب والفرس سنة ١٦٢٢م (انظر كتابنا : الصراع على الخليج العربي طبعة ١٩٦٦)

(٢٥) الدوقة عملة فينيسية قديمة تعادل الواحدة منها ستة شلنات انكليزية او ما يعادل ثلثمائة فلس قبل خفض قيمة الباون الانكليزي .

وتطعم الخيول في هذه البلدان ، الشعير والكلا ، فيوضع هذا العلف في اكياس تعلق في عنق الحيوان ، ومثل هذا يجري ايضا بالنسبة الى الحمير . على نقيض ما نفعله نحن في بلادنا الاوربية .

ونظرا لقلة الشعير والحشائش فأنهم يفرشون لهذه الخيول في بعض الاحيان ، قطعة من الارض بالقش ، ثم يجمعونه في اكوام لتنظيفه واستعماله مرة اخرى .

حين يصل بعض التجار المسيحيين من بلادنا الى هرمز — وهذا لا يقع الا نادرا — فلابد لهم من الحصول على مساعدة من الاتراك والعرب ، ولابد من ظهورهم امام موظفي ملك البرتغال الذين يعينهم ليقدموا لهم شكاواهم عما حدث لهم ، والضرر الذي اصابهم . واذا ما حدث ان اخفى هؤلاء من ذلك شيئا حل العقاب بهم انفسهم .

واذا ما ظهر ان واحدا منهم قد غش نقوده فأن رفاقه من التجار من ذات الملة يلقى بهم في السجن ولو انهم كانوا غير مذنبين ولا يعرفون عن عملية الغش شيئا . واذا قتل احد المسيحيين بينهم يقتل ثلاثة او اربعة منهم مقابل ذلك[٢٦] طبقا للاسلوب المتبع ويفقدون حياتهم مقابل كل مسيحي يقتل . وعلى هذا فحين يجتمع تجار من امم مختلفة في احدى البواخر للسفر الى الهند عن طريق « هرمز » — والتي يجب ان يهبطوا اليها والا صودرت بضاعتهم — فأنهم يصعدون الى الباخرة وكأنهم غرباء تماما ، ويحذر الواحد منهم الآخر ، ولا يتحدثون الا قليلا ، وقد لا يتحدثون بشيء ، ولا يكشف احدهم هويته

(٢٦) قد يبدو هذا غريبا او هو من صنع الخيال ولكن الحقيقة هي ان الاسلوب الذي سار عليه البرتغاليون في حكم المناطق التي احتلوها ، خلال القرن السادس عشر ، في الهند وفي الخليج العربي قد اتسم بالقتل الجماعي لغير المسيحيين .

للآخر ، وهكذا يتحسل كل واحد منهم العزلة الى ان يقطعوا منتصف الطريق ثم يشرعون بالتعارف فيما بينهم .

ولقد علمت ايضا ان حاكم البرتغال في الهند كان يستخدم ـ لغرض اظهار القوة والقدرة على الحرب ـ عددا من الامراء الهنود الاقوياء الذين يؤلفون قوة تعدادها خمسة الاف رجل .

كما انه ارسل بعض « اليسوعيين »(٢٧) الى تلك البلاد لينشروا دياناتهم بين سكانها ولينشئوا فيها محاكم التفتيش الاسبانية(٢٨) .

يحب التجار التعامل مع الهنود لصدقهم في التجارة واهتمامهم بها . ولقد عرفت في بغداد عددا كبيرا من اولئك الهنود وغيرهم من الاقوام الاخرى كالعرب والاتراك والارمن والاكراد والماذيين وغيرهم ، ولكل منهم لغته الخاصة ، غير ان الفئة الرئيسة بينهم تتألف من الفرس(٢٩) .

★ ★ ★

حين كنت في بغداد وصلت قافلة من الفرس تتألف من ثلثمائة رجل مع ابلهم وخيولهم وهم يقصدون مكة لزيارة قبر « محمد »(٣٠) الذي يعتبرونه

---

(٢٧) اليسوعيون او الجزويت Jesuites جماعة من المسيحيين اسسها مغامر اسباني يدعى « لوايولا » سنة ١٥٢٤م لمناصرة الكثلكة وقد اعترف بها البابا سنة ١٥٤٠م وراحت تنظم صفوفها عسكريا منذ ذلك الوقت .

(٢٨) هي المحاكم التي اقامها الاسبان المسيحيون في اسبانيا لمحاكمة العرب والمسلمين بعد سقوط اخر مملكة اسلامية هناك . وقد قضت هذه المحاكم على مئات الالوف من المسلمين حرقا . وحتى الذين عادوا منهم الى النصرانية لم ينجوا من جرائم هذه المحاكم البشعة التي استأصلت كل العرب والمسلمين في جزيرة ايبريا قاطبة .

(٢٩) لاوجود للماديين بين الاقوام التي ذكرها الرحالة راوولف . ذلك لان هؤلاء قد انصهروا ، مثل الاشوريين والبابليين ، بالاقوام الاخرى ففقدوا كيانهم العرقي وحتى اللغوي ايضا .

(٣٠) يتضح من هذا ان المؤلف لم يكن يعرف ان مثوى الرسول الاعظم محمد صلوات الله عليه هو في المدينة المنورة وليس في مكة المكرمة .

رجلا معظما جدا عندهم ، بالاضافة الى رفيقيه « علي » و « عمر » اللذين كانا يسكنان تلك المدينة •

ولهؤلاء الفرس لغتهم الخاصة التي تختلف تماما عن التركية والعربية • فهي مفهومة من قبل الامم الشرقية الاخرى ، ولذلك يضطر هؤلاء الى التفاهم مع الفرس بطريق الاشارة او بوساطة المترجمين •

وللفرس صفاتهم المميزة لهم ايضا • فهم يحسنون ركوب الخيل ، ويرتدون سراويل طويلة فضفاضة تساعدهم على الحركة • ويحسنون تجهيز انفسهم بالبنادق والقسي والنبال •

وبدلا من استعمال المهماز ، يستعملون – كما هو شائع في هذه البلاد قطعة حديد مدببة يبلغ طولها بوصة ونصف البوصة يثبتونها في الجزء الخلفي من احذيتهم •

ويطلق على الفرس اسم « الاتراك الحمر » وهذا ناشيء – كما اعتقد – عن وضعهم علامة حمراء في عمائمهم اشبه باشرطة قطنية مصبوغة بلون احمر تمييزا لهم عن الاقوام الاخرى • كذلك يمكن تمييزهم بصداريهم الصوفية غبراء اللون ، ذات الضفائر المتدلية على الظهر حتى الركبة • وهم من الشعوب الشجاعة ، وتقاطيع وجوههم لطيفة ، وهم مؤدبون في معاملاتهم مع الغير ، شديدو المساومة ، ولذلك تراهم – قبل ان يعقدوا اية صفقة – ينفقون الوقت الطويل قبل التوصل الى اتفاق ، وهذا ما شهدته انا بنفسي عدة مرات •

ومن بين السلع الاخرى التي يتاجر بها الفرس ، السجاد الفاخر من انواع عديدة ، وغيره من المنسوجات القطنية التي يتفننون في صنعها تفننا كبيرا ويحذقونها حذقا واسعا •

اما بالنسبة الى المصنوعات الاخرى كالذهب والفضة فأنهم لا يعرفون عنها سوى الشيء القليل فهم اقل الماما بصياغة الذهب ، وهم يحبون المهرة من الصناع المسيحيين في شتى الصناعات ويعاملونهم بكل ادب •

ولا يجيز الاتراك لنسائهم دخول المساجد ، والظهور فيها علانية مثلما يفعل الفرس ذلك(٣١) .

ولقد نشبت بين الامتين التركية والفارسية حروب كبيرة وخصومات شديدة ، ومع ذلك فأن أيا منهما لا تهاجم الاخرى في اوقات السلم ، ولا تغير على حدودها ، مثلما يفعل الاتراك ذلك في « هنغاريا »(٣٢) .

وبعد ان اجريت المفاوضات بين الاتراك والفرس ، وحققت ايرادا كبيرا للسلطان ، اصبح في مستطاع الاتراك ان يتاجروا داخل الاراضي الفارسية ، وان يتجولوا فيها بأمان .

كذلك علمت انه يعيش هنا وفي فارس عدد من المسيحيين من بينهم اتباع يوحنا بريستر Prester John (٣٣) والطريق الذي وصل به هؤلاء الى فارس يتلخص في ان ملك فارس توصل قبل اثنتي عشرة سنة ، الى اتفاق مع «يوحنا» بريستر ضد الاتراك . ولما وجد يوحنا ان من غير الملائم ان يتحالف مع ملك من غير دينه بعث برسالة الى ملك فارس يرفض فيها التحالف معه الا على شرط واحد هو ان يعتنق ملك فارس ورعاياه الدين الذي يعتنقه يوحنا . وقد وافق

(٣١) احجم الاتراك عن السماح لنسائهم بالصلاة في المساجد بعد ان انتشرت عادة التسري بينهم على نطاق واسع .

(٣٢) كان الاتراك هم الذين نشروا الدين الاسلامي في اوربا الشرقية ومنها هنغاريا التي افتتحوها بعد استيلائهم على بلغاريا وعاصمتها صوفيا سنة ١٣٨٩م .

(٣٣) برستر جون (يوحنا) Prester John هو اللقب الذي اطلقه الاوربيون على ملك الحبشة وكانوا يعتمدون عليه في نشر الديانة المسيحية في افريقيا قبل ان تبدأ غزوات الاستعمار الاوربي في القرن الرابع عشر للميلاد .

اما دخول المسيحية الى فارس فقد حدث لاول مرة في سنة ٢٥٨م حين اخذ شابور بن اردشير ملك فارس ، بعد انتصاره على جيش الامبراطور الروماني فاليران ، عددا من الاسرى الرومانيين واقام لهم معسكرا في بقعة من الارض بين سوسة وتستر عرف بأسم جنديسابور حيث اعطيت الحرية لاولئك الاسرى للتبشير بالمسيحية في ايران .

ملك فارس في النهاية على هذا الشرط واذ ذاك بعث اليه يوحنا بواحد من بطارقته ومعه بعض القسس لاداء تلك المهمة •

وتوجد الان في فارس اكثر من عشرين مدينة معظم سكانها يدينون بدين يوحنا وهم يحتفظون بكتبهم المقدسة . واهم تلك الكتب يضم بعض رسائل القديس توماس(٣٤) •

وما عدا ذلك فأن البطريق قد اوضح بأن هؤلاء لم يعودوا يؤمنون بالخرافات ، وانهم يعتقدون بأن الطهارة ليست ضرورية لان اعداءهم من الاتراك يتمسكون بها ، ولهذا السبب ذاته فهم لايكرهون الحيوانات المحرمة، ويأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر ، وعلى هذا الاساس اخذت الديانة المسيحية تنتشر في فارس يوما بعد اخر اكثر فأكثر ، واخذ الفرس ، طبقا لتقاليدهم ، يتنصرون ، ويعترفون بالاب والابن وروح القدس !

ويمكن تمييز هؤلاء المسيحيين عن غيرهم في انهم يرسمون صليبا ازرق اللون على الساق اليسرى فوق الركبة بقليل ، وهم يصنعون العشاء الرباني للكبار وللصغار معا ، لكنهم قبل ان يتناولوه يغسلون اقدامهم في قنوات من الماء تجري داخل الكنائس ومن ثم يجلسون مع رؤساء المدينة الذين يفدون عليهم واذ ذاك يطبع كل واحد منهم على وجه الاخر قبلة الحب ، ويقرأون بضع كلمات من تعاليم المسيح ثم يتناولون العشاء •

وهم لا يسمحون بالصور في كنائسهم ، لكنهم يستعملون القيثارات والمزامير حين يعزفون الموسيقى • وهذا يحدث بصفة رئيسة في بلاط ملك سمرقند حيث يوجد احذق الموسيقيين هناك • ويقال ان سام بن نوح هو الذي بنى هذه المدينة ولذلك سميت بأسمه(٣٥) •

---

(٣٤) القديس توماس St. Thomas احد رسل المسيح الاثنى عشر لكنه لم يؤمن بقيام المسيح الا بعد ان راى آثار جراحاته وغمس اصبعه فيها . والقديس توماس هو الذي ادخل المسيحية الى الهند .

(٣٥) هنا يحشر المؤلف موضوعا لاصلة له بحديثنا عن مسيحيي ايران فضلا اتيانه باسطورة تشييد مدينة سمرقند التي لاتعتمد على اي سند تأريخي قط .

ومما علمته عند عودتي ، ان طهماسب[٣٦] ملك فارس كان له ثلاثةاولاد وبنت واحدة ، وقد قطع رأس ولده الاكبر لانه كان يسعى الى الظفر بتاج ابيه، وعند وفاة طهماسب تزوجت ابنته من احد رجال البلاط اما ولداه فباقيان على قيد الحياة ، وقد انتخب الاوسط ويدعى « اسماعيل »[٣٧] خلفا لوالده في الوقت الذي وصل فيه الامبراطور التركي الحالي « مراد »[٣٨] الى العرش •

وكان اسماعيل هذا ، وهو شاب ، كله شجاعة وذكاء في اساليب الحرب• وحين كبرت سنه تضاعف حقده على الاتراك ، وبلغ ذلك درجة انه قرر ، حتى في حياة والده ، ان ينتقم منهم ، وعلى هذا الاساس توجه بعدد كبير من رجاله الى مناطق الحدود للاستيلاء على بغداد •

وحين كان يعد العدة لهذا الهجوم هرب بعض من قواته واعلموا باشا بغداد بما كان ذلك الشاب ينويه ويخططه ، واذ ذاك سارع الباشا الى التسلح على عجل لمقاومته •

وعندما اقدم ابن الملك على تنفيذ مخططاته انقض عليه الباشا بعدد كبير من الرجال لا قبل له بهم ، وهكذا لم يهزم ابن ملك فارس وحسب بل وقع اسيرا واذ ذاك هدده الباشا بأنه سيقطع رأسه اذا لم يفكر ابوه جديا في الامر ويقدم على افتدائه باعادة مدينة « اوريس »[٣٩] •

(٣٦) أطلق الرحالة على طهماسب اسم غوماك Gamach وهو تحريف ظاهر ، وطهماسب هذا هو طهماسب الاول ثاني ملوك الصفويين الذي تولى الملك بعد وفاة ابيه اسماعيل الاول في سنة ١٥٧٤م (٩٣٠هـ)

(٣٧) هو اسماعيل الثاني ثالث ملوك الصفويين الذي حكم في الفترة ما بين ١٥٧٦ – ١٥٧٨م •

(٣٨) مراد سماه الرحالة « امارتس Amarathes » وهو مراد الثالث الذي تولى الحكم في الفترة ما بين ١٥٧٤–١٥٩٥م •

(٣٩) هذه المدينة سماها الرحالة باسم اوريس Orbs ويغلب على الظن ان المقصود بها مدينة «وان» التي استعادها سليمان القانوني بعداستيلائه على بغداد سنة ١٥٣٤م •

وهكذا لم يكن امام الملك الا ان يعمل ما فيه الكفاية للحفاظ على سلامة ولده ، والتعهد بعدم الاقدام على اية استفزازات او حروب اخرى ضـد الاتـراك[40] .

وقبل ان ابدأ رحلتي في اذار ١٥٧٤ م وصلت الى حلب انباء تقول ان حوالي خمسة وعشرين الفا من الاتراك كانوا قد قتلـوا في اطراف فارس والجزيرة العربية لكنني لم اعرف المكان الذي وقعت فيه هذه المعارك ، لان الاتراك يعمدون الى اخفاء ما يعانونه من اصابات بحيث لا يسمع بها احد بأية وسيلة . اما اذا كانوا هم المنتصرون فلا يظلون صامتين بل ينشرون انبـاء انتصارهم على نطاق واسع .

★ ★ ★

ولنقصر الحديث على بغداد فنقول انني وجدت فيها عـددا كبيرا من

---

(٤٠) لم يرد ذكر لهذه الواقعة لدى المؤرخين الذين كتبوا عن تلك الفترة من تاريخ العراق من امثال ياسين العمري صاحب كتاب « غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام » الذي طبع سنة ١٩٦٨ ، ولا في كتاب « بغداد دار السلام » للمؤرخ الانكليزي ريتشارد كوك والذي ترجمـه الاستاذان مصطفى جواد وفؤاد جميل ونشراه في جزئين سنة ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ .

اما المستر ستيفن همسلي لونغريغ صاحب كتاب « اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » الذي ترجمه جعفر خياط وصدرت طبعته الرابعة في سنة ١٩٦٨ فقد قال عن هذه الاحداث التي ذكرها راوولف « وقد يشير هذا الحادث الى بعض قلاقـل الحكومة بسبب اللد او الاكراد » .

ومهما يكن الامر فان لهذه الحادثة شيئا من الحقيقة لان الفرس ظلوا يتحينون الفرص للاغارة على العراق وعلى بغداد بالذات بعـد ان طردهم منها السلطان العثماني سليمان الاول المعروف باسم سليمان القانوني سنة ١٥٣٤م .

اما باشا بغداد في الوقت الذي وصل فيه راوولف الى المدينة فهو امـا ان يكون « علي باشا الدرويش » او « الوند زادة علي باشا » الذي حكم ولاية بغداد في الفترة ما بين ١٥٧٤ و ١٥٨٦ .

المرضى والعرج ، وانك لا تدهش ان تجد مثل ذلك العدد الكبير من العرج الذين يتجولون في الشوارع • ومع كل ذلك فلم يستطع ملك فارس ان يربح الحرب في النهاية ، او ان يقدم على اثارة حرب جديدة ومن مسافة نائية ، لان موارده ليست كبيرة بالدرجة التي تمكنه من تعبئة اللوازم والمؤن وتهيئتها لجنده وموظفيه ، كما انه لا يستطيع في وقت الحرب ان يدفع لهم مرتباتهم مثلما يفعل ذلك ايام السلم ، لان رعاياه معفوون من كل الرسوم والضرائب طبقا للامتيازات القديمة ، ولانهم لا يتسلحون للدفاع عن انفسهم الا حين يدعوهم الملك للذود عن بلادهم واملاكهم ضد هجوم يوجهه الاعداء نحوهم •

حين كنت اسأل اكثر من شخص واحد عما اذا كان من الاوفق لنا ، انا ورفيقي ، ان نسافر بطريق النهر الى « هرمز » ام بطريق البر عبر بلاد فارس الى الهند ، لم نكن نفكر في شيء سوى ان نبدأ سفرتنا ونمضي قدما • وحين كنت افكر في ذلك وصلتني فجأة رسالة استدعيت بها للعودة الى حلب ، الامر الذي زاد فيقلقي كثيرا ولاسيما حين اعدت في ذاكرتي مرأى القفار والصحاري التي قطعتها الى ان بلغت المدن الشرقية التي تستحق المشاهدة فعلا •

وعلى هذا ، وبعد ان قلبت الامر مليا ، اتفقت مع رفيقي على ان يواصل هو رحلته ، بينما ينبغي علي انا ، وبسبب الرسالة التي تلقيتها وليس لي عائق سواها ، ان اعود ثانية ، وقد زودته بكل ما يحتاج اليه من لوازم لمواصلة سفره ، حيث رحل فعلا بعد يومين مع تجار اخرين في احدى السفن الى البصرة •

ولم يطل الوقت حتى تلقيت نبأ مفجعا عنه ، فقد قيل ان السفينة التي استقلها من البصرة الى « هرمز » قد تحطمت بعد ان داهمتها عاصفة شديدة

---

(٤١) البحرين ذكرها الرحالة باسم بكاري Bacchari وقد وردت هذه التسمية لدى غيره من قدامى الرحالين وهي محرفة عن « البحرين » العربية . وحتى القرن الحادي عشر الميلادي كان الاسم الشائع للبحرين هو « تيلوس » و « تيلون » و « دلون » وهو الاسم الذي عرفت به في المدونات الاشورية والاغريقية .

على مقربة من جزيرة « البحرين »[٤١] في الخليج العربي الذي يكثر فيه اللؤلؤ الشرقي ، وانه مع عدد من التجار بينهم جماعـــة من ابناء التجار الاغنياء في « حلب » قد ماتوا غرقا •

كان علي ان اعود الى حلب في قافلة كبيرة • ولما كانت مثل هذه القافلة ستأخذ طريقها عبر الصحراء الرملية الواسعة في مسيرة قد تستمر زهاء اربعين يوما او نحوها ، وحيث لا نستطيع خلالها ان نمر باكثر من نقطتي كمـارك تزود منهما باللوازم والماء وغيره من الضروريات الاخرى ، لهذا السـبب استقر رأيي على ان أسافر بطريق تمر باماكن مفيدة وبمدن شهيرة كيما ارى واتعلم واطلع على امور اخرى • وعلى هذا الاساس مكثت في النزل الكبير مدة اطول الى ان التقي ببعض رفاق السفر •

وفي الوقت الذي مكثت فيه هناك تعرفت الى احد التجار من سكنة مدينة حلب ، كان قد رحل عدة مرات الى الهنـد ، وقد انبأني بأن « اليسوعيين » شرعوا في اقامة محاكم التفتيش الصارمة في الهند، ولاسيما في مدينة «غوا»[٤٢] التي يعتبرونها ملائمة لهم ، وان الذين لا يخلعون قبعاتهم حين يمرون بصـور العذراء التي علقت في شوارع عديدة في المدينة يلقى بهم في غياهب السجون •

وقد استنكر ذلك التاجر هذا الامر بشدة ، كما تحدث عن المسيحية بشكل اعجبني ، ولذلك احببته ورغبت في السفر معه لانه كان يعاملني برقة وعناية وكأنني ولده •

وعندما علم بانني طبيب رغب ان يقدمني الى الباشا وكان مريضا في وقت كان فيه طبيبه الخاص من اصدقائه الحميمين •

ولما كنت قبل هذا قد علمت بأن اخرين أقدموا على مثل هذا العمل لم

---

(٤١) « غوا » أول مدينة احتلها الغزاة البرتغاليون في الهند وفي الشرق معـا حين وصلوا اليها سنة ١٤٩٩م بقيادة فاسكودي غاما . وبقيت غـوا مستعمرة برتغاليـة طيلة الاحتلال الانكليزي للهند ولم تستمدها الهند الا في سنة ١٩٦٤ .

يجازوا الا بالشر ولاسيما من قبل الذين تقدموا لعلاجه ، لذلك لم أقدم على هذا الامر لانني كنت اخشى ان اقابل بذات الجزاء بدلا من الثواب وافقد حريتي ، ولذلك شكرت التاجر على عطفه ورقته ، ولولا هذا الامر لاخذت بنصيحته على الرغم من عدم وجود صيدليات يمكن التزود منها بالادوية .

غير انني استطعت ان اشتري بعض المواد من اصحاب الحوانيت حيث جمعتها من اماكن متعددة ، لانه كان يصعب علي ان اجدها لديهم متوفرة في وقت واحد . كذلك استقطرت الزيوت من الجوز ، وهو نوع جيد ومتوفر بكثرة ، ومن الفستق الذي يحتفظ به السكان ويأكلونه مثلما نأكل نحن الانواع الصغيرة من الجوز في بلادنا .

ولقد تناولت هذا الفستق فوجدته جافا غير مستساغ . وهذا النوع يسميه العرب باسم « بطم » اما الفرس فيسمونه تربيك .

ولقد شاهدت نوعين منه بحجم كبير واخر صغير . والكبير منه يشبه جوزة الفستق لكنه اقل استدارة واقصر طولا . اما النوع الصغير فهو ذو قشرة صلبة تشبه حبة الحمص الكبيرة وهذه تماثل في شكلها النبتة المعروفة باسم « قرن الغزال » او الذرة الهندية .

وينمو الكثير من هذه في « ايجنيا »(٤٣) وفي فارس ، وبلاد ما بين النهرين ، وارمينيا وغيرها . وتكون ذات عناقيد اشبه بالعنب او التوت او اشجار التربنتين المعروفة عندنا . فهي باوراقها الطويلة تشبه تلك الاشجار حيث يمكن تمييزها بيسر عن شجرة الفستق ذات الاوراق المدورة ، وهي من النوع الذي قال عنه كل من « الرازي » و « ابن سينا » انه ينمو في الهند . كذلك اشار اليها ثيوفراستوس ايضا في الفصل الخامس من الجزء الرابع من كتابه .

---

(٤٣) ذكرها راوولف باسم ايجميا Egemia ولعل المقصود بها ايجنيا او ايجين في ولاية ارزنكان التركية على الجانب الغربي من الفرات .

ولقد اشار « سرابيو » في الفصل الخامس والعشرين من كتابه الى ثمر اخر دعاه باسم « العنصل »(٤٤) وقد شاهدته انا وهو بقدر جوزة الفستق لين القشر ، ولم اعثر عليه لدى اصحاب الحوانيت في هذه الانحاء لكنني وجدته مؤخرا في دير « المارونيين »(٤٥) في القدس لدى واحد من طائفتهم قال لي عنه انه ينسو هناك .

★ ★ ★

ظللت انتظر كل يوم جماعة ارحل معها الى حلب بالطريق الذي يمر بعدة مدن وليس بطريق يصلها رأسا عبر الفيافي الرملية .

واعود الى ما حدثني به ذلك الفارسي فاقول انه قد انبأني بان ملك فارس كان يحتفظ بعدد من الخيول من النوع المعروف باسم « وحيد القرن » في سمرقند وكذلك في جزيرتي (أيك)(٤٦) و (تيلوس) ، اللتين تبعدان عن سمرقند مسيرة تسعة ايام الى الشرق وعلى مقربة من (الشام)(٤٧) وعدد من

---

(٤٤) العنصل اورده المؤلف باسم سل Scel نبات بري يعرف باسم بصل الفأر .

(٤٥) المارونيون طائفة نصرانيه تنتسب الى « مار مارون » الذي توفي في حدود سنة ٤١٠م وهم يحتفلون بعيده في التاسع من شباط كل عام . وقد انتقم خصومه من تلاميذه الرهبان في دير سمي بأسمه وقتلوهم لانهم ظلوا متمسكين بالقرارات التي اصدرها مجمع خلقدونية ومنهم المارونيون الموجودون الان في سوريا ولبنان .

(٤٦) جزيرة ايك Aic يقصد بها جزيرة ايكاري وايكاروس في الخليج العربي عند شاطىء الكويت وتعرف اليوم باسم « فيلكه » و « فيلجه » وقد عثر فيها مؤخرا على آثار يونانية مهمة .

(٤٧) شبام Spaam وهو اسم لعدة اماكن في جزيرة العرب منها شبام الحصن في حضرموت ، وهي المقصودة هنا ، وشبام الخرز في اليمن . ويلاحظ القارىء هنا ان راوولف قد نقل اسماء هذه المواقع عن السماع دون ان يعرف اماكنها وابعادها حتى ولو بشكل تقريبي .

الزرافات بعث بها اليه « ملك الحبشة » من افريقيا وهي من نوع ضخم مرتفع ذو رأس احمر ومنقار ملتح ورقبة يعلوها الريش وجسم كثيف واجنحة سود تشبه اجنحة النسر ،وذنب طويل مثل ذنب الاسد واقدام مثل اقدام (التنين)[٤٨] وهي تحب اكل اللحوم حين تكون صغيرة .وكان الملك يأخذ هذه الزرافات معه حين يخرج الى الصيد والنزهة ولكن حين كبرت وغدت قوية شرع يربطها بسلاسل قوية من اعناقها .

والذي اعتقده ان هذا النوع من الزرافات قديم[*] وقد كان في مستطاع ذلك الفارسي ان يتحدث الي عن الاشجار والفواكه التي كانت تنمو هناك ولا سيما تلك التي اشار ثيوفراستسوس اليها ونقلها عنه « بليني » .

وما خلا ذلك اعطاني ذلك الرجل معلومات عن شجرة (الفلّة)[٤٩] التي تنمو في اماكن عديدة من فارس وقد اشار اليها كل من ثيوفراستسوس وبليني وتتناولها النساء في البلدان الشرقية ، وعن شجرة « الموز » التي تنمو في الجزيرة العربية وتحمل ثمرا حلوا طيب المذاق يسمونه (واك)[٥٠] وهو مدور الشكل احمر اللون بحجم البطيخ الهندي . ترى هل كان هذا هو ثمر

(٤٨) التنين Dragon حيوان خرافي يرد ذكره في القصص الخرافية وهو يصور على شكل افعى هائلة مجنحة ذات مخالب فتاكة وينفث النار من فمه .

* علق « ستافورست » مترجم الرحلة الى الانكليزية على ذلك بقوله « بل قديم جدا وليس في العالم من المخلوقات ما يشبه وحيد القرن او الزرافة لانني استطيع ان اتحقق جهد الامكان ، بخلاف ما اوضحه الدكتور براون ، من وجود حيوانات من امثال (الغول) الذي يشبه وحيد القرن ولذلك لم ادهش ان اجد رجلا مثل راوولف يصدق مثل هذه الاقوال الكاذبة » . سماه المترجم الانكليزي نيكولاس ستافورست باسم Common Bisture ويقصد به التنين او الغول .

(٤٩) الفلة Palla

(٥٠) واك Wac

(المانغا)[٥١] الذي اشار اليه كلوفيوس في تأريخه عن النباتات الهندية ، والذي كان ينقل ـ بسبب جودته ـ الى فارس بحرا ؟ فقد تركت ذلك لالم به فيما بعد .

اما الموز الذي قيل عنه انه معروف في سوريا ايضا ، فهو شجر يحمل ثمرا صغير الحجم مقوسا ورقيقا اصفر اللون يشبه البطيخ في شكله وهو حلو المذاق شهي الطعم ، لكنه مضر بالصحة ولهذا السبب منع الاسكندر الكبير جنوده من تناوله !

كذلك ذكر لي ذلك الفارسي وجود ثمر سام في فارس يعرف لديهم باسم (سيفا)[٥٢] لا يهتمون به كثيرا ، اضافة الى الخوخ الذي يسمونه (هت)[٥٣] ومع ان هذا الثمر غير سام الا انهم لا يحبونه لانهم يعتقدون ان « نمرود » ـ وهو ساحر كبير ـ[٥٤] قد سمم ذلك الثمر بسحره ولذلك فهم لم يتقبلوا على تناوله منذ ذلك الوقت .

ارى ان فيما ذكرته الكفاية الى ان تتوفر لي فرصة السفر الى تلك البلاد وعندئذ ساقوم بالتحريات التي استطيع بها ان اتحقق من ذلك .

---

(٥١) ثمر المانغا المعروف والذي يصنع منه المخلل المعروف عندنا باسم العنبة .

(٥٢) سيفا Sepha

(٥٣) هت Het

(٥٤) هذه احدى الاساطير التي كانت شائعة عن « نمرود » احد آلهة اشور والذي سميت باسمه مدينة « كالخو » او نمرود التي بناها شلمناصر الاول ملك آشور (١٢٨٠ ـ ١٢٦٠ ق.م) وتقع على بعد ٣٥ كيلومترا جنوبي شرقي الموصل وقد اجريت اول الحفريات الاثرية فيها سنة ١٨٤٥ ـ ١٨٥١م

الفصل الخامس عشر

الطريق التي عـدت بها من بغداد عبر اشور في اطراف فارس واقاليم الكرد(١) الى كركوك(٢) واربيـل(٣) وغيرها .

بلوغي في النهاية نهر دجلة والموصل المدينة الشهيرة التي كانت تدعـى قبـلا باسـم نينـوى

حين اعترضت رحلتي جملة اسباب قاهرة اضطرتني الى العودة ، تفحصت امتعتي واذ ذاك نصحني صديقي المسيحي الذي اشرت اليه قبلا ، بان من الملائم لي ان اسافر مع ثلاثة من اليهود جاء احدهم معي في نهر الفرات ، في حين وفد الاخران من هرمز ، فقرر الثلاثة ان يسافروا الى حلب . وقد قبلت بذلك لانني لم اجد غيرهم يقصدون تلك الجهة .

بدأنا مسيرتنا في اليوم السادس عشر من شهر كانون الاول متجهين نحو كركوك التي تبعد مسيرة ستة ايام ، وتقع في حدود « ماذي » . وقد بدأنا السفر من الطرف الثاني لنهر دجلة الذي يسمونه « حدقول »(٤) .

مررنا في طريقنا اول الامر بحقول مزروعة ، كما امتـدت امامنا بعض القرى على ضفاف نهر دجلة . ولست اذكر اني شاهدت بلادا كهذه البـلاد يكثر فيها القمح والفواكه والعسل وغيره . وتقارن هذه الارض التي كانت

---

(١) الاكراد (كرتر Curters (٢) كركوك « كرخوخ Curchuch

(٣) اربيـل « كابريل Capril

(٤) حدقول Hidekol وحداقل هي التسمية القديمة والعبرانية لنهـر دجلة وقد وردت في التوراة . اما في العصور الاشورية والبابلية فكان دجلة يدعى « تغلات » و « دغلاتا » ثم حرف الاسـم لدى اليونانيين والفرس باسم « اتغرا » و « تايفرس »

تعود الى ملك اشور باراضي فلسطين غير اننا كلما توغلنا بعيدا في مسيرتنا تعاظمت الارض الخلاء ولذلك كنا نضطر الى ان نقضي الليل في الحقول .

في صباح اليوم التالي بان لنا طريق تنتشر عليه قرى قليلة تعود الى ملك فارس[٥] وكنا نسير في صحاري قال لي رفاقي المسافرون معي عنها انها تمتد الى داخل فارس وماذي . ولقد ضللنا الطريق حتى وصلنا عند المساء الى مستنقع اعاقنا عن السير . وقد اجبرنا على البقاء في هذا الموقع بسبب حلول يوم السبت وعدم موافقة اليهود الذين كانوا معي على متابعة السفر تنفيذا لشعائرهم . وهكذا امضينا الليل واليوم الذي تلاه تحت وابل من المطر .

ورحت في اثناء مكوثي في ذلك المكان ابحث عن النباتات فيه لكنني لم اعثر على شيء منها لانها في ذلك الوقت كانت قد بدأت تبرز من باطن الارض. على انني عثرت على انواع من الخلنجان البري ذي جذور كبيرة ومدورة يسميه السكان « السرو »[٦] ويطلق عليه اليونانيون واللاتينيون اسم « سيبروس »[٧] .

وفي التاسع عشر من الشهر وبعد مصاعب برزت لنا بسبب الاوحال التي كانت تغطي الطريق ، اخذ طريقنا يمتد وسط اراضي مزروعة جعلتني اتذكر « تراجان »[٨] الامبراطور الروماني وجيشه الذي صمد به امام الفرس في

---

(٥) مرت الاشارة قبلا الى ان راوولف كان يعتقد بان الاراضي الواقعة شرقي بغداد مباشرة تخضع لنفوذ ملك فارس ولذلك ذكر ان هذه القرى عائدة اليه وهو خطأ واضح .

(٦) ذكر راوولف كلمة السرو باسم « سوردت Sordt »

(٧) سيبروس Cyperus هو الاسم اللاتيني والعلمي لشجرة السرو .

(٨) تراجان Trajan من اعاظم اباطرة الرومان طموحا قاد حملة واسعة لاحتلال العراق استطاع بها ان يحتل الجزء الشمالي الغربي منه وقد حاصر مدينة « الحضر » مدة طويلة فلم يستطع الاستيلاء عليها فارتد عنها خاسرا اصيب بجروح في حملته تلك ومات بعد سنة . وكان تراجان قد سار من الاردن الى العراق فانحدر الى المدائن ثم وصل الى كرخ ميسان « المحمرة » .

اعداد كبيرة على نهر دجلة ، وعلى مقربة من طيسفون • ولقد ضل (تراجان) - بسبب أحد الاسرى من الفرس - في الصحراء فتمزق جيشه وابيد في قتال عنيف على ايدي الفرس ، وقد جرح الامبرطور نفسه في ذلك القتال جرحا بليغا ومميتا •

ويذكر المؤرخان « نقفور »[9] واوسابيوس[10] ان « تراجان » اخذ حفنة من الدم وقذف بها في الهواء وهو يقول : (وانت ايها الجليلي ــ وهو الاسم الذي كان يسمى به المسيح وقد آمن به اول مرة ثم ما لبث ان انكره واستخف به ــ قد هزمتني وحطمتني !)

★ ★

بعد ان عانينا البؤس عدة ايام وصلنا في العشرين من الشهر الى قرية تقع على مرتفع في ارض مزروعة مثمرة في حدود فارس ومعظم سكانها من الفرس كما خيل الينا ذلك من لغتهم التي كانوا يتخاطبون بها •

ومع اننا كنا الان نسير في مناطق خطرة الا اننا ، والحمد لله لم نصادف اي خطر ، ولذلك لم نتوقف عن المسير الى ان بلغنا ليلة الحادي

---

(٩) نقفورس Nicephorus مؤرخ بيزنطي (٧٥٨ ــ ٨٢٩م) صار بطريركا لاسطنبول سنة ٨٠٦ ثم اقيل منه ونفي ومات في المنفى .اشتهر بوضع كتابين عن المعرفة وكتابين في التاريخ يبدأ اولهما بالحديث عن العالم منذ آدم حتى وفاة المؤلف والكتاب الثاني يتناول الاحداث في الفترة ٦٠٢ ــ ٧٩٩م

(١٠) اوسابيوس Eusebius ويعرف بالقيصري عاش في الفترة ما بين ٢٦٠ ــ ٣٤٠ م وضع تأريخه باليونانية باسم (Cronicon) ضمنه الى جانب التاريخ العام جداول بما حدث في ايامه وقد ضاع الاصل من كتابه وبقيت ترجمته باللاتينية والارمنية واجزاء منه بالسريانية .

والعشرين من كانون الاول قرية (شلب)[١١] فامضينا الليلة فيها ومن هناك واصلنا سيرنا في اودية خصبة لكننا لم نجد فيها نباتا لانها كانت قد حرثت مؤخرا فلم يظهر الزرع فيها بعد • ولقد مررنا في طريقنا هذا بجملة من القرى وبذلك تهيأت لنا فرص حسنة للتزود بما نحتاج اليه من هذه القرى •

في ليلة الثالث والعشرين من الشهر وصلنا الى احدى القرى التي استطعنا ان نشتري منها مائة بيضة بمبلغ « بنسين »[١٢] •

وفي صباح اليوم التالي نهضنا مبكرين فشاهدنا امامنا جبال (طور)[١٣] كساها الثلج وهي تمتد الى الشرق من الشمال حتى الجنوب مسافات شاسعة• ثم واصلنا مسيرتنا حتى وصلنا ، في وقت قصير ومبكر ، مدينة «طاووق»[١٤] قبل ان يحل يوم السبت • وهذه المدينة ليست محصنة جيدا وتقع في سهل وقد ذهبنا الى النزل الذي فيها فاسترحنا فيه وامضينا يوم السبت كله هناك •

---

(١١) سماها راوولف باسم (شلب Schilb) وتقديرنا لموقع هذه القرية انها لابد ان تكون « هبهب » وربما كان الاسم القديم لهذه البلدة مقاربا للاسم الذي اعطاه راوولف لها هنا وان كانت هبهب لم تذكر في كتب البلدانيين العرب مما يدل على حداثة تاريخها .

(١٢) البنسان حسب السعر القديم يعادلان تسعة فلوس بالعملة العراقية الحالية وهذا يعني ان كل عشر بيضات كانت تباع باقل من الفلس الواحد ولا يستغرب القارىء هذا القول ويعده ضربا من الخيال ذلك لان اهل القرى قبلا لايجدون احداً يشتري البيض او الدجاج منهم ولذلك فهذه المنتجات لا قيمة لها عندهم وهي رخيصة بالشكل الذي ذكره راوولف هنا .

(١٣) اخطأ المؤلف في تسمية هذه الجبال باسم « طور » فهي في الحقيقة جبال « قره داغ » التي تمتد من جدول « داقوق صو » حتى نهر ديالى

(١٤) طاووق من الاقضية التابعة للواء كركوك وقد عرفت في المصادر العربية باسم داقوق و « دقوقا » وهي تقع جنوبي كركوك بثمانية واربعين كيلو مترا وعلى مقربة منها مزار ينسبونه الى الامام زين العابدين بن الحسين (رض) وذلك وهم لان زين العابدين لم يزر العراق « بل هو لم يخرج من المدينة المنورة بعد وقعة كربلا » (عبدالرزاق الحسني : العراق قديما وحديثا حاشية صفحة ٢٢٥) .

وعند المساء وحين بدأ الظلام يرخى ستائره طلب الي رفاقي اليهود ان اوقد لهم احد القناديل ، واذ ذاك تذكرت ان اليهود لا يوقدون النار بانفسهم في مثل هذا اليوم لان شعائرهم تمنعهم عن ذلك ، وهذا وارد في الاصحاح الثالث والعشرين من « سفر الخروج » . فهم في ذلك اليوم لا يوقدون اية نار في بيوتهم ، ويهيئون كل ما يحتاجون اليه قبل يوم سابق كيلا يضطروا الى مزاولة اي عمل كان في يوم السبت . ولا حاجة الى القول بان اليهود يمارسون في صلاتهم ذات الشعائر التي يمارسها المسيحيون والحثيون[١٥] في الاقطار الشرقية .

وعلى مسافة قصيرة من طاووق شاهدنا قلعة محصنة فيها احدى الحاميات التركية وهذه تقع في منطقة الاكراد[١٦] التي تبدأ من هنا وتسير بامتداد نهر دجلة بين ماذي وبين النهرين حتى تصل الى ارمينيا .

ومعظم هؤلاء الاكراد من النسطوريين[١٧] وهم يتحدثون بلغة خاصة لم يكن رفاقي المسافرون معي يعرفونها ، كما ان الاكراد لا يستطيعون التحدث لا بالفارسية او التركية الشائعة الاستعمال ما بين بغداد واشور . وذلك

(١٥) الحثيون اقوام جاءت من آسيا الوسطى ونزلت في اعالي نهر الفرات قبل الميلاد ثم اجتاحت العراق والاردن وفلسطين واستقرت فيها وكانت عاصمتهم تدعى (خطى) تقع على نهر « قزل ارمق » في تركيا وكانت لهم في الاناضول عاصمة اخرى تدعى « حانوسا »

(١٦) المنطقة الكردية لاتبدا من طاووق ولا من كركوك وانما تبدا في الواقع داقوق الى اربيل التي يسكنها العرب والاكراد والتركمان .

(١٧) هذا وهم من المؤلف ذلك لان الاغلبية الساحقة من الاكراد هم من المسلمين . ولكن المؤلف ربما اراد بكلمة النسطوريين الطائفة الاثورية التي يعتبرها البعض من الاكراد وما هي منهم . ومع ذلك فان قلة من الاكراد تعتنق المسيحية واليهودية ايضا . وقد نزح معظم اليهود الاكراد مع بقية اليهود الاخرين من العراق الى فلسطين المحتلة بعد سنة ١٩٥٠ م .

اضطررنا الى من يعرفون اللغة الكردية ان يكونوا بمثابة مترجمين لنا اثناء مرورنا ببلاد الاكراد .

اما اذا كانت اللغة الكردية منتشرة في بلاد ماذي ام لا فذلك امر لم استطع التأكد منه ، اذ ان كلا من الفرثيين والماذيين والفرس ، كأمم محددة معروفة ، كانت لهم لغاتهم الخاصة بهم ، كما يحدثنا التأريخ عن ذلك وكما نطلع عليه ايضا من « اعمال الرسل » حيث تقول الاية الثامنة من الاصحاح الثاني « وكيف نصغي الى كل رجل يتحدث بلساننا في الوقت الذي كنا قد خلقنا فيه » .

فالفرثيون والماذيون والفرس وسكان ما بين النهرين وغيرهم كلهم من الشعوب التي تخضع اليوم لحكم ملك فارس .

وكان الاكراد يعرفون قبلا باسم « كردوخي Carduchi ثم عرفوا باسم « كردواني Cardueni » وهذا الاسم قد سماهم به « زينفون » بصفة خاصة(١٨) .

وكانت للاكراد سياستهم وحكومتهم ، ولكن بعد تبدلات وحروب كثيرة اخضعوا في النهاية لحكم السلطان التركي ، وهم لا يزالون يخضعون له حتى هذا اليوم وهو يحتفظ بحامياته العسكرية في كل مكان لمواجهة ملك فارس .

ومما يجب التحدث به عن هؤلاء الاكراد ما يتعلق بدياناتهم ، ولسوف اشير الى ذلك فيما بعد حين اقدم لك قدرا من الحديث عن المسيحيين الذين يسكنون في معبد يقوم على جبل (الصلب)(١٩) في القدس .

---

(١٨) زينفون Zenophon (٤٤٤ ـ ٣٥٩ ق.م) فيلسوف وقائد يوناني معروف اشتهر بحملته التي قاد فيها عشرة الاف يوناني لمناصرة كورش الصغير ملك فارس ضد اخيه اردشير وقد تراجعت هذه الحملة على امتداد نهر دجلة الى اسيا الصغرى .

(١٩) ذكر راوولف هذا الجبل باسم كلفاريا Calvaria وهو الجبل الذي قيل ان السيد المسيح ـ عليه السلام ـ قد صلب فوقه ولذلك سمي باسم جبل الصلب او جبل الجلجلة .

بعد ان ولى اليوم الذي سبت فيه رفاقي اليهود استأنفنا مسيرتنا فوصلنا في السادس والعشرين من كانون الاول الى « كركوك »وهي مدينة جميلة وكبيرة تقع في سهل كثير الخصب . وعلى بعد اربعة اميال منها تقع مدينة اخرى على مرتفع[٢٠] ولما كانت لرفاقي اشغال في المدينتين فقد امضينا فيهما يومين قبل ان نواصل سفرتنا .

انفقنا اليوم التاسع والعشرين من الشهر في مسيرة عبر مروج واسعة حتى وصلنا ليلا الى خيام صنعت من نسيج الشعر امضينا الليلة في واحدة من هذه الخيام مع اناس فقراء من العرب بيض الوجوه يشبهون الغجر في اشكالهم وسحناتهم . ولم استطع ان اقدر من نوع الملابس التي كانوا يرتدونها ما اذا كانوا يخضعون للسطان التركي ام لملك فارس ، لا نهم كانوا جميعا يرتدون ذات اللباس ، كما انني لم استطع ان اميز شيئا في لغتهم .

بعد قليل اقبل علينا مسافرون اخرون حلوا معنا وبذلك اصبح من المتعذر علينا ان نجد مكانا تنام فيه . وكان القوم جد كرماء اذا انهمكوا في تقديم اللحوم والشراب لنا . ذلك لاننا ما ان اقلبنا عليهم حتى اسرع رب البيت بالخروج من خيمته بجمع الاحطاب الجافة لشي اللحم بها .

ولم تكن النسوة خاملات ، فقد اسرعن بتقديم اللبن والبيض لنا ، بينما شرع غيرهن في عجن الطحين لتهيئة الخبز وذلك بصنعه على شكل اقراص سمك الواحد منها سمك الاصبع ومن ثم القاؤه على احجار ساخنة وتقليبه فوقها وتغطيته باحجار ساخنة اخرى الى ان ينضج .

---

(٢٠) لا توجد مدينة اخرى تبعد اربعة اميال عن كركوك كما ذكر ذلك راوولف ولكن الشيء الذي يخيل الينا ان هذه المدينة هي قلعة كركوك او « القورية » التي تقع على الضفة الشرقية من نهر « خاصة صو » بينما يقع القسم الاخر من كركوك على الضفة الغربية منه ، ولذلك خيل الى راوولف ان القسمين يؤلفان مدينتين منفصلتين .

وهذه الطريقة في صنع الخبز ليست حديثة عهد فلقد اعتادها القدامى من السكان حيث نجد ذلك مذكورا في المدونات القديمة • فنحن نقرأ في الاصحاح الثامن عشر من « سفر الخليقة » كيف ان « سارة سارعت الى صنع الخبز حين اقبل ثلاثة رجال على ابراهيم » •

+ ❋ +

تحركنا من هذا الموضع ظهيرة يوم الثلاثين من كانون الاول فوصلنا الى مدينة تدعى « برستا »[٢١] على مقربة من النهر القائم هناك ، وهي محصنة تحصينا جيدا ، لكنني لم اعرف الاسم الذي يطلقه السكان على ذلك النهر ، ولكن طبقا لموقعه لابد ان يكون هو النهر الذي اطلق عليه « بطليموس » اسم « غورغوس »[٢٢] والذي يصب في دجلة •

وفي هذه الاماكن تصنع الارماث وهي وان لم تكن كثيرة جدا ولا توجد اخشاب كثيرة فيها ، الا انها تحوي عددا وافرا من جلود الماعز المنفوخة والتي توضع في القعر لتحمل المزيد من الاثقال فوقها ، ولما كان النهر سريع الجريان فلا يخشى عليها من الخطر كثيرا •

وينقل القوم على هذه الارماث انواع السلع ولاسيما الثمار من امثال التين واللوز والزبيب والجوز وكذلك الحنطة والشراب والصابون وغيرها من السلع الاخرى التي يجري نقلها الى الهند •

---

(٢١) برستا Presta هي مدينة التون كوبري الحالية التي بناها السلطان مراد الرابع اثناء حملته على العراق سنة ١٦٢٩م وكلمة برستا محرفة عن كلمة « بردى » الكردية وتعني « الجسر »

(٢٢) غورغوس Gorgus هو الاسم الذي اطلقه الجغرافي اليوناني الشهير بطليموس على نهر الزاب الصغير الذي تقع عليه مدينة التون كوبري ، اي « قنطرة الذهب » ، و « الزاب » هو اقدم اسم لنهري الزاب الكبير ولصغير معا اذ ورد ذكرهما بهذا الاسم في النصوص الاشورية حوالي سنة ١٢٥٠ ق.م

واصلنا مسيرتنا في آخر يوم من كانون الاول عبر الحقول فوصلنا ليلا الى مدينة اربيل ، وهي مدينة كبيرة لكن ابنيتها زرية المنظر تحيط بها اسوار هزيلة ولذلك يمكن الاستيلاء عليها بيسر ومن دون قوة كبيرة او خسائر •

ولقد استرحنا في هذه المدينة حتى اليوم التالي وهو يوم السبت والذي يقع فيه « رأس السنة الجديدة »(٢٣) •

وقد علمت في ذات الوقت ان آمر لواء تركي كان قد اقدم قبل ايام قلائل على تنفيذ حكم الاعدام بثمانية من المجرمين الكبار الذين اقترفوا اعمال السلب والقتل في الطريق العام ، حيث يوجد عدد كبير من هؤلاء السلابين في تلك المنطقة ، على حدود ارمينيا • وهؤلاء هم من سكان الجبال الذين يجعلون السفر في تلك الانحاء محفوفا بالمخاطر •

ولقد اضطربت الاحوال وساءت العلاقات بين اولئك القتلة وقطاع الطرق • ولذلك قرر امير اللواء التركي ان يقدم على اعدامهم قبل ان يثأروا منه باي من الطرق ، لكنهم ما لبثوا ان تفاهموا فيما بينهم واتفقوا على العمل سوية ، وتهيأوا للهجـــوم عليه طبقا لما خططـــوه • ولما كانت لامير اللواء استخبارات حسنة عن نواياهم فقد استطاع ان يشخص الى اسطنبول ليعلن امرهم للسلطان التركي وذلك امر لابد ان يطلعوا عليه بعد وقت قصير •

وحين وجد امير اللواء ضرورة في نجاته ، وحاجة ماسـة الى الامـوال التي غدت نادرة لديه ، استدان من احد التجار الارمن ، وهو من الاثرياء وقد وصل الى اربيل توا لشراء العفص منها والذي يكثر فيها ، ثلثمائة دوقة الامر الذي وضع ذلك التاجر في خطر كبير ، لان المتمردين ما ان علموا بذلك حتى

---

(٢٣) راس السنة الجديدة بالنسبة للتقويم الميلادي وهي سنة ١٥٧٥م •

استاؤا منه وهددوه فاضطر الى ان يمكث مدة اطول كيما تتهيأ جماعة اكثر عددا يستطيع السفر معها بامان •

وبعد ان انضم الينا ذلك التاجر الارمني نفسه رحلنا من اربيل في الخامس من كانون الثاني سنة ١٥٧٥ م في عدد كبير من البضائع ، اذ ان ذلك التاجر وحده كان يملك حوالي خمسين بعيرا وحمارا محملة بالعفص الذي يريد نقله الى « قره آمد » (ديار بكر) التي يسكن فيها ومن هناك يبعث به الى حلب حيث يقبل التجار هناك على شرائه وارساله الى بلادنا الاوربية • وهكذا امضينا النهار ونصف الليل الذي اعقبه ونحن نغذ السير دون ان نتناول اي طعام او شراب الى ان توقفنا للاستراحة بعد منتصف الليل •

★ ★

بعد ان امضينا بقية الليل في التزود بالطعام والشراب لنا ولدوابنا استأنفنا مسيرتنا عند انبلاج الصبح • وحين كنا نسير في سهول مزروعة مثمرة وصلنا الى نهر اخر سماه « بطليموس » باسم « كابروس »[٢٤] وهو وان لم يكن عريضا لكنه عميق الغور جدا ، ولذلك وجب علينا ان نعد وسيلة ما لعبوره ، مما جعلني احرص كل الحرص على وقاية النباتات التي جمعتها والتي كنت اضعها امامي على ظهر الجواد الذي كنت امتطيه •

واصلنا سفرتنا بعد الظهر فقطعنا مسافة لا بأس بها من الطريق حتى وصلنا ليلا الى مدينة ذات سوق واسعة هي مدينة (قره قوش)[٢٥] فاقمنا خيامنا على مقربة منها •

---

(٢٤) كابروس Caprvs هو نهر الزاب الكبير •

(٢٥) قرهقوش Carcuschy تبعد شرقي الموصل بحوالي ثلاثة وثلاثين كيلو مترا ومعناها في اللغة التركية « الطائر الاسود » ولكن اسمها القديم هو « با خديدا » وهي الان مركز ناحية « الحمدانية » التي حل اسمها مكان قرهقوش •

وهذه المدينة يسكنها (الارمن)[٢٦] الذين استطعنا في الحال ان نميزهم من تغير لغتهم وعاداتهم ، وقد استقبلونا بترحاب متزايد ، واعدوا لنا كل ما كنا نحتاج اليه .

وبعد ان استرحنا في المدينة حتى المساء غادرناها حين حل الظلام . وكانت حلكة الليل شديدة الى درجة اننا كنا فيها نسمع اصوات قوافل تمر بنا . دون ان نراها ، او نعرف كثرتها ، او المكان الذي اقبلت منه .

وحين طلع علينا النهار وصلنا الى نهر كبير يسميه السكان « كلك »[٢٧] ، ان لم اكن قد اخطأت في ذلك ، بينما يدعوه بطليموس باسم « ليكوس »[٢٨].

كان ذلك النهر يعترض طريقنا ، وكان عريضا يبلغ عرضه زهاء الميل[٢٩] ، ولم يكن من اليسير عبوره دون التعرض الى الخطر ، وذلك امر يعرفه الاكراد جيدا ، في ذات الوقت الذي كنا نحن نشعر فيه بالخوف من اولئك الاكراد انفسهم ، ومع ذلك فقد وجدنا بين جماعتنا ممن سبق لهم عبور ذلك النهر وهكذا غامرنا في عبوره فاندفعنا اليه وعبرناه وخرجنا منه سالمين بفضل الله ، خلا حمارا واحد جرفه تيار النهر القوي فاغرقه .

في مبكر صباح اليوم السابع من كانون الثاني ١٥٧٥ م وصلنا الى نهر

---

(٢٦) الظاهر ان المؤلف قصد بكلمة (الارمن) هنا « الاراميين » لان الاراميين او الكلدانيين هم الذين يؤلفون الاكثرية من السكان في مدينة قره قوش وبقية القرى المسيحية الاخرى الواقعة شرقي الموصل .

(٢٧) ليست كلك (التي ذكرها المؤلف باسم كلنك Kling) نهرا ، وانما هي ناحية صغيرة على نهر الزاب الكبير وتعرف باسم « اسكي كلك »

(٢٨) ليكوس Lecus تسمية اخرى لنهر الزاب الكبير عند اليونان

(٢٩) ليس نهر الزاب الكبير على مثل هذا العرض الذي ذكره المؤلف وقد يفيض في اوقات الفيضان على المناطق الواطئة المحيطة به فيصبح عريضا ولكن لايبلغ عرضه ميلا قط .

دجلة مرة اخرى لندخل مدينة « الموصل » الشهيرة التي تقع على هـــذا الجانب[٣٠] من النهر فوق جسر مصنوع من الزوارق .

وفي المدينة بعض الشوارع والابنية الجميلة الجيدة،وهي واسعة نوعا ما لكن اسوارها وخنادقها ضعيفة ، كما لاحظت ذلك من سطح النزل الذي حللنا فيه والذي يمتد الى المدينة ذاتها .

كذلك شاهدت في خارج المدينة تلاحفر معظمه يسكنه الفقراء من الناس وقد رأيتهم عدة مرات يزحفون اليه ويخرجون منه مثلما يزحف النمل الى تلاله ويخرج منها[٣١] وفي هذا المكان كانت تقوم قبلا مدينة « نينوى » ذات القوة والبأس التي بناها « آ شور » منذ عهد الملكية الاولى حتى عهد سنحاريب وابنـــائه[٣٢] .

كان طول نينوى يبلغ مسـيرة ثلاثـة ايام . ولقـد قرأنـا ان النبـي

---

(٣٠) يقصد به الضفة الشرقية من نهر دجلة والتي تقوم فيها خرائب نينوى وقرية النبي يونس قبل ان يمتد العمران اليها مؤخرا .

(٣١) هذا التل هو المعروف باسم « تل التوبة » والذي يقوم عنده قبر النبي يونس ومسجده في الجانب الشرقي من الموصل وهو جزء من مدينـــة نينوى وفي هذا الوضع دعا النبي يونس اهل نينوى ان يكفوا عن المعاصي ويتوبوا فسمي ذلك الموضع باسم تـل التوبة

(٣٢) لا يعرف على وجه التأكيد اسم الملك الذي بنى نينوى فقد دلت التحريات انها كانت قرية في عصور ما قبل التأريخ وان أسمها سومري الاصـل وكانت من مراكز الاموريين قبل الميلاد بثلاثة الاف سنة وقد قام « شمش حدد الاول » الذي حكم اشـور في القرن الثامن عشر قبل الميلاد بتجديد

« يونس » عندما جاءه امر الله وراح يدعو سكان المدينة الى التوبة استطاع ان يدخلها في يوم واحد ، ولذلك اصغى الناس بشوق الى مواعظه فتحسنت حياتهم ، لكنهم لم يستمروا في التوبة طويلا ، وعادوا الى مفاسدهم السابقة واذ ذاك حل بهم الدمار والخراب مما تنبأ لهم به كل من النبي « ناحوم »[٣٣] والنبي صفنيا[٣٤] وكذلك التقى الورع « طوبيا » الذي كان آنذاك في المدينة ولم يمكث فيها طويلا .

ومع ذلك تم بناء الموصل مجددا فيما بعد ، وعانت الكثير بسبب تبدل الحكومات التي استولى عليها « تيمورلنك »[٣٥] في النهاية بهجوم عاصف فاحرقها وحولها الى رماد ، الى درجة ان النباتات والاشجار نمت فوقها بعد مدة قليلة . ولذلك لا ترى في الوقت الحاضر ، اية آثار فيها مثلما هو عليه الامر في « بابل » القديمة ، ولم يسلم منها سوى حصن يقوم على احد التلال

معبد اقامه « مانشستو » احد ملوك « اكد » وازدهرت المدينة في عهد اشور ناصربال وابنه شلمناصر وكذلك في عهد سرجون واسرحدون وسنحاريب . ويقول العالم الاثري الانكليزي هنري رولنصون ان مساحة نينوى بلغت ٢١٦ ميلا مربعا وان عدد سكانها في عهد النبي يونس بلغ مليون ومائتي الف نسمة .

(٣٣) النبي ناحوم Nahum واحد من الانبياء الاثنى عشر الصغار عند اليهود وسفر ناحوم يقع في ثلاثة فصول وهو مليء بالانذارات .

(٣٤) النبي صفنيا Zephenia من انبياء اسرائيل الاثنى عشر الصغار ايضا ويقع سفره في ثلاثة فصول .

(٣٥) تيمورلنك ومعناه تيمور الاعرج ويعرف عند الاجانب باسم تامرلان Tamerlane من احفاد جنكيزخان المغولي ولد سنة ١٣٣٥م شغل منصب الوزارة في حكومة غتمشخان ثم ثار عليه وانتزع الحكم منه . زحف على ايران واستولى عليها وعلى الافغان واذربايجان والعراق كما استولى على الهند واسيا الصغرى وقد عزم على افتتاح الصين لكن المنية عاجلته قبل ان يحقق ذلك .

وبعض القرى القليلة التي كانت تعود الى الايام الخوالي فيها حسبما ذكر لنا السكان ذلك(٣٦) .

تقع الموصل عند تخوم ارمينيا في سهل واسع يزرع القسم الاعظم منه بالحنطة على الجانب الاخر من النهر . ذلك لان هذا الجانب من ارض العراق رملي وقاحل يدعك تحس وكانك تعيش في الصحراء العربية .

ومع هذا فالتجارة نشطة فيها ، اذ ان في المدينة مخازن كبيرة للسلع نتيجة وجود النهر ، حيث يتم نقل مختلف البضائع والفواكـه من البلاد المجاورة بطريق النهر وبالبر الى بغداد .

ولقد شاهدت نوعين من هذه الفواكه من جنس الجوز باحجام كبيرة وصغيرة يسميه السكان باسم (البندق)(٣٧) كما شاهدت نوعا من « البطيخ »(٣٨) كبير الحجم بقدر قبضتي اليد كثير الانتشار هنا قيل لي عنه انه يؤتى به من ارمينيا.وهو صلب اسمر اللون ليس حلو المذاق وهو كاليقطين(٣٩) ومع ذلك فهو حسن صالح للاكل ويحتوي على بذور صغيرة حمراء لا يشاهد

---

(٣٦) الثابت تاريخيا ان نينوى قد دمرت على ايدي الماذيين والبابليين الذين تحالفوا معهم وكان ملك الماذيين هو ارباسيس ويعرف باسم كي اخسار ايضا وملك البابليين هو بلسيس او نبوبلاسر وقد زحف الجيشان الماذي والبابلي على نينوى من كل الاطراف ودمراها تدميرا تاما وذلك في سنة ٦١٢ ق.م . ولم تقم لمدينة نينوى اية قائمة بعد ذلك التاريخ (انظر رحلتي الى العراق ج١ ص١١٧ تأليف بكنغهام ترجمة سليم طه التكريتي ط ١٩٦٨) . وعلى هذا فان تيمورلنك لم يهاجم نينوى كما قد يفهم من قول راوولف هذا ، وانما هاجم مدينة الموصل التي تقع على الضفة اليمنى من نهر دجلة وذلك في سنة ١٣٩٣م وزحف منها الى بغداد فانتزعها من حكم الجلائريين في ذات السنة .

(٣٧) البندق ذكره المؤلف باسم بونت Bont

(٣٨) البطيخ ذكره المؤلف باسم « مانا Manna » وهي ذات الكلمة التي تطلق على (المن) في اللغات الاوربية ونظن انه هو « الرقي »

(٣٩) اليقطين Calabria

المرء حين تناوله وهو يحل الجسم لكن ليس بالشكل المعروف عندنا من هذا الثمر • وقد اعتاد السكان ان يتناولوه بكميات كبيرة عند الصباح مثلما يفعل ذلك سكان جبل لبنان[٤٠] بالنسبة الى الجبنة •

ولكن هل كان هذا هو (المن الحجازي) الذي اشار العرب اليه ، ام هو النوع الذي اشار اليه « ابن سينا » في الجزء الثاني ، المقالة الثانية من الفصل الخامس والسبعين ، فذلك امر لم اتحقق منه •

★ ★

وقيل ان اكثرية سكان الموصل من النسطوريين[٤١] الذين يزعمون بانهم مسيحيون ، لكنهم في الحقيقة اسوأ من اية ملة اخرى • ذلك انهم لا يمارسون غالبا اي عمل كان سوى ترصد الطرق والانقضاض على المسافرين وقتلهم وسلبهم ، وبسبب ذلك كانت الطرق المتجهة الى «نصيبين»[٤٢] ـ التي بلغناها في مدى خمسة ايام سيرا في ارض رملية وعرة ـ محفوفة بالمخاطر مما اضطرنا الى ان نمكث عدة ايام انتظارا لجماعة اكثر عددا نستطيع ان نسافر معها في امـان •

---

(٤٠) لبنان ذكره المؤلف باسم Algan

(٤١) ليس صحيحا ان اكثرية سكان الموصل هم من النساطرة فعلى العكس انغالبية سكانها من المسلمين ولكن اكثرية المسيحيين الساكنين فيها كانوا من النساطرة في الوقت الذي زارها راوولف فيه .

(٤٢) نصيبين كتبها المؤلف باسم زيبين Zibin وهي من المدن القديمة جدا تقع على نهر جغ جغ احد روافد نهر الخابور ورد في التوراة عنها ان الذي بناها هو نمرود ملك اشور ولا يوجد سند تأريخي لهذا القول .

الفصل السادس عشر

الطريق الذي سلكناه عبر العراق ـ طريق نصيبين ـ اورفه الى « بير » المحفوف بالخطـر . كيفية عبورنا نهر الفرات العظيم ووصولنا الى سـوريا ومدينـة حلب الشـهيرة

بعد ان مكثنا اربعة ايام استأنفنا رحلتنا في الحادي عشر من كانون الثاني فامضينا النهار كله في السير بمنتهى السرعة دون ان نأكل شيئا الى ان غربت الشمس وحل المساء ، حيث خيمنا على مرتفع عند قرية صغيرة لنستريح ونريح دوابنا . وقد بقينا طيلة الليل في حراسة مستديمة ، ونحن ندور حول المخيم ثلاثة فثلاثة .

وفي اليوم الثاني استأنفنا مسيرتنا بسرعة تامة كيما نصل الى ينبوع او بئر ماء ، مثلما يفعل ذلك سكان هذه البلاد في مثل هذه الصحاري الشاسعة ، اكثر من اهتمامنا بالوصول الى نزل حسن . وقد وصلنا في النهاية الى احد هذه الابار فاقمنا مخيمنا عنده لنستريح ولنمضي الليل كله هناك .

وبعد مضي وقت طويل على تناولنا طعام العشاء اقبل على مخيمنا بعض الاكراد وتحدثوا الينا برقـة ، وسـألونا عما اذا كنـا في حاجـة الى شيء ما يستطيعون به مساعدتنا .

لكن سرعان ما تأكد لدينا ان اولئك كانوا من الجواسيس بعث بهـم رفاقهم ليعرفوا قوتنا ، ولما ايقنوا باننا لم نفرح بمقدمهم لم يمكثوا معنا طويلا وغادرونا . واذ ذاك وطدنا العزم على ان نستريح بعد ان اعددنا لنا حراسة جيدة مثلما فعلنا ذلك في الليلة السابقة .

وعند منتصف الليل ، وحين كنا في الاغفاءة الاولى ، لاحظ حراسنا عددا

كبيرا من الاكراد يقتربون من مخيمنا . ولذلك ايقظنا حراسنا من النوم بما اطلقوه من عبارات التحذير باصوات عالية ، وان نكون على اتم استعداد للامر . ولكي يخيفوا اعداءنا ويبعدوهم عنا بهذه الوسيلة . لكن اولئك الاكراد لم يأبهوا بتلك الصيحات بل اتجهوا الينا بكل ما لديهم من سرعة فاصبحوا قريبين منا وغدونا نرى رؤوسهم امام مخيمنا رغم حلكة الظلام .

على انهم ما ان وجدونا على استعداد كامل وتهيؤ لمقاومتهم ، واذ سمعوا اصوات حملة البنادق والنبال من جماعتنا وقد استعدوا لاطلاقها عليهم ، وراحوا ينادونهم باصوات عالية « تعالوا تعالوا ايها اللصوص ! »[1] حتى توقف اولئك الاكراد قليلا ثم خافوا منا فولوا الادبار هاربين .

وبعد فترة ، ولم نعد نخشى هجومهم علينا ، اقبلوا نحونا مرة اخرى في اعداد اكبر من المرة السابقة . فقد كانوا يسوقون امامهم بعيرا في المقدمة وخيلا ، استطعنا ان نميزها في الظلام وهي ترفع رؤوسها نحو السماء ، وكان غرضهم من هذا ان يحملونا على الاعتقاد بانهم من المسافرين او كيلا نعرف مقدار عددهم . على ان غارتهم الاولى علينا ما زالت حية في الاذهان ولهذا لم ننخدع بهم بل اعدنا استعدادنا ثانية للمجابهة ، فكنت انا اقف في الميسرة وفي الصف الاول منها وقد سحبت بندقيتي وتدرعت بعدد من صفائح الورق التي جلبتها معي لاحفظ بها النباتات التي اجمعها ، ثم رحت انتظر هجومهم في كل لحظة . لكنهم توقفوا عن السير مرة اخرى ، وخشوا منا كما خشينا نحن منهم ولم يطلقوا صوتا واحدا ، او يتحركوا باية حركة تجاهنا ، وعندئذ عمد احد رجالنا الى استفزازهم فوجه اطلاقة نحو البعير واصابه معلنا بذلك لبقية الرجال بان يستعدوا لاطلاق النار وحينئذ لم يمكث الاكراد الا قليلا وولوا الادبار ثانية ، وهكذا بقينا يقظين طيلة الليل وفي حراسة جيدة

---

(١) ثبت راوولف هذه العبارة باللغة العربية على الشكل التالي « تعالوا تعالوا ايها الحرامية » وقد ابقاها مترجم الرحلة الى الانكليزية على حالها كما دونها المؤلف .

حيث استأنفنا مسيرتنا في باكر صبيحة اليوم التالي فبلغنا قفرا قاحلا واسعا لا انسان فيه ولا حيوان ، ومضينا في رحلتنا حتى الظهر حين اقمنا خيامنا في مكان واسع محاط بجدران وخنادق اشبه بالحصن ، مما يكثر وجوده في مثل تلك الانحاء الخطرة .

وما ان اقمنا هناك حتى اقبل علينا اثنان من الاكراد زعما بانهما قد ارسلا الينا لتسلم الاتاوة المفروضة على القافلة لان المكان يعود اليهما غير ان تجارنا سرعان ما تأكد لديهم كذب مزاعم ذينك الكرديين ، فامتنعوا على اعطائهما اي شيء مما اثار سخطهما فعمدا الى امتشاق حساميهما واشهارهما بوجوهنا . واذ ذاك لم يقف رفاقنا مكتوفي الايدي بل اسرعوا في امتشاق سيوفهم وهجموا عليهما وطردوهما من المخيم .

× × ×

بعد ان انتهت هذه الضجة تناولنا طعام الغداء ثم استرحنا واطعمنا دوابنا ومن بعدها عاودنا السير مرة اخرى حيث بدت امامنا بعض الجبال التي اخذنا نقترب منها عند حلول الظلام ، وقد شاهدنا احدها وهو اكثر ارتفاعا من البقية يقوم فوق احد السهول مما حملنا على الاعتقاد بوجود جبال اخرى تقع خلف هذه الجبال في شكل كمين ، وقد تحقق لنا ذلك فعلا لاننا ما كدنا نجتاز احد تلك الجبال حتى ظهر لنا من ورائها عدد كبير من الجنود يبلغ فوجين كانوا يمتطون ظهور الخيل ويسيرون كل ثلاثة في صف واحد ، وقد اصبحوا في النهاية على مرمى سهم منا ، وكان معظمهم يحملون الرماح .

واذ بدا لنا ، وكأن اولئك الجند يحاولون الهجوم علينا ، جمعنا فلول قافلتنا وتهيأنا لصدهم ، وقد ربطنا دوابنا بعضها بالبعض الاخر ، وعقلناها من ارجلها كيلا تتحرك ، ووقف خلفها المكاريون وهم يحملون سهامهم بينما وقف خلفهم بقية الرجال الذين لم يتزودوا بالاسلحة والخيل جيدا ، وذلك استعدادا لاطلاق النار على العدو عند الحاجة اذا ما حاول الهجوم علينا وتوجيه اطلاقات بنادقنا الى خيله .

بعد مضي ساعة على ذلك بعثنا باثنين من جماعتنا الى الجند كما ارسلوا هم بدورهم اثنين من جانبهم للتفاوض ومع انني لم اعرف نوع الاتفاق الذي تم التوصل اليه بين مندوبينا ومبعوثيهم ، الا ان اولئك ما ان تحادثوا كثيرا حتى غادرونا في الحال وسرنا نحن في طريقنا ، واذ ذاك شرعنا في تنظيم قافلتنا ، التي كانت تضم اناسا كثيرين وعددا كبيرا من الابل والدواب الموسقة بالحمولة، بشكل احسن من ذي قبل ، حيث قطعنا في ذلك اليوم مسافة جيدة ووصلنا في النهاية الى قرية صغيرة خيمنا عندها وامضينا الليل كله هناك .

لم نجد في هذا المكان شيئا من الحطب وكنا نعاني نقصا في الخبز اكثر من بقية المواد الغذائية الاخرى . وقد زاد سرورنا حين حصلنا على الخبز ، وفي الوقت ذاته اقبل سكان القرية نحونا ليجمعوا روث الدواب كما اعتادوا ان يفعلوا ذلك في اماكن عديدة ، ولاسيما في الصحراء ، لاشعاله بدلا من الحطب الذي يأتي استعماله في الدرجة الثانية بعد روث الحيوانات .

ويحفر هؤلاء السكان داخل خيامهم او بيوتهم حفرات يبلغ عمق الواحدة منها قدما ونصف قدم يضعون فيها اوعيتهم الفخارية التي يحفظون في القسم العلوي منها ما لديهم من لحوم ثم يملأون ثلاثة ارباع حيز الحفرة بالحصى ويتركون الربع الاخير فارغا يضعون فيه الروث والقش فيشعلون فيه النار ومن ثم يضعون الوعاء على النار ليطهوا اللحم بسرعة اكثر مما نفعله نحن عادة .

ان سكان هذه القرى فقراء ، ومعظمهم يعاني النقص الشديد في الغذاء ، وهم يفعلون نفس ما فعله اليهود عند حصار « القدس » حين اضطرتهم الحاجة الى ان يطهوا طعامهم ببراز الانسان والحيوان معا ، كما ورد ذلك في الاصحاح الرابع من « سفر حزقيال » .

لقد امضينا هذه الليلة والليالي الاخرى التي اعقبتها في الحراسة اكثر

من النوم ، ورحنا نتمعن بتأمل فيما تحفل به السماء من فوقنا والتي يشاهدها الكثيرون من ابناء الامم عادة ، ولاسيما العرب الذين يبيتون دوما في العراء دون سقف يحميهم ، وبهذا اصبحوا يعرفون من مشاهدة النجوم ساعات الليل والوقت الذي ينبغي لهم ان يستيقظوا فيه • فهم لا يهتمون كثيرا باسرة النوم بل يستعملون بدلا عنها العباءات والابسطة التي يلفون انفسهم بها فيستدفئوا بها ولهذا لا يمكن للمطر او الجليد او الندى ان يصبهم باي اذى •

غادرنا موقعنا صباح اليوم التالي بعد طلوع الشمس فامضينا النهار كله في السير دون ادنى عائق ، فاجتزنا جبالا عديدة ، كما مررنا في اليوم الثاني بصحراء رملية عميقة الغور اعاقت سيرنا كثيرا •

وحين بدأ الظلام يرخى سدوله كانت دوابنا قد كلت واوشكت ان تسقط من وطأة الاثقال التي كانت تحملها وسببت لنا المتاعب ، ورغم ذلك ، ولان مدينة نصيبين لم تعد تبعد عنا سوى اربعة اميال ، فقد تخلينا عن الطريق الوعر الذي كنا نسير فيه الى طريق اخر يمر عبر المروج والينابيع التي كانت تنساب الى اماكن بعيدة ، ولذلك اسرعنا في السير حتى وصلنا نصيبين في وقت متأخر من الليل •

وهذه المدينة جميلة الموقع وهي تخضع لحكم السلطان التركي لكنها ليست كبيرة ، وتقوم فوق مرتفع ، وتحيط بها الاسوار والخنادق المحصنة احاطة جيدة •

والمدينة ملأى بالينابيع والقنوات ولا سيما في المضرب الذي اقمنا فيه خمسة ايام انتظارا لوصول جماعة اخرى من المسافرين •

ويسكن نصيبين عدد كبير من الارمن لانها تقع في اطراف ارمينيا الواسعة ولذلك فلم نعد نشعر هنا بالخوف الذي كنا نشعر به ونحن نجتاز بلاد الاكراد!

خلال اقامتي هناك طلب الي التاجر الارمني الذي اشرت اليه قبلا ، ومعه

احد السادة الاتراك ، ممن كان يعطف عليَّ طيلة الطريق ، ــ بعد ان سمعا من اليهود الذين معنا بانني طبيب ــ ان اذهب معهما الى «ديار بكر» ــ وهي مدينة تبعد مسيرة اربعة ايام وتقع على الجانب الاخر من دجلة ــ كيما اعالج بعض اقاربهما المرضى هناك وانهما سيقدمانني الى الباشا الصغير بن محمد باشا ، والذي يشكو هو الاخر بعض المرض في الوقت ذاته ، مما سيعود علي بفائدة كبيرة .

ولقد تقبلت ذلك الطلب من صميم قلبي لانه ما من شيء يسرني اكثر من ان اقدم الخدمة لذلك الارمني بسبب عطفه ورقته .

ولما كنت قد طلبت بان اعود الى حلب وان عليَّ ان احافظ على كلمتي في ذلك ، ولي فيه مصلحة غير ضئيلة ، فقد رفضت طلبهما واعتذرت عن تلبيته بكل رقة .

والباشا ــ ما خلا الباشا الوزير ــ [٢] هو من بين الذين يؤلفون حاشية السلطان التركي على الدوام ، بينما يكون السلطان هو اعلى رئيس في تركيا ، وهو يحكم اقاليم اكثر سعة وثمرا من تلك التي يحكمها باشا بغداد من امثال اشور والعراق واجزاء واسعة من ارمينيا ومنطقة الاكراد وغيرها مما يتاخم حدود ملك فارس .

× × ×

بعد ان استرحنا واتنعشنا ، وانضمت الينا جماعات اخرى من المسافرين شرعنا ليلة العشرين من شهر كانون الثاني بمسيرتنا فمررنا بعدد من القرى والحقول المحروثة ، وتحدثنا الى السكان فيها بما تعلمناه من الارمنية والتركية والعربية ، تلك اللغات التي يشيع استعمالها في تلك البلاد .

---

(٢) الباشا الوزير يقصد به هنا رئيس الوزراء او ما عرف لدى الاتراك باسم « الصدر الاعظم » .

استمر سيرنا حثيثا حتى وصلنا في اليوم الحادي والعشرين الى مدينة (حران)[٣] لنمضي يوم السبت فيها • وفي هذه المدينة وافت الانباء بوفاة السلطان التركي (سليمان)[٤] •

نهضنا في وقت مبكر من صباح اليوم الثالث والعشرين من الشهر واتخذنا سبيلا اخر نحو (اورفه) وهي مدينة اخرى قطعنا في الوصول اليها خمسة ايام • وكلما اقتربنا من جبل « طور »[٥] (الذي يفصل ارمينيا عن بلاد الرافدين من ناحية الجنوب) ازداد الطريق وعورة لكن وعورته تعاظمت في اليوم التالي ، وهكذا كلما توغلنا في الجبال وجدنا الطرق فيها ملأى بالاحجار التي اعاقت سيرنا كثيرا وقد كلل البعض من هذه الجبال بالثلوج نوعا ما (وذلك امر لم اشاهده في هذه البلاد سوى مرتين) •

وحدث ان كبا احد خيول اليهود فتدحرج فوق الطريق ، وحين سمع اليهودي تلك الجلبة التفت الى الوراء فوجدني واقفا بجنب الحصان واذ ذاك تعاظم سخطه علي ، اذ ظن بانني انا الذي اسقطته ، فحرك قوسه وسهامه نحوي • وحين وجدته مهتاجا وتذكرت كيف اضعت شرابي في السفينة حين سارت بنا في اليم ، لم اتأخر هذه المرة بل سارعت اليه وامسكت باحدى ساقيه فاسقطته من فوق حصانه قبل ان يطلق سهمه نحوي ، وهكذا اخذ احدنا يلكم الاخر طويلا الى ان جعلته يترنح في النهاية • واذ رأى المسافران الاخران معنا اننا قد افسدنا التمتع بمرأى

---

(٣) ذكر المؤلف مدينة حران باسم هوشان Hochan وهي تقع على بعد اربعين كيلومترا الى الجنوب الشرقي من مدينة « اورفه » وتقوم على نهر البليخ •

(٤) لم يكن السلطان المتوفى يدعى سليمان بل هو السلطان سليم الثاني الذي ولد سنة ١٥٢٢م وتولى الحكم سنة ١٥٦٦م وتوفي سنة ١٥٧٤م

(٥) جبل طور Tauri يراد به جبل « طور عبدين » الذي يمتد من ماردين في الغرب الى جزيرة ابن عمر في الشرق مارا بنصيبين وقد افتتحه العرب ما بين ١٨-١٩ هـ (٦٣٩ - ٦٤٠م) وكان من المراكز الاولى للمسيحية في الشرق •

الثلوج ، وانني قد تغلبت عليه ووجهت اليه لكمات عديدة ، بادرا في الحال الى الفصل بيننا واعادة الصلح •

وحين وجدت انهما لم يحملاني تبعة ما حدث ، وان علينا ان نسافر سوية ، قررا ان يظهرا صداقتهما لذلك اليهودي ثانية • وعلى هذه الشاكلة مضينا في رحلتنا فوصلنا اثناء الليل الى قرية تقع في واد ضيق يستد عند سفح مرتفع عال عثرنا على اصطبل كبير بالقرب منه فتوجهنا اليه وكان هذا الاصطبل منحوتا في الجبل • وهكذا امضينا الليلة فيه ولم نستطع ان نرى شيئا منه سوى مدخله • ذلك لان المألوف في هذه المناطــــق الجبليــة ان تنحت مثل هذه الاصطبلات في الجبال ، وان تبيت القوافل فيها بامان ، وتستطيع ان تقي نفسها من البرد ايام الشتاء •

كان هذا الاصطبل (الذي يبلغ طوله خمسا وعشرين خطوة وعرضه عشرين خطوة وعلى ارتفاع متساو من كل الجهات) قد تم نحته في احدى الصخور •

وعند منتصف الليل تقريبا ، وحين كنا في اول اغفاءة ، طرق علينا احد سعاة بريد السلطان باب الاصطبل • وكان هذا الساعي قد وصل الى هنا من بغداد في مدى ستة ايام ، وقد جاء الى الاصطبل يبحث عن بعض الخيول غير المتعبة (لان خيله قد تعبت ولم يستطع الحصول على غيرها اثناء الطريق على خلاف مايحصل في بلادنا الاوربية التي ينتظم فيها امر البريد) وقد دخل الساعي الاصطبل فاخذ من المكاري ثلاثة خيول ، كما اخذ حصانين من اليهودي (الذي سبق ان تنازعت معه) • ذلك ان هؤلاء السعاة التابعين للحكومة يتمتعون بامتيازات كبيرة ، اذ يحق لهم ، عند الضرورة ، ان يضعوا ايديهم على ايـة خيول يجدونها في المدينة او الريف ويحتجزونها لهم • وهم في هذا لا يقيمون وزنا لاحد من الناس سوى التجار والاجانب الذين يعتذرون اليهم ، وهذا ما ادى الى تشجيع التجارة •

اما اولئك الذين يقصدهم هؤلاء السعاة فان عليهم ان يتخلوا عن خيولهم دون ادنى تردد ، ومن غير ان يفكر احدهم في احداث جلبة (كما فعل ذلك احد اصدقائنا الذي ابى ان يفتح باب الاصطبل في الحال) مما يزيد في تعقيد المشكلة .

وخيل خيل لذلك الساعي انه حصل على خيل جيدة سرعان ما اكتشف غلطته ، ذلك لان الخيل التي اخذها من اليهودي قد كرت راجعة اليه ، واذ ذاك لم يسمح له اليهودي باخذها ثانية الا بعد ان كافأه الساعي على ذلك بصداري طفل مصنوع من القماش الهندي الفاخر .

وقد ادى هذا الامر الى تأخير رحلتنا يوما كاملا الى ان استطاع المكاري الحصول على خيول اخرى في تلك المنطقة حيت استيقظنا في اليوم التالي مبكرين وواصلنا رحلتنا عبر جبال وعرة ووديان ضيقة طيلة ذلك اليوم كله الى ان وصلنا ليلا الى احدى القرى التي يسكنها الارمن .

وهؤلاء الارمن من المسيحيين الطيبين الذي يتحمسون كثيرا لرفاقهم المسيحيين ، ويودون ان يظهروا الود والرقة تجاه الغرباء ، وهذا ما جربته عنهم غالبا ولا سيما في هذه القرية ، حيث اخذني احد الارمن انا واليهود الى بيته فسكنا عنده حتى اليوم التالي واذ تهيأ لي الوقت الكافي هناك دخلت معه في حديث طويل عن عقيدتنا المسيحية فكان يوافقني على ما اقول . ومع ان احدنا لا يفهم الاخر الا ان اليهود كانوا يقومون بمهمة الترجمة فيما بيننا ولولا ذلك للاذ كل منا بالصمت وراح احدنا يتطلع في الاخر ليس الا .

كان اهل ذلك البيت انذاك يمارسون الصوم الكبير وقد عرفت ذلك من قلة الانواع التي يتألف طعامهم منها (لانهم لا يتناولون سوى الاطعمة النباتية والخبز والماء) .

وبعد ان وضع صاحب البيت امامنا بعض البيض المسلوق في تلك الليلة

اقبلت عليه مندفعا لانني كنت جد جائع ، ولم اكن اتصور انهم يتمسكون بمثل هذا التزمت والتفريق في طعامهم. ولقد دهش اذ رآني لاامتنع عن تناول البيض فسألني ، عن طريق احد اليهود ، عما اذا كنت لا ادرك ان تناول البيض وغيره من اللحوم محرم في هذا الصوم ، فلم احر جوابا (ذلك لان المسيحيين يجب ان يتحلوا بالوقار والزهد في هذا الصوم بدلا من التزمت والتفريق بين الاطعمة) .

ولما لم اكن اعرف لغته فقد اجبته باختصار موضحا له ان صومنا لم يحل وقته بعد ، ولن يحين اوانه قبل مرور ثلاثة اسابيع من الان . وذلك امر لم يرض به قط .

× × ×

استأنفنا مسيرتنا في اليوم الثاني والعشرين من كانون الثاني فسرنا وسط جبال شامخة وعرة المسالك مليء بالادغال وقد اجتزناها قبل ان يحل الظلام حيث نزلنا في القرية التالية التي كانت تقع على ربوة في احد السهول وقد مكثنا فيها اليوم التالي كله لان كان يوم السبت .

فاتني ان اذكر ان اليهود خشوا ان تؤخذ منهم خيولهم ، كما حدث لهم ذلك قبل بضعة ايام ، ولهذا كانوا غالبا ما يسلمونني تلك الخيول لاقودها بنفسي وكأنني انا صاحبها ، وكانوا يأملون الحفاظ عليها بهذه الوسيلة وهكذا ففي الوقت الذي كان فيه اولئك اليهود بمثابة ادلاء لي ، كنت انا في الوقت ذاته حاميهم .

بعد ان اجتزنا جبالا هائلة ومسالك وعرة وصلنا الى واد خصب يمتد مسيرة عدة ايام الى « اورفه » وقد بانت على جانبي الطريق عدة قرى ومن بعدها ظهرت المدينة قبالتنا بقلعتها القائمة على احد التلال بشكل بهيج .

دخلنا المدينة ليلة الثلاثين من كانون الثاني ، فذهبنا للاقامة في نزل واسع حسن البناء مكثنا فيه اربعة ايام .

وهذه المدينة لطيفة جدا وكبيرة نوعا ما ، ومزودة بحصون قوية ، وقد

كانت المدينة والمنطقة كلها تعود قبلا الى ملك فارس ، اما الان فانها من اهم الانحاء التي تخضع للسلطان التركي .

وتنشط التجارة في اورفة نشاطا جيدا ، ويكثر الاتجـار فيها بمختلف انواع الاقمشة المزركشة ، يصنع البعض منها في المدينة ذاتها ، ويصدر الينا في اوربا ، بالاضافة الى التعامل بمختلف انواع السلع التي يؤتى بها من حلب ودمشق واسطنبول وغيرها ، والتي ترسل من هناك الى ديار بكر في مـدى خمسة ايام ومن ثم تنقل الى ماذي وفارس والهند وغيرها .

ولقد ذكر البعض ان هذه المدينة كانت تعرف قديما باسم(حران) او « كراس »[٦] ومنها ارتحل الرسول « ابراهيم »[٧] مع زوجته (سارة) وابن اخيه « لوط »[٨] ـ تنفيذا لامر الله الذي اصده اليه (سفر الخليقة الاصحاح ١٢) ـ الى « ارض كنعان »[٩] التي وعده الله بها .

ولا تزال في المدينة بئر فياضة قائمة الى اليوم تدعى « بئر ابراهيم » وكان الخادم الذي بعث به ابراهيم الى بلاد الرافدين ، أي مدينة « ناهـور »[١٠] (ليبحث فيها عن زوجة لولده « اسحق » من اقربائه هناك) ، كان هـذا

---

(٦) حـران Haran وكراس Charras هو اسمها اليوناني في حين سماها الرومان « كاريا » كانت قصبة « ديار مضر » قبل الاسلام ، وهي تقع على مقربة من منبع نهر البليخ بين « الرهـا » و « رأس العين » سماها الكلدانيون « حرانوا » افتتحها المسلمون صلحا بقيادة عياض بن غنـم سـنة ٦٣٩م .

(٧) ابراهيم الخليل الذي ذكر ان موطنه الاصلي اور ثم رحل الى حـران ومنها انتقل الى فلسطين

(٨) لـوط Lot

(٩) ارض كنعان هي فلسطين التي استقر فيها ابراهيم الخليل في مدينـة الخليل التي عرفت باسمه وفيها ضريحه . وهي المسماة باسم «حبرون» في التـوراة .

(١٠) ناهور Nahore ويغلب على الظن ان المقصود بهـا مدينة « اور » السومرية موطن ابراهيم وابيـه .

الخادم قد رأى عند تلك البئر « ربيكا »[11] التي قدمت لـه ولابلـه الماء المستخرج من البئر ذاتها .

ومثل هذا فعله الرسول « يعقوب » عندما هرب من اخيه « عيسو »[12] اذ قدم الى ذات البئر وعرف نفسه الى « راشيل » ابنة خاله « لابان »[13] . وعندئذ ازاح الاحجار عن فوهة البئر وبذلك استطاعت راشيل ان ترد اغنامها من مائها .

ومياه هذه البئر ذات رغوة اكثر بياضا من بقية المياه الاخرى . ولقد شربت عدة مرات من مائها الذي كان يخرج من فوهتها ، ويجري وسط النزل الذي حللنا فيه ، فكان عذبا حلو المذاق .

والى هذه البئر ذاتها جاء ايضا ابن « طوبيا » البار الذي حمله اليهـا الملاك « رفائيل » الذي بعث به ابـوه الى « الرها »[14] (التي تدعى الان اديسا) ــ كما سبقت الاشارة الى ذلك قبلا كيما يطالب « غابيل » بتسديد دين في ذمته ، مثلما نكون قد قرأنا ذلك في الاصحاح الحادي عشر من كتابه ، وحينئذ عاد عبر طريق « حران » الذي يؤلف نصف الطريق الى نينوى .

× × ×

بعد ان اكمل اليهود اعمالهم بنجاح تام هناك ، استأنفنا رحلتنا فبلغنـا جبالا شامخة وعرة المسالك ، حيث امضينا اليوم التالي كله في نصب ومشقة

---

(١١) ربيكا Rebeca

(١٢) عيســو Esau

(١٣) راشيل Rachel ووالدها « لابان Laban » الذي هاجر مع ابراهيم الى فلســطين .

(١٤) الرهـا Rages هي مدينة « اورفه » ذاتها سماها اليونانيون اديسـا Edessa واسمها السرياني اورهوي وهي قصبة بلاد مضر التي كانت تعرف قبلا باسم بلاد « اوسرهون » او مملكة اوسيرهون العربية واول ملوكها اورهاي برحويا الذي بدا حكمه سنة ١٣٣ ق.م . وقد احرقها الرومان سنة ١١٦م ثم جددها الامبراطور جستنيان سنة ٥٤٥م وسماها باسمه جستانبولس وقد انتزعها المسلمون من حاكمها اليوناني سـنة ٦٣٧م بقيادة عياض بن غنـم .

بالغة الى ان وصلنا الى نهر الفرات ثانية ، والى مدينة « بير » ذاتها التي سبق ان اشرت اليها من قبل .

ومع ان المسافة بيننا وبين حلب لا تزيد عن مسيرة يومين ونصف اليوم فان رفاقي اليهود كانت لهم بعض الاشغال في « نصيبين » الشهيرة (التي تقع على هذا الجانب من النهر وعند الحدود السفلى لارمينيا) وعلى هذا اصبحنا ملزمين بالذهاب الى المدينة ، ومن ثم واصلنا مسيرتنا بعد انقضاء يوم السبت أي السادس من شهر شباط عبر حقول مزروعة بالقمح زراعة جيدة ، متجهين نحو « عينتاب » (١٥) التي بلغناها عند المساء وهي مدينة كبيرة نوعا ما لكنها ليست محصنة ، وتقع على تلين صغيرين لطيفين ، ولذلك تستطيع ان تراها بوضوح وتمييز حين تخرج من الوادي عبر احدى البحيرات اى الحقول .

وعلى الرغم من ذلك فان موقعها حسن ومنظرها بهيج عن بعد ، وان كانت تبدو من الداخل واهنة البناء .

وقد حاصر ملوك فارس هذه المدينة عدة مرات في العصور السابقة ثم استولوا عليها اخيرا واحتفظوا بها زمنا طويلا ، الى ان استعادها الامبراطور الروماني جليانوس (اذينة التدمري) (١٦) من الملك الفارسي « سابور » ، مع مدينة « اورفة » سوية وضمها الى الامبراطورية الرومانية مرة اخرى .

ولكن وا أسفاه ! انها في وقتنا الحاضر هذا تخضع ، مع بقية البلاد الاخرى ، للاستعباد العثماني !. وقد غدت التجارة فيها ضئيلة ولذلك يعتاش سكانها على مقاطعاتهم الزراعية اذ يزرعون الاراضي التي يملكونها بالكروم والبساتين التي تكثر فيها اشجار الرمان والتين وغيرها (وهذه الاشجار مثقلة

---

(١٥) عينتاب كتبها المؤلف باسم اندب Andeb وهو اسمها القديم .

(١٦) جوليانوس اودينانوس بالميرنوس Galiens Odenatus Palmyrenus لم يكن هذا امبراطورا للرومان كما ذكر راوولف وانما كان من اعضاء مجلس الشيوخ في « تدمر » المملكة العربية المعروفة في سوريا وهو الذي تصدى للملك الفارسي « سابور » الذي استولى على ارمينيا وما حواليها في الفترة ما بين ٢٥٣ ـ ٢٦٣م .

بالفاكهة) ولكنك ان نظرت اليها عن بعد حسبتها غابات من اشجار برية وليست اشجارا مثمرة .

وهكذا ترى اهل هذه المدينة يصدرون في كل سنة انواعا عديدة ، من الفاكهة ، وفي مقدمتها الزبيب ، الى البلدان الشرقية بطريق القوافل التي صادفت الكثير منها .

بعد ان مكثنا هناك واضعت انا اليوم كله سدى في سبيل اشغال اولئك اليهود ، توجهنا نحو « حلب » رأسا فقطعنا عدة اميال في طرق جبلية وعرة الى ان بلغنا في النهاية سهلا ارضه لطيفة خصبة تكثر فيها الخمور والقمح بشكل لم اشهد مثله قبلا . ويمتد هذا السهل الى مدينة حلب التي وصلناها مبكرين وفي صحة جيدة بعون الله العظيم في اليوم العاشر من شهر شباط ١٥٧٥ .

وعند وصولي اليها لم يكن رفيقي « هانز اولرخ كرستل » موجودا مع بقية القوم ، واذ ذاك اقبل علي بعض التجار الفرنسيين (الذين سبق ان عالجتهم مما اصابهم من مرض قبل رحيلي) فحملوني معهم الى مسكنهم ، ورغبوا الى ان اعيش معهم الى ان تنتهي مهمتي (التي استدعيت بالعودة بسببها) فكانوا في ذلك مثالا للرقة حقا .

ولما كانت ملابسي قد تمزقت (لانني لم اخلعها عن بدني مدة نصف سنة) فقد توفرت لدي فرصة الاستراحة والحصول على ملابس جديدة .

وانني لاشكر الله العظيم على رحمته الواسعة ، وعلى العطف الذي حباني به ، والمساعدة التي اولاني اياها في هذه السفرات فله مني الشكر والتبجيل والمجد[١٧] .

---

(١٧) الى هنا انهينا القسم الاول من هذه الرحلة اما القسم الثاني الذي يتحدث فيه الرحالة عن مشاهداته في سوريا ولبنان وفلسطين . فسوف نسعى الى نشره في جزء اخر يحمل ذات العنوان ان شاء الله !

ملحق باسماء النباتات التي صادفها راوولف في رحلته الى الشرق

الحرف ا	A
القيصـــوم	Abotanum
شجر السـنط العطر ، الطلح (اقاقيـا صمغ عربي)	Acaciae
الكمـأة . الفطر	Ageratum
الحاج نبات يشبه الشوك العاقول	Alhag
خطمى ورد الخطيمة	Alcea
نوع من النباتات السـدوية المخنثة	Androsae mum
شقائق النعمان	Anemone
شبث نوع من النباتات الخيميةوالتوابل	Anetho
السـفرجل الهنـدي .	Anonis
دفلى : نبات قاتل الكلب او خانق الكلب	Apocynum
اربوطـس . قطلب ، نبات يدعى (قاتل ابيـه)	Arbutus
اريصادن او نبات الرنس	Arisarum
ارسطولوخيا نبات الزراوند	Aristolochia
ارون . اللوف ، خبز القرود	Arum
اسطر نبات ذو زهور مركبة	Aster
استراغالوس نبات من فصيلة البقول	Sstragalus
المشرف . نبات متعدد الازهار	Atractylis (cypria)
القرطـم البـري	Atractylis (Antiquarum)
الشوفان ، الهرطمـان	Avellana
اسم فارسي للشجر العتيق	Azadirachta

B	**ب**
Baccharis	بخارس . بابونج الطيـــور من جنس الاشجار المركبة
Balsamum	شجر البلسم
Behmen	شجر البـــان
Bellis	نبات المولى ، البرنية . زهر الاجراس
Borago	ورد لسان الثور
C	
Calamus	القصب الذريري نبات يشبه الذرة له
Camarronum	رائحة عطرية
Capparis	نبات القطيفة عرف الديك
Castrnea	شجر اللصف او الكبر
Catanance	الكستنة . ابو فروة القسطل
Caucalis	التسطل شاه بلوط
Cedrus (Magna)	ازهار ذوات سيقان
Cedrus (Lycia)	شجر الارز من النوع الضخم
Chomaeleon	ارز من النوع الصغير
Charnobi Arab	شجر الحور الابيض
Chondrillae	الخرنوب العربي (ثمر الشوك)
Chrysocome (Vera)	الهندباء البريـــة
" (Syriaca)	نوع من الازهار الحلزونية اقحوان
Chrysogonum	اقحوان سوري
Cistus	نبات ذنب القط
Clinopodium	فستس . لحية التيس
Cneorum	نبات راس العصفور
Colehicum	نوع من ازهار السوس
Convolvulvs Hederae	زهر شجرة اللحلاح . سورنجان
Convolvulus Carleus	شجر العليق . اللبلاب
Convolvulus Sagittariae	نبات لفلاف

Convolvulus Marinus	القطب نوع من شجر البان
Convolvulus Arabicus	شجر البان البحري
Conyza Syriae	شجر البان العربـي
Conchorus Plinii	قونيزة ، طباق نبات مركب
Coris Foliis	نبات الملوخية في مصر .
Coris Legitima	نبات البطراون (يونانية)
Corona	نبات السمفوطس (يونانية)
Cyanus Floridus	الاكليل . التـاج
Cyanus Orientalis	قيانوس نبات عطري متعدد الاوراق
Cyclamine Antioch	زهر القيانوس الشرقي
Cyclamen Autumnal	نبات عطري يسمى بخور مريم (الانطاكي)
Cyclamen Hyemale	نبات بخور مريم الخريفي
Cyclamen Heme	نبات بخور او شجرة مريم المتعـددة الازهار
Cyperus Rotondus (Orien).	شجرة مريم المتعددة الاوراق
Cyperus (Syriocus)	نبات السعد (الشرقي)
Cytisus	نبات السـعد (السوري) الشندي
D	
Daucus	قوطيوس من النباتات القرنية الفراشية (جزرايجه)
Dictamnus	نبات من فصيلة البقول . الحسـك (سوريا) جزر
Draba	نبات مشرفي الفوذنج
	نبات الغـرب
E	
Ephedra	نبات العـدم
Eruca	نبات الجرجير (من الفصيلة الصليبية) حشيشة الغبيرة
Eryngium	نبات شوكي من الفصيلة الخيميـة (شوكة ابراهيم) بقلية

F

Ficus Sypria	شجرة التين او الجميز .
Fustick Wood	الفسطيط شجر ضخم

G

Garab	الغرب
Genista Spiosa	الرتم . السزان
Genista Spartium	الرتم شجر له زهر وحب مثل حب العدس
Gengidum	بلوط
Glans	اللبـــان
Gnaphalio	

H

Habhel	نبات الزرام (الجزائر)
Hacub	نبات العود (سوريا)
Harmala	الحرمـل .
Heliochrysum	نبات بري من نوع القيصوم
Heliochryson	اقحوان من فصيلة عباد الشمس
Hespris	زهرة المساء زهرة من الفصيلة الصليبية
Hieracium	المرير (حشيشة القعاب) نبات عشبي مركب الزهور
Horminum	نبات الجنجل ، الشعير ،
Hyacinthus Comosus	العيسلان نبات زنبقي
Hyacinthus Racemosus	الزنبق المتعدد الاوراد
Hyacinthus Orientalis	الزنبق الشرقي عباد الشمس
Hyacinthus Stellatus	الليلاق
Hyacinthus Eiriophorus	زهر عيـون الغـزال
Hyacinthus Tripolitanus	الزنبق الطرابلسي
Hyacinthus Ae Gyptius	الزنبق المصري

Hyacinthus Montis	الزنبق الجبلـي
Hyacinthus Syriacum	الزنبق الســدري

I

Iris Bulbosa	الاس البابلي
Iris Chalcedonica	الاس الضـخم
Iris Asiatica	ياسمين فارسي
Iris Damascena	سـوسن
Iris Tripolitana	سوسن الخلقدونية
Iris Tuberofa	سوسن اسيوي

J

Jacea Babylonica	سوسن دمشقي
Jacea Maxima	سوسن طرابلسي
Jaceam	جذر البنفسج
Jasminum Persicum	

K

Kali Arabum	القلي العربي . شنان
Kali Arabum Seecundum	القلي العربي
Kismesen	زهر القسمسن

L

Lamium	لاميون نبات شـفوي
Lapathum	نبـات الحماضي
Laserpitium	الايراقليون شجر صمغي
Lathxrus	نبات بقولي
Laurocerasus	شجر الغار الكرزي
Leontopetalon	نبات الاذريون
Lepirium	نبات من الفصيلة الصليبية . الخماش
Leucoium	الزغـل
Lilium	زنبـق

Linaria	التيل نوع من الاعشاب
Linariae	نبات عشبي من الفصيلة الخنازيرية
Lupinus	نوع من نبات الترمس السام
Lychnidis	زهر من فصيلة القرنفل
Lychnis Chalcedonica	نبات من الفصيلة القرنفلية
Lychnis Flore	القرنفل المتعدد الزهر
Lyshnis Sylvestris	نبات سراج القطرب
Lycium	العوســـج
Lycium Boxi	الخـــولان
Lycopsis	نبات اذن الحمار نبات غير مزهر

M

Majorana	اذان الفأر عبقر حبق الفيل من الشفويات زهـــر
Malva	خبـــازيات
Marrubium	نبات عشبي من الفصيلة الشفوية
Medica Trisuls	النفـــل
Medica Siliquis	النفـــل . القرط
Medium	الصفصاف . السفراب
Medac Arabum	القرطم العربي
Melantzani	شربين . عرعر
Melilotus Corvis	حندقوق اكليل الملك
Melilotus Syriaca	حندقوق سوري
Melilotus Lutea	حندقوق اصفر الزهر
Melilotus Minima	حندقوق قطري
Melissa Moluca	ترنجـــان
Melochia	البطيـــخ
Morgsani	مرجـــان
Mossolini	طحلب « كثة العجوز »
Mungo	ثمـــر المانفـــا

Myagyrum	زهرة سلطان الحب
Myrtus	شجر المر الذي يستخرج منه الصمغ الاس الريحان
N	
Narcissus	زهر النرجس
Nasturtium	زهرة قرة العين بقلة معمرة تؤكل اوراقها
Negill	الحبة السوداء
O	
Olea	فوزنج من الفصيلة الشفوية
Origanum	من الفصيلة الزنبقية يستخرج منها الصمغ
Ornithogalum	
Onobryhis	نبات سنة العجوز . جلبان الحية
P	
Parma (Palma)	النخل
Panax	الدخن .نبتة ذات جذرين
Papaver	الخشخاش
Persea	شجر اللبخ
Periploca	شجر الحلاب او الحلب
Petromarula	نبات البقدونس
Phaseolus	قطن
Planta Lactaria	لسان الحمل نبات عشبي معمر
Pistacea	الفستق
Polium	عشب من الفصيلة النجيلية (الجعدة)
Polygonum Baccirum	جنجر . عصا الراعي
Polygonum Mximum	
Poterium	نبتة قرعة الراعي
Prunella	شجر الاجاص الشائك . برقوق
Pseudo Dictamnum	شجر من الفصيلة الصنوبرية

Pulfatilla	فطر من الفصيلة الفقعية (فســـاء الذئب)

Q

Quadrifolium	نبـات مربع الاوراق

R

Ranunculus	نبات ذو فلقتين ، جوذان الشونيز
Ranunculi	شقائق النعمان شونيز جوذان
Raphanistrum	الفجـــل
Rhamnus	من الاشجار المستوطنة في افريقيا واوربا (رافس)
Rhaponticum	شــجر الراوند من الاشــجار المعمــرة (ترفــة)
Ribes	الكشمش . عنب الثعلب
Rosa Hierichontea	ورد جوري عرشــق
Rosae Hierichontea	
Ruta	

S

Salix Arabica	الحرمل السذاب
Salix Syriaca	الصفصاف العربــي
Salvia	الصفصاف السوري
Satureia	شجر الاراك
Scabiuosa	الســحلب
Scammonia	زهرة الجرب ، حشيشة الجرب
Schaniuth	سقمونية ، المحمودة نوع من البقـــول الصــمغية
Scorzonera	الشـــوك
Scorzonera Radice	الشـــوك
Scorzonera Orientaliis	ذوات القشر الاســود
Scordiium	نبات المريــر

Sebestena	الدباء عند عرب الجزيرة
Secacul	الثوم البري ثوم الحية
Secudes	سبستان ثمرها لزج
Seisefen	القطاني نوع من الفصيلة النجيلية
Sephia	سيسبان . سيسباء
Sideritis	زوفا (حمص ؟)
Sisarum	نبات الفزر (العريشي)
Sisyrhinchium	نبات الفرا والفريرا
Solanum	الخردل البري
Sorghi	نبات عشبي من الفصيلة الباذنجانية
Spartium	الذرة
Speculum	شجر الرتم . كف الكلب
Stachys	ذات السنابل القليلة
Sycomorus	رغل من النباتات الشفوية
Syringa	الجميز
	نبات للتزيين من الفصيلة القلبية

T

Terebinthus Indica	ابطم الهندي
Tereniabin	
Tharasalis	
Thlaspi	
Thlaspi	ازهار من الفصيلة الصليبية
Thymus	السعتر (زعتر)
Tithymalus	شجر الزيزفون
Tragacantha	شجر العضاء الصمغي
Tragium	شجر الحرقوف . الجمينة
Trionum	النفل
Trunschibil	ابو خنجر . طرطور الباشا

Tulipa	شجرة الخزامى
Tulipam	شجرة قرن الغزال

V

Verbasum	بوصير . آذان الدب
Viola	البنفسج
Vitex	زهرة خماسية . كف مريم

Z

Zarneb Zarnabum	نبات عرق الكافور
Zarneb Melchi	
Zaroa	الطرطير .

محتويات الكتاب

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٨٤ لسنة ١٩٧٨

دار الحرية للطباعة بغداد
١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والفنون

السعر: ٢٥٠ فلساً

دار الحرية للطباعة - بغداد
١٩٧٨

توزيع الدار الوطنية للنشر والتوزيع والاعلان